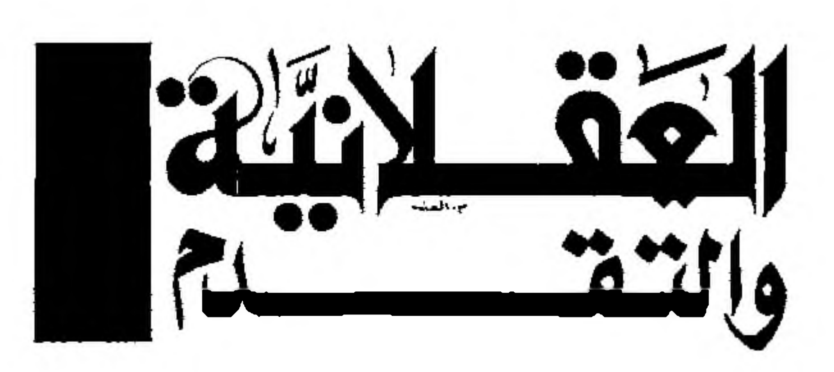
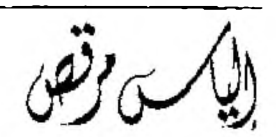

2
دراسات
في الوحدة العربية


أبو عبدو البغل


العقلانية والتقدم


إلياس مرقص

الطبعة الأولى
1992م

4 مكرر شارع فرنسا ـ أكدال
الرباط ـ المملكة المغربية
هاتف: 77052-77059-77065--78631
فاكس: 74139 ـ تلكس: 32656

مقـدمـــة

لقد الفكر العربي بموت إلياس مرقص «1929 ـ 1991م» واحداً من أكثر المثقفين العرب التزاماً بقضايا الأمة وشجونها، وقد عاصر الفقيد سنوات متوترة في الحاضر العربي، وحاول بعقل الفيلسوف المناضل مواجهتها من أجل المساهمة في فهمها وتوجيهها وفقاً للاختيارات الوحدوية في مجال العقيدة السياسية، والنقدية في مجال النظر الفلسفي، وهي الاختيارات التي التزم بها طيلة حياته.

إن مراجعة سريعة لمجمل الآثار الفكرية التي تركها إلياس مرقص تثبت بما لا يدع أي مجال للشك انخراطه النقدي في مواجهة معضلات الفكر والواقع العربيين. وقد ساهمت هذه الآثار في تدعيم جبهة الفكر النقدي في دائرة الفكر العربي المعاصر، كما ساهمت في رسم الصورة المُرَكَّبة لعمل الفكر المعبر عن شؤون الفلسفة والسياسة والتاريخ.

إن الولع البارز في أعمال إلياس مرقص بالنظرية والمفهوم لا يتجه صوب بناء الأنساق الفلسفية المجردة والمتعالية قدر ما يتجه نحو محاولة الإمساك بمعضلات التاريخ بأدوات الوعي الدقيق، ولهذا الغرض وظف تكوينه الفلسفي لتعميق الوعي السياسي العربي، محاولاً تأسيسه على أرضية فلسفية صلبة تمكنه من فهم مجرى التاريخ والمساهمة في توجيه صيرورته، وفقاً للإرادة البشرية الواعية والمؤمنة بالتقدم وبالإنسان.

وضمن هذا الإطار تدخل مختلف مؤلفاته سواء منها التي اتجهت صوب قارة الفكر القومي وحاولت إعادة النظر في مكوناته وأصوله، أو المؤلفات التي اعتنت بالفلسفة الماركسية وسعت لإنجاز محاولات نقدية في سبيل تَبْيِئة مفاهيمها في المناخ العربي، وإبعاد الصَنَمِيَّة عن أطروحاتها الرئيسية، ولعل الترجمات العديدة التي قام بها لعديد من النصوص الفلسفية الماركسية تدل بصورة مباشرة على جهوده الهامة في باب تأصيل النظر الفلسفي في الفكر العربي المعاصر.

إن المنحى النقدي الذي اتخذه الأثر النظري المُرقصي يعبر عن لحظة نفي إيجابية في سياق تطور الفكر العربي المعاصر. ففي مجال نقده للايديولوجية القومية التقليدية حاول الوقوف ضد ميتافيزيقا الهوية الثابتة والجواهر الأصلية، معتبراً أن مسألة تشكل الأمة مسألة تاريخية، فلا يمكن مقاربة الوجود التاريخي القومي للأمة بآليات فكرية سكونية لا تاريخية. بل يجب أن يشكل المبضع التاريخي السياسي والجدلي الأداة المناسبة لمراجعة المنظومة القومية و إعادة تأسيسها في سبيل بلورة وعي وحدوي ديمقراطي. وفي هذا السياق ساهم إلياس مرقص في تأسيس مجلة «الوحدة» لسان حال المجلس القومي للثقافة العربية. من أجل إيجاد الأداة الفكرية المساهمة في تأصيل الفكر القومي، انطلاقاً من قناعته الراسخة بدور الفكر في توجيه العمل، إلى جانب مساهمته في تأسيس العديد من المنابر الفكرية والمؤسسات السياسية والثقافية.

أما مساهمته في مجال نقد الفلسفة الماركسية فقد تمثلت في قراءته للماركسية في ضوء أسئلة الحاضر العربي، وكان من نتائج هذه القراءة رفضه لمبدأ نسخ النماذج وتقليدها في مجالي السياسة والتاريخ، وكذلك نقده الشديد للتأويل الاقتصادوي للماركسية، إضافة إلى إلحاحه على ضرورة التمييز بين ما كان يسميه ماركسية عصر صعود البرجوازية وماركسية الزمن الامبريالي التي تتميز بسيادة الاستغلال على الصعيد العالمي.

وقد كانت قراءته الجديدة للماركسية مصحوبة كما أشرنا إلى ذلك آنفا بجهد كبير في ترجمة بعض نصوص مؤسسي الفلسفة الماركسية، ماركس، لينين، لوكاش وغيرهم. وفي هذه الترجمات لم يكن إلياس مرقص يكتفي بالنقل الدقيق، بل إنه كان يطعم مترجماته بكتابة حواشي وتعليقات تدل على درجة تعلقه بالنص المترجم، كما تدل على رغبته في تحيين محتواه، وذلك عن طريق ربطه بأسئلة الحاضر العربي، وهو أمر كان يساهم في تحويل النص المترجم إلى نص جديد.

ونستطيع القول جازمين إن أعمال إلياس مرقص النظرية كتبت تحت ضغط هاجسين أساسين، هاجس التأصيل النظري (وكان يسميه التأسيس النظري) وهاجس تجاوز التأخر التاريخي العربي. تحت إلحاح الهاجس الأول تدخل أعماله المتعلقة بنقد الايديولوجية القومية التقليدية، ونقد الماركسية الستالينية، وتحت ضغط الهاجس الثاني تبرز مواقفه الكفاحية من أجل الوحدة والتقدم.

لقد كان إلياس مرقص ينفر من العمل السياسي الأعمى، ولم يكتف طيلة حياته باحتلال مقعد المُنَظِّر القابع في برجه العاجي، بل دافع على ضرورة الجمع بين وجهي

- • للاطلاع على جوانب من سيرته الذاتية يمكن الرجوع إلى المقالات الهامة التي كتبها ميشيل كيلو ومن بينها:
- – إلياس مرقص: فكر المنعطف ـ مجلة الوحدة عدد 81 سنة 1991.
- – إلياس مرقص وداعاً ـ مجلة لوتس عدد / 75 سنة 1991.

العملة» ، ضرورة النظر للعمل السياسي القومي الملتزم، ولزوم الفعل السياسي القومي المنظم لتجاوز معوقات التقدم في الواقع العربي. ورغم صعوبات لَمّ طرفي المعادلة المذكورة فقد تمكن من تقديم صيغة من صيغ الجمع الممكنة بينهما. وهي صيغة اتسمت بدفاعها المتواصل عن ضرورة الحوار «والتناصت» لتعميق النظر وتيسير سُبل العمل. ولقد حققت هذه الصيغة في نظرنا جهداً هاماً في باب تطوير النظرية والممارسة في مجال الفكر السياسي العربي المعاصر.

• •

نقدم في هذا الكتاب مجموعة من الدراسات التي سبق للمفكر أن نشرها أو قدمها للنشر في مجلة الوحدة ، وذلك اعترافا بجهوده الكبيرة في تأسيس هذه المجلة . واعترافا في الوقت نفسه بأهمية مساهماته الفلسفية في مجال الفكر العربي المعاصر.

ولاشك في ان هذه الأبحاث تعبر عن درجة القوة النظرية التي تتمتع بها كتابته . كما تعبر عن حدة انفعاله بهموم اللحظة العربية الراهنة.

و إذا كانت خسارة الفكر العربي التاريخي والنقدي كبيرة بموت هذا المفكر، فان عزاءنا الوحيد يتمثل في كون اللبنة الفكرية التي ترك، إضافة إلى نبل القيم التي دافع عنها ، ستمكّن الأجيال الجديدة من مواصلة جهوده النظرية والعملية لتتمكن من مزيد من تعميق الوعي العربي ، وعقلنة العمل السياسي العربي ، لبلوغ الأهداف القومية التي ظل مخلصاً لها طيلة حياته.

المجلس القومي للثقافة العربية

أطروحات

من أجل إصْلاح الفلسفة

مجلة الوحدة العدد (6) ـ 1985

1 ـ يجب على الفكر العربي والوعي العربي الانتقال من الرمزية والشيئية الى المفهومية والواقعية.

الرمز ليس المفهوم وليس الحقيقة.

الواقع لا يُستنفد في أشياء أو أجسام أو موجودات. وهو ليس موجوداتٍ ـ جواهر.

فكرة الواقع الصحيحة تحيل على منطق هو منطق الواقع.

الوطن ليس علَماً. العلَم رمز للوطن، لا أكثر.

الحزب ليس لافتةً.

الصورة 4 أو 4 أو الكلمة أربعة ليست المفهوم أربعة والحقيقة أربعة. إنها رمز فقط، أي شيء محسوس (يُرى، يُسمع، الخ) واصطلاحيّ، وبمعنى مهم، اعتسافي. هذه الصورة كان يمكن أن تكون غير ذلك، وهي بالفعل تتغير تماماً حسب أنظمة الترقيم أو الكتابة الرياضية. أما الحقيقة الفعلية الواقعية التي وراءها فهي ثابتة.

الكلمات رموز. إنها بدائل عن الفِكَر أو المفاهيم، يجب الذهاب من الكلمات الى المفاهيم، من اللغة الى الفكْر.

العلاقة أو المقابلة الكبرى، هي: الفكر / الواقع. هذا في المعرفة الواعية أنها المعرفة.

اللغة وكلماتها الخ وسيط بين الاثنين: الفكر والواقع.

المعرفة الواعية ذاتها تعي أنها، في النهاية والغاية، معرفة الواقع، وأنها ليست الايديولوجيا، وأن الواقع ليس المحسوس والمباشر.

المحسوس والمباشر ليس إلا مستوى أول في المعرفة.

المعرفة الحقة ترتكز على مسلّمة أو مصادرة أوّلية هي المنطق.

الفكر يجب أن يحترم ذاته كفكر.

2 ـ يجب الانتقال من الوجودية الى الفكرية، من عنصر الوجود الى عنصر الفكر.

يجب على الفكر والوعي تبنّي مبدأ الـ«أنا أفكر».

هذا المبدأ ليس مبدأ ديكارت وحده، بل هو مبدأ فيثاغور والخوارزمي، هيغل وابن خلدون، نيوتن وآينشتاين، الخ، الخ.

إنه، في المستوى الروحي والفكري، «لحظة moment الذاتية المطلقة»، «الأميّة»، «الصحيفة البيضاء» العقلانية (والتجربيّة بضمنها)، الصفر حامل اللانهاية.

بدلاً من البدء بالقبض على حدّ أو حدود، ثم الركوع لحدّ أو حدود، أبدأ بالتجرّد المطلق، وأتقدّم بالحدود ـ المفاهيم في بناء الجملة، في إنشاء اللوحة المترابطة الحيّة، التي هي الغاية ونقطة الوصول في المعرفة لاسيّما المعرفة التي تريد إرشاد العمل.

بالمقابل، إنّ وثنيّة الروح تقيم شيئية المعرفة.

يقول لينين وراء هيغل وراء سقراط أفلاطون: «الكلّي، إنه الفكر».

في ساحة الفكر العربي، يجب فتح وخوض هذه المعركة: معركة الفكرة والمفهوم والفكر ضد أشباح الحس والوجود والجوهر، الآتية الينا من ماضٍ سحيق ومن حاضر عالمي امبريالي بالغ التقدم.

إن تيارات غربية متنوعة تُعزّز عندنا منحىً قديماً يُراد له أن يكون منحانا القومي وخصوصيتّنا «الروحية».

3 ـ يجب الانتقال من الجوهر والماهية ومن المادة والكمّ الى الشكل والعقل والروح.

يجب إقامة الحد على ألفاظ محبّبة في قاموسنا المتداول، ضخّمتها مدارس مختلفة ومتخاصمة، لكنها التقت على تكوين ذهنية جوهرية واحدة.

يجب الانتقال من «الصورة» الى الشكل والمفهوم.

بدون ذلك لا تاريخية ولا تقدمية. التاريخ تَشكّل، تحوُّل، «تغيّر أشكال»، بل و«تنويعة على الأشكال» (ماركس). اذا كان الماركسيون عندنا (وعند غيرنا) يركبون على «التشكيل» و«التشكيلة» formation (التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية) ويجهلون مقولة الشكل forme، ويجهلون مسألة الصورة ـ الشكل ـ الفكرة ـ المفهوم ـ المثال؟، فهذه مفارقة مهمّة من مفارقات الوعي العربي المعاصر.

«المادّة» مقولةٌ أساءت للفكر الماركسي وللفكر العربي عموماً.

في الفكر الماركسي، ضُحّي على مذبح «المادة» بمقولات مختلفة لا يمكن أن تنوب عنها المادة، قصدتُ مقولات الواقع، والطبيعة، والطبيعة / التاريخ.

يجب ردّ الاعتبار الى وحدة عنصر المادة ـ الكتلة ـ الكمّ ـ الذرّات الخ ويجب أن يقام إزاء هذا العنصر عنصرٌ مقابل هو: العلاقة ـ العقل ـ الروح، بحيث يكون العنصر الأوّل تابعاً ومرؤوساً.

أما «مفهوم المادة الفلسفي» فلا يمكن أن يعني سوى ان الواقع قائم بتمامه خارج رأسي، ولا يجوز أن يضمّن أي شيء آخر، لا يجوز أن يغطّي أية مسلّمة أو مصادرة ضمنية، لاسيا مسلّمة تلغي أو تخفض المنطق في حرب على «المثالية» باسم «مادية» ملتبسة وباطلة.

4 ـ يجب على الفكر العربي الانتقال من التجربية ـ الدوغمائية الى الجدل.

الطريق الأول (التجربية ـ الدوغمائية) يبدأ أو يعتقد أنه يبدأ من الواقع وينتهي الى تبخيره (تبديده) في مجرّدة أثيرية يسميها «القانون» أو «الجوهر».

الطريق الثاني، «المعاكس»، يبدأ من الصفر، يبني اللوحة، ينتهي الى الكل أو الجملة tout, totalité، الى الواقع كعالَم أي لا كجوهر أو كقانون.

بهذا المعنى، إن بلداً من البلدان أو بيتاً من البيوت الخ هو عالَم.

والوطن العربي والأمة العربية عالَمٌ.

هناك من يرفض هذا القول، ويقاتل ضدّه.

من جهتي، إن بيتي الصغير هو عالم وكَون (ليس «جوهراً» أو «قانوناً»). هذا ما أدعوه أيضاً: الديمقراطية. الديمقراطية موقف فلسفي هو الجدل.

5 ـ ثمة تعارض يجب وعيُه بين الوضعوية والعلموية من جهة والجدل من جهة أخرى.

1 ـ الوضعوية positivisme هي المذهب الوضعي أو الايجابي. أما الجدل فهو «بحكم التعريف»، جدل النفي négation.

2 ـ الوضعوية هي مذهب تقدّم على خط مستقيم، مثلاً من الحالة اللاهوتية الى الحالة الميتافيزيقية الى الحالة الوضعية (أوغست كونت). أما الجدل فهو يؤكّد مع الخط المستقيم فكرة الدائرة، يؤكد «وحدتهما».

3 ـ الوضعوية «تكره المجرّدات»، أي بالحقيقة المقولات الكبرى. بالمقابل، إن علم آدم سميث أو كارل ماركس يتأسس على الشغل المجرّد، أي المجرّد عن موضوعاته المادية. ومنطق هيغل يبدأ بالكائن ـ العدم. الخ.

4 ـ الوضعوية تكره الفلسفة. الجدل يعي أنه فلسفة، منطق، نظرية معرفة.

الفكر العربي يجمع وضعوية أوغست كونت مع وضعوية تقليدية.

إنه يتصوّر انه مع العلم والعلمية. بالحقيقة إنه مع «العلموية» مجرّدةً أو مضافاً اليها المجاز. و«الخيال» و«الشعر» الخ.

الميكانيكية أحد أهم أشكال الوضعوية والعلموية والتجربية ـ الدوغمائية.

هذا المجموع الذهني مسخَّر بشكل طبيعي في خدمة الذاتوية subjectivisme، اذن الارادوية، المثالية.

هذه الذاتوية تتعامل مع الواقع بوصفه مادّة للتحريك أو الملاعبة manipulation.

العمل الثوري يصبح كأنه مماثل لعمل الاسكافي في حانوته او لعمل عالم الكيمياء في مخبره. يـنسـون ان الموضوع ذات.

6 ـ بصدد «العقل»، يتصوّر الذهن العربي الحاضر ان العقل شيء في رأسه، إنه بعيد عن معقولية الواقع أو لا يتخذها كمبدأ.

وهو يخفّض العقل الى «العقل السليم» لا أكثر.

إنه يجهل فكرة التناقض.

يجهل ـ مثلاً ـ أن «في اللغة لا يوجد سوى الكلّي»، وأنّ قولنا «هذه طاولة» (الادراك الحسي) هو انفتاح نحو الكلي («طاولة» = عامّ). ويجهل ـ مثلاً ـ الصفر، اللانهاية، $\sqrt{2}$ (العدد الأصمّ)، الخ... رياضيّته بسيطة، ابتدائية.

وهو، إذ يتبنى «العقل السليم» بلا سؤال، يريد في أحسن حال أن يُطوّر هذا «العقل السليم» «علمياً»: استحالة، عبث.

يجب على الفكر العربي الانتقال من «العقل السليم» و«العقل السليم المطوّر علمياً» الى العقل حَسْب. يجب عليه أن يسعى الى فكرة العقل الأعلى الفلسفية والهيغلية، اللوغوس والـ Vernunft.

7 ـ يجب الانتقال من ثوران الأزلي والعابر الى التاريخ والتاريخية.

الأزلي والعابر وجهان لعنصر واحد يعيش فيه الذهن العربي. لا يمكن أن توجد هوية حقيقية بالعنصر المذكور.

كثيراً ما يبدو ثابتُ الذهن العربي هو الشعور وهو المادة. ويكون عالم الفكر والعلم والعقل هو العابر، الشبحي، الذي ليس له قرار. (هذا الموقف يصرّح به، على سبيل المثال، شوقي ضيف في كتابه «دراسات في الشعر العربي المعاصر»، مصر 1969، ص 78–79 وص 85).

والحقيقة، اذا وُجدت، فهي لا تصير حقيقة تاريخية.

«الثابت» و«المتحوّل» قطبان أخيران متحاربان متطاردان. الثابت سرمدية محافظة والمتحوّل ثورة فردوسية مستحيلة.

في القاموس العربي المتداول، «النسبي» مَهْرب. إنه هروب من المفهوم، من الحقيقة، ومن التاريخ.

8 ـ يجب الانتقال من ثوران السرمدية وسرمديّة الثّوران الى فكرة التقدّم.

في الواقع الذهني، الروحي والفكري، فكرةُ الثورة قتلت فكرة التقدّم، تريد أن

تعيش بدونها بدلاً من أن تقوم على أساسها، تريد أن تنوب عنها
في الحاصل، إنّ ما يُراد هو تحويل الأرض الى سماء والدنيا الى جنّة.. وهذه الارادة تُسمّى «ثورة». هذه القفزة الشاقولية الى السماء تحمل معها السقوط - حتماً.
هذا الموقف الذهني انتكاس كبير عما كنّا عليه قبل ربع قرن، حيث جاءت الثورة امتداداً لنهضة وتأسيساً لنهضة أعمق وأشمل.

9 - يجب الانتقال من الليبرالية النخبوية ومن تنظير التلاعب بالبشر الى الديمقراطية.
ليست الليبرالية هي الشيطان.. (الشيطان لا يتجسّد مباشرة في شيء، في قطعة. أو لنقل إنه قابل للتجسّد - جزئياً ونسبياً - في شتى الأشياء وكل الأشياء). الليبرالية لها ما لها وعليها ما عليها. لنقل إنها مرحلة تاريخية ومنطقية.
باختصار، ومع التبسيط، الليبرالية ترتبط بالطبقة الوسطى الميسورة. الديمقراطية ترتبط بالطبقة العوامّية، plébéienne، الشعبية، العمال والفلاحين وصغار الكسبة. الخ..
هذا ملفّ يضم مونتسكيو وروسو وتوكفيل، إنجلز ولينين / و / بليخانوف والمنشفيك، و... عبد الناصر / و / المثقف العربي وأحزابه.
المثقف العربي النموذجي لم يفهم هذه القضية في يوم من الأيام. لم يُفكر تاريخنا الأخير.. كأنه يريد ديمقراطية لنفسه، ديمقراطية بدون قاعدة جماهيرية، نهضة ليس أساسها مجموع الأمّة، نهضة يكون أساسها شطراً من الأمّة هو «المجتمع الحديث» داخل كل قطر (فعصر الامبريالية والنهضة والحركة الوطنية و«الليبرالية» انتهى الى شطر كل مجتمع عربي الى مجتمعين: حديث وتقليدي). والليبرالي العربي يمكن أن يتحوّل الى ما يشبه الفاشستي على قاعدة نخبويّته ذاتها.
والوعي العربي منشطر بين باطلين: إما الحزب - الصنم أو اللاأحزاب...

10 - يجب الانتقال من «الديمقراطية» (مع مزدوجين!) الى «دولة حقّ» وديمقراطية.
«دولة حقّ» Etat de. Rechtstaat droit، دولة حق وقانون الخ هذا هو الأساس المنطقي للديمقراطية.
لا دولة ديمقراطية اذا لم تكن أوّلاً «دولة حق».
لا ديمقراطية بلا دولة.
لا ديمقراطية مع اللادولة.
واللادولة هي الدّوَل (بالجمع)، الفوضى والعسف والاستبداد، وهي المخلوطة دُوَل - طبقات - طوائف - قبائل وهلمجرّا.
دولة حقّ: هذا يعني أولاً سموّ القانون. بدءاً من الدستور (دستور الدولة) وصولاً

الى نظام السيْر في الشوارع مروراً بالقوانين.

إذا كانت فكرة «الله تعالى» لا تؤسّس فكرة سموّ القانون، فهذه مفارقة كبيرة تستحق الاهتمام.

□ □ □

في إشكاليّة المنهج
تحديث أم تأسيس؟

مجلة الوحدة العدد (1) ـ 1984

ـ 1 ـ
الفلسفة أولاً

أريد، من موقعي الشخصي[1]، إبداء بعض الملاحظات المتصلة بالفكر العربي المعاصر والوعي العربي العام، وطرح خيارات عليهما، أراها ضرورية وأولية.

بادىء ذي بدء، أعترف بأن شعار «تحديث الفكر العربي» يتركني على عطشي. والذي لا يرضيني في هذه الصيغة هو أولاً كلمة «تحديث».

صحيح ان هذه الكلمة لها مبرراتها، فالفكر العربي بهمومه وطروحاته ومسائله، يبدو في معظم الأحيان قديماً ومفوّتاً. قلّما يتناول مسائل العصر، قلّما يستفيد من العلوم الانسانية الحديثة، وقلّما يصل الى انشاء لوحة العالم العربي الراهن. بالمقارنة مع حالته قبل ربع قرن أو نصف قرن، كثيراً ما يبدو منتكساً.. من هنا دعوات التحديث، اللحاق بالعالم المتقدم وعلومه المتقدمة، العقلنة، التنوير...

يمكن أيضاً ان نضيف:

اوروبا انتقلت، منذ فترة غير قصيرة، الى العصر الحديث، نحن ما زلنا في العصور الوسطى. اوروبا فرزت، في المجموع الثقافي، العقلانية العلمية والتقنية، أنمت الفكر النظري العلمي الخ، بينما هذا كله لا يزال عندنا، بقدر ما هو موجود (وهو موجود دوما)، غارقاً في الثقافة الرحبة الواسعة الشاملة للفن والسحر والأسطورة والعواطف والخيال، الخ، في وحدة لا تنفك. وهناك، عدا ذلك أو من جهة أخرى، في اوروبا، أصوات تمتدحنا نحن الشرقيين على هذه الوحدة. الأمر الذي قد يغريني، كرد فعل على هذا المديح، بقبول شعار «التحديث» كشعار أول وأخير!

لكن ألم يكن التحديث هاجس الأجيال السابقة؟ ومع ذلك، وأياً كانت مآثر الفكر الليبرالي والماركسي والقومي والاسلامي الحديث، فلا نبالغ كثيراً اذا قلنا ان الأمور

انتهت الى فشل. والاسلامي الحديث استُوعِب كعنصر في مجموع ديني ـ سياسي له وجهة أخرى[2]...

لعل المطلوب ليس التحديث بل التأسيس. لعل النقص ليس نقص الحداثة بل نقص الأساس. هذا اعتقادي. الحداثة تابع.

في صيغة «تحديث الفكر العربي»، ليس فقط كلمة «تحديث» بل أيضا كلمة «فكر» نفسها يجب أن تكون موضع سؤال.

ما الفكر؟ لهذه الكلمة أكثر من معنى، لحقيقتها اكثر من مستوى ولفكرنها أكثر من اتجاه. فأي فكر نقصد؟

هناك أولا المقولة الكبرى الأكثر أساسية: الفكر pensée، الروح esprit، الوجدان والوعي conscience، التي تقابلها ـ في المنطلق ـ مقولة الكائن، الواقع، الطبيعة (بما فيها المجتمع). هذا المعنى يشمل الصورة التي في رأس النجار وترشد عمله، ويشمل الفكر النظري المفهومي (فلسفة، علم وعلوم)، ويشمل كل أشكال تملّك الانسان للعالم، عالمه، يشمل الحلم والخيال والشعور والعاطفة، الدين والفنون والآداب. هذا الفكر كله يجب أن يكون موضع سؤال. الروح العربية تحتاج الى انقلاب. الحلم يحتاج الى انقلاب. فهو حلم موضوعه وغرضه الماضي! حلم وغرضه الماضي؟ هذه مفارقة فاضحة. فالحلم المفيد، حلم التشغيل مثلا، غرضه المستقبل: صنع هذه الطاولة، تنشئة الأولاد، وعالم أفضل. أما الحلم المسقَط على ماضٍ فهو بالأصح منام ورؤية منامية.

أنتقل الى مستوى ثان: الفكر بعصر المعنى، الفكر الناظر النظري.

هل الفكر العربي فكر؟ لعلّه اليوم شيء أقل من الفكر، أدنى منه في المرتبة.. لعله، في معظمه، «فقه»: فقه قومي، فقه ماركسي، فقه هذا العلم أو ذاك، فقه ثوري، فقه ديني ولغوي وثقافي ـ حضاري،... «مسيَّس» دوما. وليس عندي قضية أرفعها على الفقه. قضيتي هي ضد الفقه الذي يتصور أنه هو الفكر، أولاً وأخيرا. أدعو «فقها» الفكر الذي قوامه «مبادىء وتطبيقات»، «أصول وفروع»... مثلا: «المادية الجدلية» في عرض ستالين ومقلّديه...

أما الفكر الحقيقي فيبدأ من الصفر. ركيزته «الصحيفة البيضاء» Tabula rasa، الـ«أنا أشك، أنا أفكر»، «الرأس»[3] ومقابله العالم، مبدأ التجرد الذي يؤسس طريق التجريد، هذا التجريد الواعي أنه تجريدٌ وحدٌّ ومفهومٌ.

هذا الصفر ركيزة كل الفتوحات، اينشتاين والسومري مخترع الدولاب، آدم سميث وهيغل وماركس، فيثاغور والخوارزمي وباسكال، هيراكليت وأفلاطون، ارسطو وابن رشد وابن خلدون، كوبرنيك وفييت ونيوتن، فلاسفة عصر الأنوار و«الفلسفة الكلاسيكية الألمانية».

إن «التحديث» كلمة تحمل إيحاء مناوئاً للفلسفة، أقصد للفلسفة بالمعنى الكبير،

للفلسفة الكلاسيكية، القديمة والحديثة، لصالح أزمة أحدث. فالأزمة الاوروبية الأخيرة تُعلِن (أعلنت مرارا) نهاية الفلسفة. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، إن الفلسفة لم تشغل بتاتاً مدارس الفكر العربي المذكورة أعلاه. بعضها (الفكر الاسلامي) رفض المضمون والكلمة[4]. وبعضها الآخر (الفكر الماركسي) قبل الكلمة وأحبّها ورفض المضمون: الفلسفة التي قدّمها تحت اسم «المادية الجدلية» ليست فلسفة. في أحسن حال، إنها تصور للعالم، علم وجود. لكنها ليست: علم منطق، نظرية معرفة.

ولنذكر أيضا ان الانتقال، في بعض البلدان العربية، من برامج التعليم الفرنسية الى برامج التعليم الوطنية، حمل معه تقليصا او إلغاء لمادة الفلسفة في الصف الثانوي الأخير: بقي (وقلّص) علم النفس وعلم المنطق (بمعنى «طرائق العلوم») وعلم الأخلاق (ثم صار علم اجتماع)، وحُذِفت الفلسفة العامة او «ميتافيزيقا» إنها نافلة أو هي هرطقة! تجاه الدين او تجاه العلم والعلوم والتقدم، لا فرق في ذلك: «الأطراف» تتلاقى على نتيجة واحدة: «**الايجابية**».

هذه الكلمة الأخيرة تقودنا الى «المناخ». المناخ الذي عاش ويعيش فيه الفكر العربي هو المذهب الايجابي أو الوضعي (positivisme، الوضعوية)، مذهب أوغست كونت Comte وآخرين، أو لنقل: هو **المناخ الوضعوي والعلموي** (scientisme).

حسب اوغست كونت: ينتقل الفكر البشري وتنتقل البشرية من الحالة اللاهوتية الى الحالة الميتافيزيائية التي هي تطوير للحالة السابقة وأخيرا بعد طول عناء تصل الى الحالة الوضعية او الايجابية، تاركة ما لا نفع فيه ولا جدوى منه ولا طائل تحته. الى هذا المذهب الفلسفي الوضعي أضاف كونت دينا وضعيا إيجابيا هو «دين البشرية» مع كنيسة وطقوس و إكليروس يرأسه بابا (هو أوغست كونت)، دينا بلا لاهوت أو نوعا من «كاثوليكية بدون المسيحية»، كما يقول أحد المفكرين! على أي حال، المذهب الديني سقط، المذهب «الفلسفي» بقي، والمذاهب التالية تمدّه، تواصل المناخ. الفلسفة الحقيقية ملغاة. اوغست كونت يكره «المجردات» ويؤيد «الايجابية»، يرفع لواء «النظام والتقدم»[5].

اوروبا المتقدمة، اوروبا الصناعة والتقنيات والعلوم، بهرت أنظار رجال عصر النهضة العرب. هذا بوجه عام، وسواء أرادوا الحديث وحده أو الحديث مع القديم، سواء ارادوا العلم الاوروبي خالصا أو ارادوه مع «التراث». قلّما عادوا الى ما قبل اوروبا القرن التاسع عشر، قلّما تساءلوا عن اساسات هذا التقدم. ركضوا الى «النتائج». هذه النتائج ليس فيها فلسفة. الفلسفة، الميتافيزياء، اللاهوت الخ هذا من الماضي الذي خلّفته اوروبا وراءها. وعلى العرب أن ينتقلوا بدورهم الى الايجابية.

الجناح الاسلامي في النهضة يضيف أو يبرز أن الاسلام دين الايجابية والواقعية

والعقل: هذه خصوصية الجناح المذكور في اطار فكر النهضة مأخوذاً كمجموع عريض. وبعض الاسلاميين الحديثين (وغيرهم، وليسوا بالضرورة مسلمين) يشددون هذا الموقف في معارضة أو مقابلة يقيمونها بين الدينين: الاسلام، **بخلاف المسيحية أو بعكسها**، دين واقعي ايجابي يؤيد العقل والعلم. واذا كانت الشعوب المسيحية هي التي تقدمت وهي المتقدمة والشعوب الاسلامية في تأخر وجهل، فلأن المسيحيين خالفوا دينهم والمسلمين خالفوا دينهم. كان يمكن أن يقولوا بموجب مسألتهم وبدفع منطقهم الى نهايته: المسيحيون هم المسلمون والمسلمون هم المسيحيون.. هذا المنطق باطل، الخطأ خطأ المنطلق. لقد استسهلوا الكلمات: واقع، عقل، ايجابية، علم، دين، دنيا الخ.. لكن مأثرتهم كبيرة. لقد طرحوا السؤال: لماذا تخلّف المسلمون وتقدم غيرهم؟.. وأبدوا العقل.

واليوم كما بالأمس، الفلسفة مطرودة من الفكر والوعي عند أنصار «الدين والعلم» وعند أنصار «المعرفة العلمية» سواء بسواء.

الفكر الماركسي العالمي، الذي لم يدخل الساحة العربية إلا في وقت متأخر، مأخوذ هو نفسه، الى هذه الدرجة أو تلك، في المناخ المذكور. هذا الفكر الماركسي يحمل مشروعاً آخر، غير التقدم البرجوازي، وغير محاكاة الغرب، (هو مشروع الثورة الاشتراكية العالمية). ومع ذلك، ورغم النسب الهيغلي المعلن وبضعة أمور أخرى، فهو تحت تأثير الجو. بين هذه الماركسية الذاهبة الى أمام وبين الخط الذي دشنه اوغست كونت تعاطف ماهويّ: ضد اللاهوت والحالة اللاهوتية، ضد «الميتافيزياء» أو «المثالية»، مع العلوم والتقدم. الماركسية هي «النظرية العلمية» و«الفلسفة العلمية»: حاكمة على العلوم؟ تابعة للعلوم وملحقة بها؟ وهذه الفلسفة العلمية التي تذيع شهرتها تحت اسم «**المادية الجدلية والمادية التاريخية**»، تستغني، في كتاب ستالين (وهو الكتاب الأكثر شهرة في كل تراث وتاريخ الفكر الماركسي)، عن كلمة «مفهوم» (concept)، وعن تأكيدات لينين «المادّة مفهوم» و«المادة مفهوم فلسفي». ستالين يتعامل مع المقولات الكبرى ـ طبيعة، روح، مادة، وعي، تاريخ، مجتمع ـ كأنها أصناف وحسب، كأنها أشياء كبيرة ونتاجات كبيرة لأشياء كبيرة، أو كأنها كلمات معلومة وبديهية!

حين أحذف «المفهوم»، حين أتعامل مع الكلمات كأنها أشياء، أو كأنها كلمات لكن بدون الاشارة الى أنها أولاً كلمات، فإن الذي أحذفه هو الفكر. أحذف الفكر كمبدأ لعملية المعرفة التي هي معرفة الواقع، أحذف الفكر العارف الناظر، أحذف الطريق، الطريقة، الوساطة. وبالضبط، هذا لسان حال الماركسية «المادية» و«العلمية»: الفكر نتاج، والفكر انعكاس، والقول بأن الفكر مبدأ هُوَ هُوَ المثالية idéalisme. بمعنى ما، هذا صحيح: لغوياً، المثالية هي الفكرية والفكرتيّة والمُثليّة. والماركسيون يُحجمون عن الانتقال الى هذا «العنصر»، يبقون مع وفي «عنصر» الوجود.. وهذا تعزيزٌ رفيع للحس

شرقي وشرقاني قديم يتلقفه الغرب الحديث أيضاً: الوجودية ضد الفكرية، الـ«أنا موجود» ضد الـ«أنا أفكر». في الماركسية المذكورة، الاونطولوجيا (نظرية الوجود أو علم الوجود) أكلت الغنوزيولوجيا (نظرية المعرفة). بموجب هذا الشطط، نعرف أصل الفكر، ونؤكد دوره وأهميته، لا نعرف ما هو، لا نعرف طريقة (كيفية) ذهابه الى الواقع. سنالين، في الكتاب الذي نحن بصدده، لم يعطنا بتاتا طريقة فكر أو طريق معرفة، اعطانا ـ وتحت اسم «الطريقة» (الطريقة الجدلية)! ـ طريقة عمل الطبيعة، أي جزءا من تصور الطبيعة ونظرية الوجود، ولسان حاله: هكذا نعمل الطبيعة وبالتالي هكذا يجب ان نفكر! أي انه قَلَبَ العلاقة «طريقة نظر ونظرية» مُلغيا الطرف الأول.

واليوم، في الوقت الذي يكثر فيه الحديث عن مناهج العلوم والميادين العلمية، يجب أولا رفع لواء الطريقة او الطريق (بصيغة المفرد). الفكر العارف او الناظر طريق. بدءا من أبسط فكر. أريد أن أرى هذا البيت، أن أراه جيدا، كما هو، يجب أن انظر اليه من هنا ومن هناك ومن هنالك، وهكذا دواليك، من زوايا كثيرة. المعرفة وجهة ووجهات، حيثية وحيثيات، حدّ وحدّات، تجريدات ترتكز على مبدأ النظر، على الفكر كمبدأ. المعرفة ليست أكلا وشربا وتمثّلا للمأكول في جسم الآكل. المعرفة توسّط، الفكر طريق، الذكاء التواء détour. ضد المباشر والمباشريّة. في عملية المعرفة، لا أحد قاعد في الواقع، كل يذهب اليه، ولا أحد يذهب اليه حرّاً فارغاً، كل يذهب اليه ومعه كلماته. فليحذرها، فليحذر «أصنام اللغة».

ـ 2 ـ

هل الفكر عربي؟

«عربي» كلمة. في «تحديث الفكر العربي»، يجب أن لا تتضخم، ان لا تتحول الى إله ـ صنم. في الوعي الصاحي. إن هذا الوصف ـ «عربي» ـ يعني ان الفكر الذي نحن معه أو ضده فكر بشر عرب ومفكرين عرب.

كل «تضمين» إضافي يكون مصادرة في غير محلها. بطبيعة الحال، إن كونهم عربا يفترض ويتضمن: هموم عربية، أداة تعبير عربية الخ. لكن هنا أيضا يجب الحذر من التصنيم: فالهمّ العربي همّ بشري، واللغة العربية لغة، والفكر فكر، الخ، هذا أولاً. وثانياً، يجب الصراع والتسويغ و«إقامة الحدّ».

«الفكر العربي» الذي نحن بصدده ليس «عربيا» الا بمعنى محدّد ومحدود. الليبرالي، القومي، الماركسي، الاسلامي الحديث والاسلامي الأخير، هذا كله فكر بشري وعالمي. إنه ينتمي للانسان ككلّي مجرد وكعالم أمم. الليبرالي والقومي والماركسي اوروبي المصدر. وكذلك ـ جزئيا ـ الاسلامي الحديث. بل والاسلامي كله هو، في جوهره ذاته، عربي وغير عربي. ولا يمكن فهمه ولا تصوّر وجوده، كمضامين واتجاهات

وشعارات، بدون العالم وبدون اوروبا. ويمكن أن نقول عن معظمه أنه لا يعترف بـ«العربي» كقومية...

إن «عالمية» الفكر الاسلامي (بل ـ بمعانٍ محددة ـ عدم عروبته) تدفعنا بعد التذكير بأن العرب قطعة من المعمورة الاسلامية (فالعرب خمس المسلمين في العالم)، الى ابراز جانب آخر يمكن أن أدعوه «الاحداثية الزمنية التاريخية».

في اطار التاريخ الاسلامي وتاريخ العالم، «العرب» حقبة: العصور الوسطى (ق7 ـ ق15). بالمقابل، الأزمنة الحديثة هي حقبة الامبراطورية العثمانية وفارس الصفوية وكبار مغول الهند، حقبة أوج إسلامي سياسي (وحضاري)، والعرب خارجها، فالعرب جزء من الامبراطورية الاولى، تابعٌ...

في تاريخ الفكر الاسلامي، تنتهي الفلسفة العربية الاسلامية مع ابن رشد وتشريقة (وشرقنة) محي الدين بن العربي. وتبدأ حقبة جديدة في تاريخ الفلسفة الاسلامية، العرب خارجها.

بالطبع، هذه الأحكام الآنفة هي «قطعاتٌ»، أشكال كبرى، عملية قبض على خطوط عريضة، لا أكثر، وهي ليست صحيحة الا في سياق المقابلة (المعارضة opposition) المحددة والواجبة. كثير من رجال النهضة العرب وعوا «الفرق»، كما وعاه أيضاً كثير من اوروبيي النهضة والأزمنة الحديثة والمعاصرة، وكما وعاه وأبرزه أخيراً أنصار اوروبيون للفلسفة الاسلامية غير العربية (مثلا هنري كوربان H. Corbin، **تاريخ الفلسفة الاسلامية**). ويجدر بنا أن نعيه. الفلسفة الاسلامية العربية شيء والفلسفة الاسلامية التالية (أو بالأصح المرافقة والتالية) شيء آخر. وبعد «اقامة الحد» على المصطلحات، لا بد من القول: إن «الاسلامية العربية» هي الأقرب وبكثير للموقف النظري الذي يجب أن يُدعى «المفهومية والتاريخية».

لقد توقف نمو الفلسفة العربية الاسلامية في وقت مبكر، قبل النهضة (الميلاد الجديد) في الغرب. على هذه الفلسفة عاش هذا الغرب (الغزالي، ابن سينا، أخيراً: ابن رشد) قبل «العودة» والبدء الجديد (ق15-ق16).

الى أين وصلت الفلسفة الاسلامية العربية (ابن رشد، وابن خلدون: فكْر الاجتماع الانساني، فكرة العمران الخ)؟ وقبل ذلك، ما هي «الأفلاطونية المحدثة»؟ ما «طبيعة» هذه الفلسفة المشرقية المسيحية، ثم الاسلامية؟ تلك أسئلة حيوية لن أتعامل معها هنا(*).

المهم أن عرب سنة 1900، فيما عدا استثناءات قليلة، ليس تحتهم قاعدة فلسفية. والاستثناء لا يتخطى، كفلسفة، فكرة «تصور العالم أو الوجود». مسألة المعرفة، الفكر كفكر، غير مطروحة (في هذه الحيثية الحادة في تجريدها، يبدو «الشك الديكارتي» عند طه حسين نقطة ذروة، مقطوعة وميتة). والتطورات التالية (لا سيما الفكر الماركسي) لن

تساعد على طرحها.

يجب أن نميز في «الفكر» جانبين أحدهما «الايديولوجيا» والآخر الطريقة، المنطق، الخ، سواء كان هذا الجانب الأخير مصرحا به أو ضمنيا وغير معترف به كجانب مستقل، ومعيّن ومقرّر في كل فكر و«أفكار». هذا الجانب الثاني (في اعتقادي إنه أوّل!) لا صلة له بالقومية ولا «حتى» بالطبقية. ويجب أن يكون في السؤال والنقد. قبل أي شيء! أما الجانب الأول ـ أفكار، ايديولوجيات ـ فواصلاتها مع العالم غير العربي معروفة الى حد لا بأس به.

في المجموع، ما يجب أن يوضع في السؤال ليس الفكر العربي أساسا. بل شيء «أكبر» وبمعنيين: أشمل لأنه «أبدأ»، أعمق، أكثر اساسية، منطقاً وايديولوجيات.

والقضية هنا ليست محصورة في المعنى العام والمتساوي الذي نستطيع بموجبه أن نؤكد لا قومية الفكر عن كل فكر لأمة في عالم الأمم، بل هي تتعدى هذا المعنى العام الى تأكيد عدم التساوي. لا يمكن أن نقول عن فكرنا النموذجي أنه عربي بالمعنى الذي نقول فيه عن فكر ديكارت أنه فكر فرنسي، وعن فكر كنط وفيشته وشيلنغ وهيغل أنه الفلسفة الكلاسيكية الألمانية وعن فكر آدم سميث وريكاردو أنه علم الاقتصاد السياسي الكلاسيكي الانكليزي وعن الفيزيوقراطية انها الفيزيوقراطية الفرنسية. باختصار، لا يمكن أن نقول انه عربي بالمعنى الذي نقول فيه عن ذلك الفكر العالمي واللا قومي والكوسموبوليتي إنه: ألماني، فرنسي، إنكليزي. ويمكن أن نعقد المعارضة نفسها بين فكرنا الحالي وفكر اسلافنا قبل عشرة قرون. حين تكون هوية لا تكون عقدةُ هوية. والتمهيد الفكري للوحدة الالمانية كان البعث الروحي والفكري العام (فلسفة، موسيقى، آداب، علوم...) الذي غمر أمة متأخرة ومجزأة وكوّنها كشعب ـ ذات. أن يكون شعبٌ مُبْتلیا بالهوية عقدةً فهذا يُفهم، يُعلَل، يبرّر. أما أن يركب مفكرون على هذه الحالة فهذا سقوط الذات، إنسانا وأمة على حد سواء.

الفكر العربي ليس الفكر العربي. المثقف العربي المعاصر لم يكتشف الذرة، الفكر العربي لم يفتح شيئاً، وهو لن يفتح الا اذا توفرت له شروط وأسباب. أوّلها، في صعيده الخاص، الايمان بذاته كفكر، و إلغاء التضمينات الملتبسة (القومية والدينية واللغوية) للصفة: «العربي». الفكر العربي ليس الفكر العربي والمطلوب أن يعي هذه الحقيقة. عندئذ، يمكن أن يكون فكرا عربيا وفاتحا. يمكن أن يُرْشد العمل العربي، أن يُسهم إسهاما أوّليا في تكوّن وعي عربي وذاتٍ عربية.

أعود اذاً الى «التحديث».

تحديث؟ من أجل ماذا؟ من أجل أي عمل وأي مشروع؟

لقد وصلت البشرية الآن، في هذه اللحظة moment المنطقية والتاريخية، الى أكبر مفترق في تاريخها الطويل. وصلت الى نهاية. إما أن تكون نهاية تقدم وثورة تأسيس

لتقدم آخر و إما أن نكون نهاية النوع. هذه القضية تخصّنا بالتمام!

الأسلحة النووية، تلوّث البيئة، نفاد ثروات باطن الأرض، التصحّر والتصلّع، استمرار او اتساع الفقر والجوع، عودة أمراض وظهور أمراض، التفجر الديموغرافي، أزمة العالم الثالث وسقوط مذهبيته الثوروية، عودة الأزمة في الغرب، توسّع الهوّة شمال / جنوب، أزمة الاشتراكية كعالم أمم وكنظام اجتماعي، الخ، هذا كله ليس بعيدا عنّا ولسنا بعيدين عنه.

وأزمتنا العربية ليست من «مادة» أخرى أو «جوهر» آخر. وما نحتاج اليه، أي الضرورة والضرورات التي يجب أن نوعى، أكبر وأعمق من أن تؤخذ بمصطلح «التحديث» وفكرة التحديث. التحديث جانب مهم جدا وحيوي وملحّ لكنه لا يستنفد القضية ولا هو أساسها.

كلمة «تحديث» تحمل ايحاء برجوازيا. هذا المدلول ليس الشيطان وهذه الفكرة افضل من فكرة التغرب westernization. التحديث ضروري. «البرجوازي» كصفة لمجتمع ولثقافة وحضارة متقدم على ما قبله في البسط التاريخي للانسان. و«الشرقي» يقع قبله ودونه، بل دونه بكثير في بعض الحيثيات الهامة. لكن ثمة فرق كبير بين «برجوازي» و«برجوازي»، بين اوروبا واوروبا، ثمة فرق بين التأسيس والصعود الى المجتمع الحديث وهذا الذي بهر أنظار اسلافنا القريبين ويبهر أبصار الكثيرين منّا. ثمة فرق بين اوروبا المجاهدة واوروبا المجتهدة. ثمة فرق بين فكر يرفع لواء الكليات ـ المجرّدات (إنسان، عمل، مجتمع مدني، أمن، حرية ومساواة وإخاء، ملكية، طبيعة وحق طبيعي، وطن ومواطن، شعب، أمة، دولة، الخ) وفكر «تجاوزها» أو تخلى عنها.

الايجابي الذي حققته أوروبا يجب ان نحققه. والا فنحن عائدون، في عصر متقدم، الى حالة سابقة: مادة لتاريخ عالمي نحن خارجه، موضوعٌ لمصير انساني لسنا فيه كذات.

وهذا الايجابي الاوروبي المطلوب تحقيقه يتخطى التقنية والصناعة والعلوم. إنه أولا معقولية فكر ومعقولية واقع واجتماع بشري. والعمل التاريخي العربي الواجب والممكن يتخطى هذا الايجابي الاوروبي، ايجابا ونفيا.

اذا كان علينا (وعلى شعوب عديدة أكبر منّا أحيانا وأعرق) ان نحقق هذا «الشيء» الاوروبي، فلأن الأوروبي هو مرحلة في بَسْط الانسان كمنطق وكتاريخ، وبالتالي لأن «الانسان» كمفهوم كلّي ليس مستنفدا في المكانية الامتدادية. «الاوروبي» مرحلة في التاريخ كتقدّم وكلدرامة. بذوره، عناصره، موجودة «في كل مكان».

والاستعمار نفسه، ومع التأكيد الأشد على ان الاستعمار الاوروبي الحديث مع جرائمه الكبرى والمشهورة (إبادات الخ) ظاهرة جديدة وخطيرة في تاريخ العالم، ليس جوهراً أو ماهيّة محصورة في علاقة اوروبا مع العوالم الأخرى. لغة وفكرا وواقعا،

الاستعمار هو استعمار الارض والبشر. والتاريخ كله استعمار. فالتاريخ تاريخ البشر في الدنيا، ليس تاريخ الملائكة ورؤسائها والهيمنات السماوية في الملأ الأعلى. الفكر الاوروبي الكبير هو الذي أبرز وأسّس فلسفيا فكرة التاريخ وعلم التاريخ. الفكرة التي لها خلفيّات وركائز لاهوتيّة بيّنة في «دين الاله الواحد» monothéisme : العَلْيَنة transcendantalisation (الله فوق، الله هو الصمد) أساسُ التَرْخَنَة historisation والعَلْمنة secularization و laicisation : الدنيا دنيا؛ لها تاريخ، إمكانية تحسّن؛ العالم عالم، التاريخ تقدم ودراما ومأساة[7].

اذا كان الفكر الاوروبي الأساسي قد بلغ ذروتين (النهضة، وعصر الأنوار الخ)، فإن هاتين الذروتين هما ذروتان في حيثية الكلي universel، على وجه التحديد. والتاريخ، كفكرة فلسفية وكمفهوم صحيح، ليس مستنفدا في مسار خط، كأنّه طريق رحلة مدرسية من مدينة الى مدينة أو كأنه مشوار لزوّار.

التاريخ يفترض ويتضمن عَوْدات.. إن بذور «المجتمع المدني» (bergerlische Gesellschaft, civil society) – مثلا – موجودة وفاعلة في أحقاب سابقة، في عوالم مختلفة: يمكن أن أنظُرها في أوغاريت أو في دمشق الأمويين. ولعل فكرة «العمران» الخلدونية أكثر اساسية من مفاهيم أو حكايات علمية ظهرت في اوروبا القرن التاسع عشر.

لا تقليد ولا محاكاة. بل منطق واقع وتاريخ، عمل بشري وخيارات.

نعم للتحديث، نعم لهذا الذي يُسميه التراث الماركسي «المهام البرجوازية» التي يجب أن تُفهم بمعنى أعمق وأكبر.

نعم للتحديث، كجزء عضوي في عمل تاريخي يتخطى فكرة «المجتمع المدني» الى فكرة «المجتمع الانساني».

والفكر من أجل هذا العمل.

فكر في المبادىء والأساسيات للأزمة الأكبر والمنعطف الأكبر في تاريخنا وتاريخ النوع.

المبادىء والأوّليات هي التي يجب أن تكون موضوع النظر والمناظرة بين المثقفين العرب.

في اعتقادي، يجب على الوعي العربي ان يحقق عدداً من الانتقالات أوّلها الانتقال من الرمزية والشيئية الى المفهومية والواقعية.

– 3 –
الكلمات ليست أشياء

الفكر يستخدم الكلمات. الكلمات ليست أشياء. الكلمات تسميات. بعضها تسميات لأشياء. بعضها تسميات لعلاقات، لعمليات، الخ.

هذا التقسيم ـ أشياء، علاقات، عمليات، الخ ـ الذي لا يتوخى الحصر ولا الدقة، ليس تقسيم علم الصرف أو موروفولوجية اللغة العربية (أو الفرنسية وغيرها).

مثلاً، الكلمات: في (حرف الجر)، و(حرف العطف)، القيمة (مقولة علم الاقتصاد)، الهوية، الفرق، التعارض، التناقض الخ تسميات لعلاقات. والكلمات: يطير، طيران، فكّر، تفكير، الخ تسميات لعمليات وأفعال..

علم الصرّف يبدأ بتقسيم الكلام الى ثلاثة أقسام: الفعل، الاسم، الحرف.. هذه البداية تستلزم بداية قبلها، خارج علم الصرف، بداية تكون تعريفاً للكلمة ككلمة. يجب استرجاع كلية البدأ: **الكلمة**، ضد تصنيم ثلاثة أنواع وضد سلطان المدوّنة القواعدية اللغوية على الفكر والروح. الكلمات كلمات، هذا أولا وقبل أي شيء آخر.

«كلمة» العربية تحيلنا على الفعل كَلَّم = جرّح، و«اسم» تحيلنا، من جهة، على: سمة، اذن صفة، حدّ، تحديد، تعيين، جانب، كيف من كيفات. ويمكن أن تحيلنا، من جهة اخرى، على: سما، يسمو، سماء، وعلى قول هيراكليت «الأسماء قوانين الطبيعة». الأسماء «قوانين» وليست أشياء. ثمة علاقة بين لوغوس logos ولغة. ثمة علاقة بين النطق والمنطق. الانسان حيوان ناطق، هذا يجب أن يعني: المنطق، الفكر، القدرة على اكتشاف معقولية الدنيا.. بالحد الذي «هو» أيضا المفهوم.

يمكن أن يبقى الفكر البشري في مستوى الشيء والكلمة. أمامي أشياء ـ أغراض objets وألصق عليها ذهنيا اتيكيتات كتبتُ عليها اسماءها: طاولة، كرسي، ايضا كرمي، جدار، نافذة، ممحاة، مصباح كهربائي، قمر الخ.. وربّما: طبقة، أمة، طبيعة، قيمة، مادّة!!؟

لكن، اذا ما بدأت عملية الفكر الناظر، فإنني اقول لنفسي: «طاولة»؟ هذه صفة هذه الطاولة الكائنة أمامي ولكل الطاولات المختلفات، في البيت والعالم، في الحاضر والماضي والمستقبل، واللواتي هنّ طاولات كتابة وطاولات طعام الخ ولهنّ دائما وبالضرورة صفات كثيرة كثيرة إضافة الى صفتهنّ كطاولة. «طاولة» هي صفتهن العامة المشتركة. «طاولة» هي كلّي universel. **وهذه** الطاولة الكائنة أمامي هي **كلٌّ من كليات، هي حاصل جمع لصفات** (= عموميات، كليات) لا حصر لعددهن. فهي طاولة وهي حمراء وهي قديمة وهي مستطيلة وفي طرفها مسمار ناتيء وهي خشبية الخ كل من هذه الصفات على حدة هي مشترك بين هذه الطاولة وأشياء اخرى مختلفة «الأنواع».

بل: «هذه الطاولة» أو «هذا الشيء» أيا كان (بحد ذاته وبدون التأشير بالاصبع) كلّي. يمكن أن أقول «هذا» أو «هذا الشيء» عن أي شيء كان، بلا استثناء. ويمكن تنكشف الكلمة الأكثر خصوصية في ظاهرها وبموجب استعمالها عن كونها الكلمة الأكثر عمومية: كل شيء مادي او فكري يمكن أن نقول عنه «هذا»، اسم الاشارة، «ضمير

الاشارة»؛ وكل انسان يمكن أن يقول «أنا» (هيغل، لينين). «في اللغة لا يوجد سوى الكلّي»، هذا ما يردده لينين في الدفاتر الفلسفية. وراء فويرباخ وهيغل ومدارس الفلسفة اليونانية.

لكن، أليست الكلمة «طاولة» أكثر من صفة عادية لهذه الطاولة ولأخواتها الطاولات الكثيرات المختلفات؟ أليست تسمية (= تعيينا) للنوع أو الجنس أو الصنف أو... الجوهر، الماهية...؟ (ما هي؟ ـ طاولة!).

نعم، نعم بالتأكيد، في الحالة العادية، في استعمالي اليومي. نعم، بموجب عملي واهتمامي ومصلحتي. لكن هذا ايضا نسبي. يمكن أن تكون مصلحتي عند «طاولة الكتابة الصغيرة» لا «طاولة المطبخ» مثلا.

أما عالم الفيزياء، فالأرجح أنه ـ في عمله المعرفي كعالم فيزياء ـ لا يعترف بالجوهر طاولة، او باب، أو كرسي. إنه يتعامل معهن جميعا بوصفهم أجساما، كتلا، ذرات، الخ، كلمة جسم corps العلمية الفيزيائية هي تسمية لاجسام من «أنواع» مختلفة الطاولة، القمر، جسم الانسان، النفط، الغاز الخ. «أنواع» مختلفة جدا، لكن بينها هذا المشترك: جسم، كتلة، كتيلات molécules وذرات، جاذبية، حجم، امتداد، حرارة، الخ. المشترك «كبير»، لائحته طويلة. هذه لائحة مفهومية مضبوطة. إنها، في علم الفيزياء، أي في معرفة المستوى الفيزيقي للواقع، علاقات مفاهيم.

إن شيئا من الأشياء لينتمي الى ما لا حصر له من الأنواع والأصناف، في مستويات واتجاهات شتى: كل صفة من صفاته، كل كيف من كيفاته، كل حدّ من حدائه، انما يحدد (يعيّن، يقرّر) نوعا يشمل في مجموع أفراده الشيء الذي نحن بصدده. مثلا، هذه «طاولة مستطيلة خشبية عتيقة»: إنها تنتمي لنوع الطاولات، وتنتمي لصنف الأشياء الخشبية،... وتنتمي لمجموعة الأغراض العتيقة البالية التي يجب أن أتخلص منها: هذا جوهرها أو جوهريّها الآن بالنسبة لي ولحياتي.

اذن: المنطق (بمعنى هيغل وأرسطو) «يفهم الحدّ» على فكرة النوع، الصنف، الجوهر، الخصوصي ـ النوعي. بتعبير آخر، إنه يعلن نسبيتها، ينسبها أو يُنَسْبِنُها. المنطق يخضع فكرة الجوهر لفكرة العلاقة أو النسبة... جوهر؟ ـ نسبة الى ماذا؟ في العلاقة مع ماذا؟ في حدود أية معقولية؟ ليس ثمة جوهر مطلق (ومع الايحاء العربي للكلمة): كل جوهر مربوط، مقيّد، معقول.

كل كيف (صفة qualité) يحدد نوعا (كيف؟ ← صفة ← نوع). حيث الفرنسيون يقولون «كماً وكيفاً»، العرب أو الألمان يقولون: «كماً ونوعاً». النوع تابع للكيف اي لصفة. اسم هذا الشيء إجابة على السؤال ما هو؟.. لكن السؤال والجواب هما في الـ«كيف؟».

هكذا ايضا الدرس الأول في نظرية المجموعات، رياضيات الصف الأول

الابتدائي: في الصفحة الأولى من الكتاب، نجد عدداً من الأشكال الهندسية (مربعات، مستطيلات، مثلثات، دوائر) المختلفة الألوان. الطلب الأول: كوّن مجموعة المربعات، الطلب الثاني: كوّن مجموعة الأشكال الصفراء (دائرة، مربع، مثلثان). والكتاب لا يقول للتلاميذ: الشكل الهندسي جوهر، واللون عرض، الشكل الهندسي هو الأساسي واللون ثانوي.

هذا الموقف تقدم جذري، يجب أن يُستثمر، أن يدفع الى الامام. قبل 15 عاماً كان هناك إلحاح (عندنا وفي فرنسا سواء بسواء) في الاتجاه المعاكس: لا يجوز جمع قطتين وكلبين، لا يجوز جمع أشياء من أنواع مختلفة.

ـ لم لا؟ أجمع قطتين وكلبين فيكون معي أربعة حيوانات بل أربعة «حيوانات أهلية لطيفة وألعب معها»: هذا أيضا نوعها وجوهرها. (الواقع ليس مستنفداً في علم البيولوجيا أو سواه).. الآن انقلب الموقف: حسب «الرياضيات الحديثة»، العدد خمسة أصبح بحكم التعريف «مميز» أو «رليمي» مجموعة من خمسة رجال أو.. «مجموعة من رجلين ودراجة وسيارة وكنيسة».

المجموعات حرّة! هذا ما تقوله «الرياضيات الحديثة» التي لها على الأقل هذه المزية: سقوط الجوهر، الماهية، النوع المطلق.

لنعد الى المنطق. أجمع 3 كراسٍ، 4 رجال، 3 حيوانات، أحصل على عشرة أجسام.

لكن أجمع أيضا وقبل ذلك: العدد، القيمة، المادة، كرمي، عفريت، فأحصل على خمس كلمات، هذا أولا، هي خمس فكرات. هذا ثانيا، وأتساءل عن كيانها خارج الرأس، هذا ثالثاً.

بتعبير آخر، قصدت ما يلي: يجب على الفكر العارف (الفكر في المعرفة أو مسيرة معرفة) أن يعي، قبل كل شيء وفوق كل شيء، أنه يستخدم كلمات، وأن يحذر كلماته، أن يحذر ما يسميه فرانسيس بيكون «أصنام اللغة». الكلمات ليست أشياء ـ أصناماً ـ آلهة.

كل الكلمات هي كلمات. هذه حقيقة نوتولوجية، إنها صفر. لكن الفكر يسقط اذا لم يبدأ بهذا الصفر.

المادة كلمة. كذلك الطبيعة، الواقع، الحزب، الفكر، العقل، الشيء، المجتمع، التاريخ، العمل، الوجود، العدم، العالم.. كلها كلمات. وهي كلمات صعبة.

حصان، طاولة، بيت، كرسي.. كلمات سهلة. مع ذلك، إن الفلسفة، أي افلاطون ولينين، «تبدأ» بهذه الكلمات غير السهلة!

الفلسفة تعلن ان هذه الأسماء العادية هي كليات universaux.

والفلسفة الاوروبية الوسطوية (ق13) تدخل في «مشاجرة الكليات»، إحدى

أعظم لحظات الفكر البشري وتاريخه. «الواقعيون» réalistes (انصار أفلاطون) يقولون إن «الكليات» هي الواقع أو الواقع الحق. «الاسمانيون» nominalistes يقولون ان «الكليات» ما هي الا اسماء: الكائنات الحقيقية هي الأحصنة أمامنا.

هناك أيضا «المفهوميون» في الوسط. في نظرهم، الكليات أكثر من أسماء.

يمكن القول إن هذا الموقف الأخير هو الصواب.

لكن المهم، الأجدى، هو الطرفان النقيضان، اللذان دفعا المسألة الى الحدّين الطرفين الاخيرين بعيداً عن كل انتقائية وتوفيقية واختلاط.

ومن أفلاطون عبر حلقات وسيطة متنوعة (ديكارت، العقلانية) الى هيغل هذا خط في تاريخ الفلسفة. إنه خط «المثالية الموضوعية» التي تصبر عند هيغل «المثالية المطلقة» (و «الفكرة المطلقة» مسلّمة المنطق).

المفهوميون يمكن أن نضعهم على خط يبدأ مع أرسطو ويصل الى؟.. الى ماركس؟
- لنقل: الى «الجميع»! لكن المهم هو الخروج من الاختلاط ودفع الأمور الى نهاياتها، إدراك صواب الطرفين النقيضين.

الاسمانيون هم ماديو العصر الوسيط. وقد لعب أشهرهم دورا فكريا وسياسيا ثوريا ومقاتلا.

من الاسمانية (العصر الوسيط) الى التجريبية (العصر الحديث: جون لوك Locke، ق17): هذا خط ثان.

و... من لوك الى بركلي Berkeley. هذا ما لاحظه لينين في «المادية والتجريبية النقدية»، حيث قال: من لوك يمكن الذهاب الى ديدرو (المادية) او الى الاسقف بركلي (المثالية الذاتية، مذهب اللا مادّية أو اللا مادّة). لكن لينين لم يتعامل مع «الاسمانية» و«الواقعية»، مشاجرة الكليات، قضية القرن الثالث عشر.. بركلي ينتسب الى الاسمانية، عن طريق التجربية (لوك)، بل ومباشرة بدون هذه الوساطة. بركلي، المثالي الذاتي، يقف على خط الاسمانية المادية!

«بالمقابل»، لنتذكر ان مدرسة مهمة في الرياضيات المعاصرة تسمي نفسها اليوم المدرسة «الواقعية الجديدة»، واقعية بمعنى افلاطون والقرن الثالث عشر. تسمية ضاربة، استفزازية. فالأرجح أن احدا من هؤلاء لا يعتقد ان هذه الطاولة المحسوسة غير واقعية وغير حقيقية. إنما يؤكدون «رياضية الواقع وواقعية الرياضي».

ومن المؤكد أن كل العلم، وكل الفكر الذي يستحق أن يسمى فكرا، يؤمن بـ«مفهومية الواقع وواقعية المفهوم»، أو - بمفردات أفلاطون - يؤمن بـ«مثلية الواقع وواقعية المثل»، على هذا النحو أو ذاك.

هكذا الفلاسفة والعلماء (بل لنقل هكذا البشر المنتمون لمفهومهم ونوعهم: «الانسان العاقل»، «الانسان الصانع العاقل»). والخلاف بينهم قائم على قضية «هذا

النحو او ذاك».

ثمة واقع وراء المباشر.

يجب رد الاعتبار لأفلاطون «مخترع» المُثل، مدشّن الفلسفة المفهومية، طارد الشعراء من المدينة مكللين بالزهور...

يجب ردّ الاعتبار للأوائل الذين سبقوا إفلاطون.

ليس فقط الكنعاني الذي «اخترع الذرة» (الذرة / الفراغ) او ذلك الذي اخترع اللغة ثانية أو ثالثة (الكتابة الأبجدية: إلغاء الصورة أو المعنى، الانتقال من الكتابة التصويرية الى الكتابة الصوتية) واليوناني الذي أكمل الشوط بفصله الوحدة الصوتية الى صائتة وساكنة لا «وجود» لأي منهما، وليس فقط السومري الذي اخترع الدولاب «معلناً» (عملياً) مبدأ وحدة الدائرة والخط المستقيم (الدولاب يدور، العربة أو السيارة تتقدم)، هذا المبدأ الذي سوف يُعلنه نظرياً نقولا دوكوزا وجوردانو برونو في مطلع الأزمنة الحديثة، الخ الخ.. بل أيضا وأولا اولئك الذين «صنعوا» الثورة النيوليتية وعمّروا القرى وأقاموا أسسا نهائية للحضارة. هؤلاء كأنّهم قالوا لأنفسهم ذات يوم - يوم يمتد من الألف العاشر الى الألف السادس قبل الميلاد -: منفعة؟ ثمة منفعة ومنفعة، مباشرة وبعيدة، ونمسك بالبعيدة. واقع؟ ثمة واقع مباشر و«واقعٌ - وراء» هو مفتاح المباشر. هؤلاء انتقلوا، عبر مسارات متناقضة وتحت حكم ضروروات آنية متفرقة، من القطف الى الزرع ومن الصيد الى الرعي، من الأخذ والاتلاف الى المكاثرة، من كهف الى «بيت» ووطن وعالم مؤنسن. هؤلاء جبروا وحسبوا وهندسوا، استوعوا وتوجّدنوا. ونطقوا.

يجب رد الاعتبار للانسان الصانع والعاقل.

قبل أي «حديث»!

- 4 -

المفهوم ليس الرمز

الكلمات تعبير عن فكر، مُثل idées، مفاهيم «concepts»، إنها ألفاظ، حدود termes.

إنها «مفردات» termes. المفردة اللغوية ليست كائنا مفردا بل «عكسه». إنها تعبر عن كلي، عن عام. **المفردة لغةً كلية كائناً** - هذا ما قلناه.

الكلمة تعبير عن فكرة ومعنى. بما أنها ليست شيئا كائنا مفردا، لذا لها أكثر من معنى، من اتجاه، من قصد. المعنى المحدد محكوم بعلاقة الكلمة مع كلمات ولنقل مع مقابلات أو معارضات. المعنى المحدد يحدده سياق محدد، وهذا السياق لا يستنفد اتجاهات الكلمة التي يمكن أن تتخذ معنى مغايرا في سياق مغاير.

هكذا بشكل خاص الكلمات الكبرى، الفلسفية ـ الشعبية، من نوع: شيء، عمل، واقع، فكر، وجود، مادة، مجال، قيمة، طبقة، شعب، ضرورة، جوهر، طبيعة، شكل، روح، عقل، حقيقة، الخ..

ثمة فرق وفروق بين لغة ولغة. هذا واضح، فيما يخص الكلمات الآنفة.

مع ذلك، فالقضية التي أكدنا ونؤكد عليها ليست قضية ألسنية (بين الألسن ـ اللغات) بل هي أولا قضية لغوية ـ فلسفية: علاقة اللغة والفكر والواقع، اللغة كوسيط بين **الفكر والواقع**. مقولتي المعرفة الأوليين؛ واللغة بوصفها «مادة بناء matériau الفكر» و«واقعه المباشر» أو حقيقته المباشرة والمحسوسة réalité immédiate، كما يقول ماركس.

«لا فكر بدون لغة».

يمكن استنادا الى هذه **الأطروحة المادية** أن أرفض دراسة الفكر كفكر و إقامة فكرة **المنطق**. هذا الرفض يمكن أن يتخذ ثلاثة أشكال:

الشكل الأول «ماركسي»: حقيقة أن «لا فكر بلا لغة» يمكن أن تعزز الاتجاه ضد الفكرية، ضد «المثالية»، ضد التأمل النظري او المضاربة النظرية spéculation العقلية.

الشكل الثاني «عربي»: في التاريخ العربي، وقف صاحب النحو وردّ على صاحب المنطق: المنطق (أرسطو) هو علم نحو اللغة اليونانية ونحن لنا لغتنا وعلم نحوها! في هذا الكلام صواب صغير وباطل كبير، باطل جذري: رفض الفكر كفكر بذريعة ارتباطه باللغة.. العرب كان عندهم لغة أدبية قومية، انشأوا علومها، ربما أعظم بناء من نوعه في تاريخ الحضارات الكبرى جميعا. الغربيون كانوا في حالة مغايرة، بنوا فقها من نوع آخر، تفننوا في المنطق الشكلي، الارسطوطيلي السكولاستيكي، بنوا ما يمكن أن نسميه علم تفعيلات القياس الصحيح ضد القياس الفاسد. (قياس syllogisme). قلنا «تفعيلات» على غرار تفعيلات العروض. مع فارق: ألفاظ تفعيلات القياس الصحيح أبعد أيضا عن أي معنى، انها الفاظ بربرية وعجمية تماما، والمجموع بلا وزن أو موسيقى أو طرب. لكن يبقى فعل Etre ذو المعنى وهو الرابطة في الحكم الارسطوطيلي المبني على هذا الفعل الهندو أوروبي مبدئيا. وقديما قيل إن اللسان أحسن وأسوأ ما في الوجود. يمكن القول إن **مذهب سحرية الكلام** هو أقدم ضلال في سيرة بني آدم، وأثبت ضلال. وهو يتخذ أشكالا **مختلفة** في تاريخ الشعوب.

لا فكر بدون اللغة، ولا إنتاج ولا إجتماع بشري. **إذن** يُعطى الكلام قيمة سحرية، تقدّس اللغة، تؤقنم، تؤلّه: تُعزل وتضخم.

الشكل الثالث علمي حديث: **إحلال** علاقة الدال والمدلول **محل علاقة الفكر والواقع**، **الاستغناء عن نظرية المعرفة** باسم الألسنية.

هذه التضحية بالفلسفة لن تخدم عملية الخروج من «الرمزية والاشيائية» الى «المفهومية والواقعية». هذا الخروج هو، في نظري، القضية الكبرى أمام الوعي العربي.

الوطن ليس العلَم و«أشياء». العلَم رمز والأشياء يمكن أن تكون قبيحة.

الحزب ليس لافتة وثوابت ــ جمادات. في الوعي الزائف، «المعنى الحقيقي» ينحط الى «جامد ذات» و«المعنى المجازي» خيال وعسف. ضد هذه الحالة، أقول:

إما الرمزية الشيئية و إما المفهومية الواقعية.

«عنصران» éléments. بالمعنى الذي يقول فيه الفرنسيون أو غيرهم: الماء عنصر السمك، العنصر الذي يعيش فيه ومنه السمك. بالمعنى الذي يقول فيه هيغل: المطلق عنصر الفلسفة. بالمعنى الذي يقال فيه: في وقت من الأوقات، غيّر الاغريق عنصرهم، انتقلوا من البر الى البحر.

علينا الآن مغادرة العنصر اليابس.

المفهومية الواقعية هي التي تعطي الرموز والأشياء حقها. هي التي تصل الى «طبيعة الاشياء» وهي التي تنصر «الأشياء» ضدّ «الكلمات».

«شيء» من أصعب الكلمات. الفرنسيون يقولون chose، والانكليز thing. العرب عندهم «شيء» و«أمر». الألمان عندهم Ding (معنى مادي أو صغير) وSache (الشيء ــ القضية، الحالة): في الحرب، الوسائل ليست أشياء، والحرب كلها شيء، شيء ــ قضية، شيء عظيم. هكذا لغة كلاوسيفيتس مترجمة الى العربية.. اذا قلت «طبيعة الاشياء» مفضلا إياها على طبيعة الأمور فإن هذا التفضيل يمكن أن يكون من قبلي تأكيدا على الموضوعية: الواقع كله خارج رأسي، «الأشياء» لها طبيعة ولها منطق ولها حياة. المنطق منطقها هي أولا! وهو صلابتها الحقيقية! هنا تخطّينا «الأغراض» (طاولة، كرسي) الى المجتمع مثلا!..

اللاتينية res (شيء) أعطت réalité, réel das Reale الخ (= الواقع). وأعطت من جهة أخرى res publica ← république (الشيء العام، قضية الجمهور ← الجمهورية). يمكن أن يُكتب تاريخ الفكر كبسط لهذا اللحن ولهذه القضية: شيء؟ واقع؟ من بدايات الانسان العاقل حتى نظرية النسبية: ذرات / فراغ؟ هذا خطر.. مادة / شكل؟ هذا خط ثانٍ.. فيزياء، تاريخ، علم اقتصاد...

«الواقع» كلمة، فكرة، مفهوم فلسفي. هذا المفهوم ضُيّع في الماركسية السائدة. ستالين قسم الواقع سلفا، في ذهنه، الى «طبيعة» و«مجتمع»، مقولتين ــ صنفين، بينهما علاقات واهية. نقل في الصفحة الأولى من كتابه نصا مهما لماركس (المعارضة ماركس / هيغل) برزت فيه الكلمة «واقع» وفوّتها. ضيّع الهوية «واقع» والتقابل واقع / فكر أو فكر / واقع. فالهوية «واقع» قائمة في هذا التقابل الذي ليس تقابل كرسي وطاولة في غرفة، بل تقابل مفهومين أوّليين في المعرفة الواعية: الفكر المقصود هنا هو فكري أنا فيما اذا كنتُ قد حزمت أمري على عملية معرفة ومسار معرفة. وتجاهي، إن أفكار الناس وعواطفهم وأوهامهم تدخل جميعا في «الواقع» القائم بتمامه خارج الرأس العارف أو

الفاكر. واذا ما لجأت، في مسار المعرفة، الى مخبر مادي كبير فهذا المخبر المادي الكبير إن هو مبدئيا الا امتداد للرأس ويقع تحت مقولة الفكر التي وردت في المبدأ: فكر / واقع.

يمكن القول ان الواقع والطبيعة والكينونة مضحى بهنّ، كمفاهيم إن ليس ككلمات، لصالح المادة، الرمز والعلم والعنوان، الأداة السحرية، المخدّة التي يرتاح عليها الرأس. ضد أي «التباس» ودرءا لأي تساؤل تعطى «إيضاحات» أو تأكيدات من نوع: «الكينونة المادية، الواقع المادي». هذا النغم يُسلطن في العقل الماركسي العام الذي لا يرى أن «الواقع» و«الطبيعة» و«الكينونة» لها، في المعرفة ونظريتها، في الفلسفة الماركسية وفي اللسان الشعبي، وبصرف النظر عن أية تفاصيل: وظائف أخرى. ولا تستطيع «المادة» أن تنوب عنها بأي حال! وهذه الحال الماركسية العامة لا تساعد الفكر العربي والوعي العربي على الخروج من الرمزية الشيئية والانتقال الى فكر الواقع.

المفهوم ليس الرمز. في الوعي الصاحي، الرمز بديل يعي نفسه كبديل. في الوعي الزائف، الرمز بديل حاذف.

كشرح للخيار: «شيئية ورمزية» أم «مفهومية وواقعية»؟، لا بأس من مثال افتراضي استوحيه من درس حساب في الصف الأول الابتدائي.

موضوع الدرس العدد أربعة (حسب البرامج القديمة). أنا معلّم الصف. معي 4 بالونات، 4 برتقالات الخ، وأقلام. أعرض «وسائل الايضاح». أشرح. أسأل... أخيراً، أكتب على السبورة 4، 4، صغيرة، كبيرة، بالأبيض، بالأصفر، بالأحمر.

يبدأ الخطأ حين أعتقد (وقد أقول!) ان 4 هذه هي المجرد وهي المفهوم. وان التفاحات الأربع والبالونات الأربعة هي المحسوس وهي الواقع..

التباسات، وفي الحاصل باطل أساسي في الوعي.

«4» محسوسة تماما: نراها على السبورة، نستطيع ان نلمسها، ان نذوقها.. باختصار إنها رمز، رمز للمفهوم أربعة، رمزٌ واصطلاح، إشارة متفق عليها. وهذا الرمز الاصطلاحي، بل العسفي او الاعتباطي، يمكن أن يكون 4، وهو كذلك في العالم بما فيه بلدان المغرب العربي (8)، وهو IV في الأرقام الرومانية. إنه 4 أو ٤ بموجب نظام الكتابة الرياضية العشري المعتمد على المجموعات 10^3، 10^2، 10^1، 10^0 الخ. وهو يختلف بموجب اختلاف الأنظمة، مثلا في نظام الترقيم الاثنيني (المعتمد على المجموعات 2^3، 2^2، 2^1، 2^0، الخ) يكون 100 (واحد وصفر وصفر). هذه الـ100 تكون هي المفهوم أربعة والحقيقة أربعة. وهذا النظام الاثنيني هو المعتمد اليوم في كل المعلوماتية الحديثة (يمكن القول انه يجد تبريره «الفلسفي» في الثنائية: صواب / خطأ). فهو نظام حديث جدا، لكنه أيضا قديم وبدائي[1]!

المفهوم أربعة لا يمكن أن يكون على السبورة. أين هو؟

إنه «في الرأس»، وكيانه خارج الرأس ـ في الواقع ـ لا ينحصر بتاتا في أربعات

الأشياء. فهو أيضاً كل علاقة رباعية «ممكنة» في الكون. الثلاثة مثلاً بنت علم المثلثات trigonométric. بفضلها وفضله نعرف المسافات بين الكواكب.. و«كل ما هو واقعي فهو عقلي، وكل ما هو عقلي فهو واقعي» (هيغل).

اذا سألني التلاميذ (ربما في صف عالٍ) اين المفهوم أربعة، أي الحقيقة والهوية أربعة؟ يجب كإجابة أن أؤشر اشارتين: الأولى الى الرأس، والثانية الى الخارج، لا على التعيين، في الهواء (اضافة الى تأشيري على الأربع تفاحات).

كذلك الحرارة، المفهوم العلمي، علم الفيزياء: اين الطاولة؟ اين النافذة؟ ـ اشارة معينة نحو الشيء المادي... ثم: يدُك حارّة، كذلك يدي، ألمس البلاطة (أرض الغرفة): إنها باردة! هل لها حرارة؟ ـ نعم! ـ أين الحرارة؟ ـ إشارة الى الخارج، «لا على التعيين» (في كل مكان، كل الأشياء). الحرارة حارّ وبارد. هكذا المفهوم العلمي. إنه يتخطى الفكرة «المباشرة». «الحرارة حار وبارد» كيف واحد، جوهر واحد، لا جوهر... إنه (ضد تفكير اوغست كونت) قابل للتقليص réductible، وهو يُقلّص ويُقهَر réduction، يحوّل الى «شيء» آخر في المعرفة العلمية الفيزيائية (حركة، كتيلات، تكاتل...). مفهوم الحرارة غير فكرة أو مفهوم الطاولة.

الكلمة العربية «مفهوم» مشتقة من الفهم الذي هو فهم الانسان.. هذا جيد شرط أن نؤكد قابلية الفهم: أنا أفهم لأن الواقع قابل لأن يُفهَم. بتعبير آخر، يجب التحذير من الايحاء الذاتوي للكلمة، يجب الاعتراض على مثنوية لغوية فكرية شائعة تساوي بين المحسوس والموضوعي وتساوي بين المفهوم والذاتي.

هذا الباطل «متضمن» في اللغة المتداولة، في التعليم المدرسي، و... يمكن أن يبرز فلسفيا في كتاب «مبادىء الماركسية اللينينية» بواسطة جمل ملتبسة.

مثلاً: «الفِكَر (idées المُثُل)، المفاهيم، ليس لها وجود الا n'existent que في الفكر البشري». جملة ملتبسة («وجود»؟؟)، أو في أحسن حال، كما سنرى، «كلمة حق أريد بها باطل»، حاصلها العام باطل كبير، سقوط الجدل!

ونتابع القراءة: «المفاهيم concepts تعكس الخصائص والملامح العامة للعالم المادي». «المفاهيم»!، الكتاب استغنى الآن عن «idées»، فِكَر، مُثُل، اكتفى بكلمة «المفاهيم»، فهو يحب «علمية المفهوم» ويحب المادية الفلسفية ويكره مُثُل افلاطون.

ونتابع القراءة: «هكذا مثلاً مفاهيم (هنا notions: مفاهيم، فِكَر، مصطلحات؟) الانسان، المجتمع، الاشتراكية، الأمة، الخ». نسي الحصان، البيت، الطاولة!؛ لينين 1914-1916 محذوف.

«المفاهيم تعكس الملامح العامة للعالم المادي». «تعكس» reflètent: ما معنى تعكس، انعكاس reflet؟ وأحد الأمثلة المذكورة هو «الاشتراكية»!! «الاشتراكية» تعكس؟ تعكس الخصائص او الملامح العامة للواقع المادي، للمجتمع السوفياتي؟ ـ

الاشتراكية مفهوم موجود في رأس ماركس وغيره وملايين من البشر قبل الواقع المادي الاشتراكي بكثيراً اذن: «تعكس» ملتبسة، وهي، في هذا العرض وفي كل هذا الكتاب، باطلة. الفكر الذي هو انعكاس ومحض انعكاس ليس الفكر.

الفكر انعكاس ـ استباق (anticipation). هكذا الفكر البشري كلّه، بدءاً من الصورة التي في رأس النجار والتي ترشد عمله وينفذها خارج رأسه فيجعلها واقعا ماديا، وصولا الى الاشتراكية، النظرية الكبيرة جدا. فكرة الاستباق صريحة في مفهوم الشغل عند ماركس، وكلمة «استباق» واردة مرارا في نصوص ماركس. والفكرة مؤكد عليها عند لينين مع إيماءات شتى. لكن الماركسية المكرّسة تترك الفكرة والكلمة anticipation لـ... برغسون و«**الطاقة الروحية**» مثلا. والمثقف العربي المحب للاستباق يركض اليهما: برغسون والطاقة الروحية...

الكتاب هو كتاب «**مبادىء الماركسية اللينينية**»، كتاب ضخم. تأليف عشرة من المفكرين السوفييت، بإشراف عضو القيادة الرفيق كوزينن، الفصل الأول، الفقرة 6، **خصوم المادية الفلسفية**، المقطع: «**المثالية الموضوعية**»، ص 30-31 (موسكو، طبعة فرنسية، 1964)... باختصار، «المثالية الموضوعية» حماقة كبيرة، تفاهة!

«المفاهيم تعكس اخصائص والسمات العامة للعالم المادي»: هذا «عقل سليم»، وهو استدراك لما سبق. المُثل ليس لها وجود الا في الفكر البشري، لكن: الواقع نفسه له سمات عامة.

ـ **هل له «شيء» آخر» يفلُت من أسر هذه «التلحيقة»؟** هل له خاصّ ليس عاما؟ هل له موادّ وجواهر؟

الماركسية السوفيانية تجيب: نعم، على سؤال لا تطرحه. هكذا «العقل السليم».

الجدل: عقل وحسب؛ وعند اللزوم وبشكل مبدئي، العقل ضد «العقل السليم».

المفهوم فكرة، مثال idée، من «الطاولة» وصولا الى «المادة»، «القيمة»، «الاشتراكية».

هل المفهوم صورة؟ المفهوم صورة من نوع خاص. في الوعي العربي تضافرت الماركسية والتراث والعقل السليم على البقاء عند «الصورة».

فكرة المفهوم تتلازم مع فكرة **الشكل** forme، المتقدمة تجريديا على فكرة الصورة. وترتبط بفكرة الحد اليونانية (والعربية أيضا): حد، تحديد، نهاية،... وبفكرة **القطع**. فكرة **الشكل** الفلسفية تتضمن فكرة القطع والقطعية والفعلية. (بالفرنسية: ordre formel تعني «أمر قطعي» وليس «أمر شكلي»).

فكرة **الشكل**، في الاستعمال اللغوي، مزدوجة ازدواجا جيدا اذا وعيناه: قضية شكلية، قضية لا شكل لها. وهذا الازدواج قائم مبدئيا في العربية والفرنسية الخ، رغم الاختلافات العديدة.

في الماركسية السائدة، الزوج أو الثنائي «مضمون وشكل» ألغى الثنائي «مادة / شكل». في الزوج الأول تخفيض للشكل لصالح المضمون أو المحتوى، ويصير هذا الزوج كأنه الجوهر والسطح، أو الجوهرة والقشرة. نبقى اذن في الوجودية المحسوسية. بالضبط، ليس الزوج الارسطوي هكذا بتاتا: لا موجود ولا واقع بلا مادة، لكن المادة بلا شكل سديم وخواء، المادة بلا الشكل عدمٌ، العدم.

كلمة شكل مصطلح لم يُضبَط في واقعنا اللغوي، فكرة الشكل forme الخطيرة الأهمية متسيبة في الاستعمال ومع الاستعمال: «فنون تشكيلية» plastiques، «تشكيل رياضي» composition الخ. هذا لا يساعد في الاتجاه الضروري: الشكل ـ المفهوم ـ الحد، نبقى في الشكل الحسي، الصورة... بعض الماركسيين يترجمون forme «صورة» ويركبون على «التشكيل» أو «التشكيلة» formation الاقتصادية الاجتماعية بآن معا!

كتاب الرياضيات المدرسي قد يُعرّف المستطيل بأنه «شكل هندسي الخ»، ثم يقول «انظر الشكل رقم 2». هذا تضييع للمفهوم، لفلفة للمفهومية. الشكل رقم 2 هو بالأصح صورة أو رسمة figure. «الشكل الهندسي» موضوع التعريف مثالٌ idée لا يُرى، كلية لا تقع تحت البصر، إنه مفهوم رياضي.

هذه قضية أرسطو؟ أرسطو، هيغل، ماركس، العقلانية كلها؟

القضية تبدأ من أفلاطون.

في مكان سابق من الكتاب السوفياتي المذكور آنفا، عرّف المؤلفون (في نصف سطر) مذهب أفلاطون بأنه مذهب الـ«idées ou formes»، وعبّروا، مرّوا مرور الكرام الماديين «الفلسفيين»! أهملوا «الترادف»!

الكلمة اليونانية الشعبية ideos أو idos قريبة من قولنا الشعبي «كَسْم»... والعبارة الفرنسية التي نقلناها عن الكتاب السوفياتي يمكن أن تترجم كما يلي: «فِكَر، مُثُل ـ أو ـ صور، أشكال». والمسألة الفكرية النظرية هي هنا! إنها بمصطلحاتنا العربية عند هوية وفرق هذه الكلمات: صورة؟ شكل؟؟ فِكرة؟ مِثال؟ معنى... وايضا مثل أعلى؟

فالمسألة هي أيضا مسألة العمل الانساني، عمل النجار مثلا. النجار يعطي المادة (الخشب) صورة أو شكلا. وهكذا يصنع شيئا، يخلق واقعا جديدا له معقولية مع جملة الواقع.

الفكر انعكاس ـ استباق. لأن الانسان يجرد مفهوميا، أي يعمل (واعيا أو غير واع ذلك) بالمفاهيم، الفِكَر، المُثُل، اي «بشيء ما» يتخطى المعنى المباشر لفكرة الصورة والانعكاس. واللغة، جهاز الاشارة الثاني والخاص بالانسان حسب بافلوف، لها هذا التخطي كوظيفة.

العمل، الشغل، مثلا عمل الحذّاء، يتضمن الفكر (الصورة، التصور، التصميم) كتعيين لازم في كل عمل. هذا هو فرقه عن عمل العنكبوت او النحلة، حسب

ماركس[15]. الانسان، قبل التنفيذ، يتصور، يصمم conception تعني «تصور بالمفاهيم».

forme: شكل[11]، formation: تشكّل، تشكيل (وتكوّن!)؛ information إعلام (إعطاء الشكل، غيرُ المشكول هو المعجم، غير المعَرّب)؛ transformation: تحوّل (الانتقال من حال الى حال، تغير الشكل أو تجاوز الشكل السابق). والتاريخ تغير الاشكال، بل ـ حسب قول لماركس ـ «تنويعة على الأشكال»، variation sur les formes. اذا حللنا العالم الى عناصر أخيرة، الى مادة، يتساوى وينعدم. هذه ليست مسألة وجودية وأونطولوجية وجمالية، بل قضية معرفية.

اذا ميزنا، وراء إرنست بلوخ او بوحي منه[12]، خطين كبيرين في تاريخ الفكر والعلم والعلوم، أحدهما خط الشكل (ارسطو: المادة / الشكل) والآخر خط الذرة (ذرات / فراغ)، أمكننا القول إن ماركس (رأس المال) على خط أرسطو.

الخطّان بعيدان عن المعنى الحالي لكلمات عربية مُحبّبة: جوهر، ماهية، مادة، روح.

فكرة **الصورة** تقيم مادّية نظرية المعرفة: وحدها فكرة **الشكل** تؤسّس جدلية نظرية المعرفة.

ـ 5 ـ

الواقع ليس المادة

الواقع والمادة، عدا عن كونهما كلمتين تتخذان شتى المعاني في الاستعمال اليومي[13]، مع اختلافات صغيرة او كبيرة بين لغة واخرى الخ، هما مفهومان نظريان مختلفان، بل وفي اعتقادي متعارضان، وأريد اقامة معارضتهما وتسويغ جدوى هذه المعارضة وضرورتها النظرية والعملية.

أترك تاريخ الفلسفة والمصطلحات: متى ظهرت هذه الكلمة وتلك، كيف تطوّرت هذه الفكرة وتلك.

مبدئيا، أترك ايضا علم الفيزياء وإشكاليته العلمية والفلسفية في القرن العشرين. أكتفي هنا بالاشارة الى ان غطس الفلسفة الماركسية «المادية» في هذا الموضوع كان باطلا بالمعنيين: كغطس وكنتائج وأحكام. وبهذه المناسبة، لابد من نقل قول يستحق الشهرة: «المادة، كمادة، محض إبداع من الفكر وتجريد خالص».

ليس قائل هذا القول هو الأسقف بركلي بل الرفيق انجلز، في **جدل الطبيعة**. بحذف المواد، الاختلافات، الكيفات، يبقى المادة ـ الكم. هكذا مادية القرن الثامن عشر التي يمكن أن أدعوها «المادية الفيزيقية» والتي هي، حسب إنجلز، انتكاس الى مذهب المثالية الكمية الفيثاغوري.

لنقل: «المادة» مفهوم، وكل مفهوم هو مِدحلة تسوية، والمفهوم الكبير ـ المادة ـ مِدحلة تسوية تامة. كذلك، من جهة أخرى، مفهوم **القيمة**، مفتاح الاقتصاد السياسي. القيمة علاقة مساواة بين السلع الأشد اختلافا. القيمة (القيمة التبادلية أو القيمة محض) هي، مثلا، إعلان أن «علب الدهان» وقصرا جميلا في شارع أكسفورد ستربت هما واحد (المثال من ماركس، في **مقدمة نقد الاقتصاد السياسي**). مساواتان مختلفتان: الأولى ـ المادة ـ لا يمكن أن تكون، في وعي صاح، اكثر من إعلان أولي لحقيقة ان العالم قائم خارج رأسنا وأن ادراكي المباشر له هو ادراكي له كأشياء كائنة، بدون مصادرات (مسلّمات) اضافية، ضمنية، لا تسويغ لها. في الماركسية كما انحدرت: مسلمة المادية (مادية العالم) أكلت مسلمة المعقولية (معقولية العالم)؛ العالم أشياء ثم تُربط: «قوانين».

بعد هذا الاستطراد الطويل، الذي ليس محض استطراد كما سيرى القارىء، أدخل القضية: الواقع ليس المادة، مفهوم المادة أياكان محتواه لا يمكن أن ينوب عن مفهوم **الواقع**. وكل معرفة الواقع تسقط اذا ما سمح لفكرة «المادة» او ما شابهها بأن تبسط نفسها على فكرة «الواقع».

الواقع كفكرة لا ينحل في الواقع الفيزيقي. المادة فكرة فيزيقية وفيزيائية. الواقع فكرة مجتمع وعالم وانتاج وطبيعة وتاريخ.

الايضاح الذي أقدّمه لا علاقة له بعلم الفيزياء، انه مثال من التاريخ.

القرن السادس عشر يشهد انقلابا كبيرا: النهضة، الطباعة، الاكتشافات الكبرى والاستعمار الاوروبي، الاصلاح البروتستانتي، كوبرنيك وفيزال، ايراسم وماكيافيلي، توماس مور وتوماس منتسر، جوردانو برونو وياكوب بوهم، الأمم ولغاتها وآدابها ومصائرها، و... **ثورة الاسعار**.

ثورة الأسعار، التضخم النقدي، تدفق المعدن الثمين (ذهب، فضة) على اوروبا والبحر المتوسط. «ناس» يثرون و«ناس» يفقرون... الامبراطورية العثمانية قائمة فوق ثلاث قارات، اخترقت اوروبا الى ما وراء الدانوب والى شمال البحر الاسود. وامبراطورية اسبانيا لا تغيب عنها الشمس.

المصائر التالية للدول والأمم معروفة، «نسبيا».

أريد النظر في جانب من آلية صعود البعض وانحدار البعض.

افترض، في سنة من سنوات ذلك العصر (ق16)، رجلا يعيش في مدريد او لندن او اسطمبول او القاهرة، لافرق، يملك ثلاثة كيلوغرامات من الذهب. وبعد ربع قرن أصبح يملك خمسة كيلوغرامات.

ماله، ملكه زاد. لكن القدرة الشرائية لهذا الملك أو المال انخفضت (بسبب تقدم انتاجية الذهب، بسبب وفرة الذهب المعدن، الخ). إنه «خسر». هل هو يدرك أنه

خسر؟ ربما الجواب: نعم و لا. ربما هناك اليوم من يقول إنه ربح... لكن القضية ليست هنا. ليست القضية ما يقال، أو «الرأي» l'opinion. بل هي «الحقيقة» كما يقول الأقدمون! ما معنى «مال» و«ملك»؟

ما هذه «القدرة الشرائية»؟ هل هي قدرة سحرية موجودة في عمق مادة الذهب او الفضة؟ يمكن أن نقول: إنها القيمة، قيمة الذهب المتوج ـ السلعة (مصطلح ماركس وآدم سميث وربما ارسطو)، اي القيمة التبادلية. لكن، سواء على جسر مفهوم القيمة العلمي ـ الاقتصادي أو بدون هذا الجسر، فإن «القدرة الشرائية» لمال يملكه رجلٌ أو شركة أو دولةٌ تحيلنا على فكرة العلاقة: علاقة هذا المنتوج بكل المنتوجات في العالم الاقتصادي، علاقة التساوي الكلية ـ الكونية.

المذهب المركانتيلي هو بالأصل والأساس (ق16) عبادة المعدن الثمين. العقيدة التي مفادها أن الثروة هي الذهب والفضة. الاسبان، الفرنسيون، الانكليز الخ هذه عقيدتهم. فيما بعد (قرن 17)، يُطوَّر هذا المذهب (الى مذهب صناعة وتصدير، تجارة شركات مونوبول حكومي).. وأخيرا (ق18) يُنْسف. تنسفه الفيزيوقراطية (حكم الطبيعة، العمل الزراعي، حرية العمل والتبادل)، ثم ينسفه نهائيا آدم سميث (كلية العمل المجردة، العمل كمحض فاعلية ذاتية، العمل بدون موضوعاته المادية، اذن «العمل» من فوق أصناف العمل كموقع أول في الفكر العارف). ورغم ان المركانتيلية المطورة (صناعة وتصدير وسياسة) استمرت طويلا، فقد كان وزير الملك هنري الرابع (حوالي سنة 1600) قد أطلق شعارا حفظه وأبرزه التاريخ المدرسي الفرنسي: «الفلح والرعي هما الثديان اللذان يُطعِمان فرنسا، هما مناجم ذهب البيرو الحقيقية».. وقبل آدم سميث والفيزيوقراطيين، صدرت مئات الكتب من نوع «فوائد زراعة القمح» (وماركس قرأها، بدأ بقراءتها في شبابه بعد دراسته الفلسفة، قبل التفكير بالثورة البروليتارية).

العثمانيون (وكذلك الاسبان) كانوا بعيدين عن هكذا موقف. ولستُ في مقاضاة العثمانيين وتاريخنا والأجيال الماضية. بل المهم مقاضاة فهمنا الحاضر لتاريخنا الماضي. فهذا الفهم حاضر وراهن وفاعل، ولعله فلسفة عميقة في ضلالها.

ما يجب أن يُدان أولا ودائما، من فوق الحكام والشعوب وأحقاب التاريخ، هو: ولنية الروح، شيئية المعرفة، مركانتيلية الاجتماع.

تجارة؟ commerce؟ الكلمة لها معنيان اثنان ممكنان في الواقع والفكر والروح: أ ـ معنى عادي ركيك mercanti، بيع وشراء ونهب تجاري، «ربا». ب ـ معنى كبير: الـcommerce بين البشر هو التبادل بين البشر، التعامل، الاجتماع، الكينونة الاجتماعية. المجتمع عمل وتعامل. كذلك الأخلاق: ضمير (وجدان)، عمل وتعامل، ميدان «العقل العملي» حسب الفيلسوف كنط.

العثمانيون لم يكونوا ضد التجارة بالمعنى أ. كانوا بعيدين عنها بالمعنى ب. هذا المعنى

الكبير يبرز في القرن الثامن عشر الاوروبي (مع مفهوم «المجتمع المدني»)، مع الفصل مجتمع / دولة = كينونة البشر / الولاية على البشر)، ولكن بذرته موجودة في أحقاب سابقة، في أصقاع شتى وتحت سماوات شتى.

بعد ذلك، أقول بمفردات «علم الاقتصاد»: العثمانيون كانوا مع التجارة لكنهم كانوا ضد «اقتصاد السوق»، ضد سلطان «القيمة».

فكرة «المال» مزدوجة[4]، فكرة المُلْك أو الملكية كذلك. هذا الازدواج الثنائي ليس قائماً في رأسي ورأسك فقط (حين نعيه!) بل في رأس العالم، في **منطق الواقع**.

نعود الى صاحبنا كانز ومنمّي الذهب في القرن السادس عشر.

ثمة جهتان في ماله أو ملكه.

الاولى مادة، كتلة، وزن، كمّ، صلابة، ثبات، عزل. مادة مادية جداً: يمكن بسبيكة ذهبية قتل رجل بضربة واحدة.

الثانية «شيء آخر»: علاقة، معقولية، موصولية مع العالم، مع الانتاج، مع جملة العمل والتعامل، كينونة حرّة، صيرورة، واختفاء الذهب ـ المادة.

في الأولى + (زيادة).

في الثانية ـ (نقصان).

أيهما الواقع؟ أين الفعلي؟ الواقعي، الحقيقي؟

إن «المعنى الحقيقي» في مثالنا الآنف ليس الـ«جامد ذات» ولا هو «المعنى المجازي».

مذهب وجود الاشياء أو المادة، ومذهب وجودها والملائكة والشياطين، كلاهما يضيّعان **الواقع** بتضييعهما **المنطق**.

هذه قصة من القرن السادس عشر... يمكن أن تكون قصة اليوم.

نمسك الطاولة ونقول «مادّة»، نمسك البندقية ونقول «ثورة»، نعبد الذهب ونبلع النفط: «ثروة».

في جهة المادة ـ الكتلة ـ الكمّ نحن شيء. وفي الجهة الثانية ـ شكل، عقل، روح ← واقع، راهن، ذاتية ـ نحن شيء آخر:

فكرة المادة هي أيضاً فكرة الذرة والذرات والتذرّر!

□ □ □

1 ـ موقفي الشخصي: الماركسية، الفكر العربي، وعملي كمدرس
أعتقد ان قضية التعليم باللغة الخطورة... وأعتبر نفسي مدينا بالكثير الكثير لعملي في هذه المهنة. لا سيا كمدرس في دار المعلمين الابتدائية باللاذقية.

2 ـ من الأفغاني ومحمد عبده الى رشيد رضا الى سيد قطب الى الحاضر. رغم الاستثناءات. ورغم وجود خط بالعكس: قاسم أمين، علي عبد الرازق، طه حسين... خالد محمد خالد...

3 ـ الرأس der Kopf، مقولة عامة (ماركس، هيغل، فويرباخ). وليس المقصود الجمجمة، ولا الدماغ أو المخ المادي. بل المقصود الرأس / العالم (خارج الرأس). المقصود الفكر، أي الفكر الذي حزم أمره وقرّر بدء مسيرة المعرفة. «الرأس» في عملية المعرفة صفر حامل اللانهاية.

4 ـ سيد قطب، في التصور الاسلامي، لا يذكر الفلسفة والفلاسفة الا سلبياً. ولا يستخدم الوصف «فلسفي» عن «التصور الاسلامي» حتى حين السياق يدفع تلقائيا الى استخدام هذا الوصف.

5 ـ يكره المجردات، أي بالحقيقة يرفض الكليات الكبرى، ولا يعي علميا ان كل «الكليات» هي مجردات. ولا سيا مفاهيم العلوم والقوانين العلمية.
مثلاً. أوغست كونت يعلن «عدم» nullité جميع نظريات الضوء، ولا سيا نظرية نيوتن. يؤكد أن كل «هذه التصورات المناهضة للمرحلة العلمية هديمة جذرياً»... «رغم كل الافتراضات التعسفة، إن الظاهرات الضوئية ستكون على الدوام صنفا قائما بذاته، مقولة من جنس ذاتها sui generis، ولا يمكن تقليص أو تحويل هذه المقولة الى أية مقولة أخرى أو صنف آخر: ان ضوءاً (une lumière، أو: إن الضوء؟ عمل بالمفاهيم أم لا؟) سيكون الى الأبد غير مجانس hétérogène لحركة «أو لصوت» (كونت، دروس الفلسفة الوضعية او الايجابية، الدرس الثالث والثلاثون، ج2).

6 ـ اين تقع الفلسفة العربية الاسلامية في اشكالية الصورة، الشكل، المفهوم؟ لعل هذا هو السؤال الأهم، السؤال المركزي هنا مسألة الجدل لا مسألة «النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية» (كتاب حسين مروة...).
في عصر النهضة (ق15-16)، اوروبا تعود الى أفلاطون، الى بارمنيد الخ. من فوق الخلائط المتقدمة

7 ـ لو كانت اوروبا مسلمة (منذ القرن الثامن مثلا) هل كان سيتغير المسار الاوروبي؟ أسرع؟ أبطأ؟ شكل آخر؟
لا يجوز تضخيم دور «الدين» في التاريخ، تفسير التاريخ بـ«المثالية الدينية»، تحويل الدين الى سحر. الدين، كعامل في الدنيا، يؤخذ في مجموع جملة واقعية، يتحول الى ايديولوجيا دينية وايديولوجيات دينية مختلفة الاتجاهات. هذا أولا.
وثانيا، إن الركائز اللاهوتية المسيحية التي أشرنا اليها في متن النص والتي انتقلت من الخلفية اللاهوتية الى الصدارة الفلسفية، بجهد وصراع طويلين، موجودة في العقيدة الاسلامية، صريحة في القرآن والحديث.

8 ـ ولا يزال المشرق يتحرّى مسألة عروبة الـ4. علما بأنه وصل مرارا الى: نعم، بدون ان يتبناها... الأرقام التي يسميها العالم «عربية» (والتي هي على الأرجح هندية، عربية، اوروبية، وربما أولا فينيقية..) ضرورية للمشرق. النقطة للصفر: غير معقول! وذلك لأسباب مشهورة ـ وأيضا لهذا السبب: يجب فصل الرمز والمفهوم، فصل «الرقم» و«العدد». ابراز الصفر جيدا، جعله كتابيا بحجم الـ1، 2، 3، ...9، فصل المصطلح الكتابي عن الحقيقة. علما بأن هذه الحقيقة (الصفر) ليست صغيرة أبدا!

9 ـ من المفيد، في سبيل فصل فكرتي المفهوم والرمز، وتعزيز فكرة المفهوم، إدخال دروس نظرية وتطبيقية عن أنظمة الترقيم. يجب أن يتعلم طلابنا ان الاربعة تكتب 4، 100، 11 بموجب نظام الكتابة المعتمد، اي ان الاربعة كمفهوم وكحقيقة ليست أيا من هذه «الصور».

10 ـ رأس المال، الكتاب الأول، ج 1، الباب الثالث (انتاج فضل ـ القيمة المطلق)، الفصل السابع، الفقرة الاولى (انتاج القيم الاستعمالية)، ص 180-181، في طبعة Ed. Sociales، باريس 189.
اليكم هذا النص الذي يمكن اعتباره «تعريف» ماركس للعمل ـ الشغل ـ الكدح (travail).
«الشغل هو، من الواجهة الأولى، فعل يتمّ بين الانسان والطبيعة، الانسان يلعب فيه هو نفسه ازاء الطبيعة دور استطاعة (قوة puissance) طبيعية. القوى (forces) التي يتمتع بها جسمه ـ ذراعان ورجلان، رأس ويدان ـ يحركها الشغيل بغية تملك مواد معطيا اياها شكلا نافعا لحياته. وهو في الوقت نفسه مع فعله بهذه الحركة على الطبيعة الخارجية وتغييره لها، يغيّر (يعدّل) طبيعته ذاتها ويبسط الملكات (القدرات) الراقدة فيها. لن نتوقف عند هذه الحالة الاولى للشغل حيث لم يخلع بعد نمطه الغريزي المحض. نقطة انطلاقنا هي الشغل في شكل ينتمي للانسان حصرا. فالعنكبوت يقوم بعمليات تشبه عمليات الحائك، والنحلة تربّي بنية خلاياها الشمعية العديد من المعماريين الماهرين. لكن ما يميّز، ومن النظرة الأولى، اسوأ معماري عن أمهر نحلة هو أنه بنى الخلية في

رأسه أولا قبل أن يبنيها في المتحلة. النتيجة التي اليها ينتهي الشغل موجودة ـ سبقا (préalable) مثاليا (idéalement، فكريا وفكريا) في مخيلة (imagination، خيال، تصوّر) الشغيل. فهو ليس فقط يحقق تغيير شكل في المواد الطبيعية، بل إنه بالضربة عينها يُحقق (يوقّع، يوقع réalise) هدفه الخاص الذي هو يعيه، الهدف الذي يحدد (يعين détermine) نمط فعله (طريقة عمله mode d'action) كانونا، والذي يجب أن يُخضع له إرادته. وهذا الاخضاع ليس مؤقتا. فالعمل يشترط، طيلة دوامه، عدا عن جهد الأعضاء التي تعمل، انتباها معززا، وهذا الانتباه لا يمكن أن ينجم الا عن توتر دائم للارادة...».

هذا والتعريف للشغل، هذا النظر على الشغل، بذرة أو نواة أكاد أقول انها تضمّ كل مقولات الفلسفة الماركسية معمولا بها كمفاهيم لا ككلمات نعتقد انها تعبّر عن لقطات مادية في عالم الامتداد. مثلا: العلاقة انسان / طبيعة ليست علاقة طاولة أمامها كرسي في غرفة. المفهوم ليس جزءا ـ مادة، المفهوم قطع ـ شكلٌ.

11 ـ يجب التخلي عن ترجمتها بصورة. ويجب الانتقال من فكرة الصورة الى فكرة الشكل. وإلا فإن كل الجهد النظري لـ«المفهوم» يذهب هباء.

12 ـ ارنست بلوخ، فلسفة عصر النهضة، دار الحقيقة.

13 ـ أحد استعمالات كلمة «مادة» هو المادة بمعنى المال، العملة، النقد، الفلوس. هذا استعمال جيّد، شرط أن يوعى. كلاهما ـ «المادة» و«المال» ـ تجريد، وتسوية كبيرة، عادمة للفروق، لا مبالية. كلاهما يجزّأ، كلاهما كمّ... وكلاهما يهيمن ويُسلطن.

من جهة ثانية. فلنلاحظ ان القرابة كبيرة بين مادة، matière و substance.

14 ـ لا ننس في العربية: مال ← مالَ. لكن القضية ليست، أساسا، لغوية.

المال كعدد، كم / و/ المال كمفهوم وعلاقة، كيف، ككائنية. هل زاد ماله، هل نقص؟ الاجابة ليست نهائية.

العقل والعقلانية

ثلاثة معان ممكنة

مجلة الوحدة العدد 27 ـ 1986

1 ـ «العقل»

في لغتنا المتداولة، كلمة «عقل» متواترة، ولها بوجه عام شحنة إيجابية. في القاموس السائد، وهو بطبيعة الحال وثنيّ ومانويّ الى حد لا بأس به، تَمثّل كلمة «عقل» في باب آلهة الخير والنور والحق. وان كانت تنطلق، بين حين وآخر، أصواتٌ بالعكس: شبعنا عقلاً وعقلانية، نريد العاطفة والشعور والخيال والحلم. أو أيضاً: العقل مفقود في الغرب، الغرب نفسه بات يعترف بأن العقل انتهى... مع ذلك، ورغم هذه الأصوات، فالعقل كلمة إيجابية في مفرداتنا اليومية والسياسية والفكرية، وإيجابية جداً في لغة المثقّف التقدمي.

هذا بجانب الأمور الأكثر أساسية.

2 ـ معقولية العالم

باديء بدء، ثمة نوع من إجماع على أن العقل قائم في الانسان ورأسه. وهذا صحيح ومهمّ، شرط أن يعني أن الانسان هو الحيوان العاقل. و ـ كما تضيف الماركسية وآخرون كثيرون ـ هذا العقلُ يرتبط بالعمل أو الشغل في الانسان: الانسان يدٌ و«رأس»، هذا ما قاله قديمون ووسطويون وحديثون.

غير أن هذا الموقف ناقص، من جهة أخرى، فـ«العقل» كلمة يجب أن تحيل مباشرة الى الواقع، العالم، الى هذا «المجموع» الذي خارج الرأس. ثمة للعالم عقل، معقولية، عقالة، ولذلك فثمة للانسان عقل.

(*) ينبغي الاشارة الى أن علامة √ يقصد بها الجذر التربيعي

المسلّمة الآنفة ضمنية؟ ـ يجب التصريح بها، والاّ فإن فكرة «العقل» تجنح سلفاً نحو الذاتوية (الذاتوية البشرية لفرد أو جماعة...). ضد هذه الذاتوية، من الأفضل أن نقول لأنفسنا: ما في رأسنا ليس العقل، بل الذهن، وهذا الذهن يصير عقلاً بقدر ما يقترب من عقل الواقع.. وأن نضيف: صحيح أيضاً أنه يمكن أن يصير عقلاً مُبَيَّناً جداً، وضالاً، بابتعاده عن عقل الواقع و«محاكاته» للواقع واغترافه منه ما «يناسب» من قوانين ومفاهيم ومناهج وآليات الخ. وهذا يقودني فوراً الى ما يأتي:

مَن، في نظره على الواقع، يمتنع عن العقل «بالجملة» أو في المبدأ و يريد استرجاعه «بالمفرّق» أو «بالتجزئة»، مهدَّدٌ بأن يجعل الأجزاء التي اقتطعها تبريراً وأداةً لعقل الذات الذاتوي.

الجدل ـ مذهب العقل ـ قائم على مسلّمة أولية: للعالم عقل، للواقع منطق (ولذلك يوجد تاريخ). هذا المبدأ منبوذ في الماركسية المعروضة بوصفه مثالية، ومستعاضٌ عنه، في مختلف المواقع التالية ومع إلحاح مشدَّد، بالمبادىء والسمات العامة والقوانين (وكلها صيغ جمع لغوي) وما شابه. يُعتبر أنّ لهذا المبدأ (عقل العالم، منطق الواقع) أو لهذا النوع من الكلام رنةً مثالية (لوغوس، لاهوت، «الفكرة المطلقة» الهيغلية) ومن الأفضل اجتنابه[1].

3 ـ «الفهم»

بيد أن كلمة «عقل» أو ما «يوازيها» في لغات مختلفة لها في الجدل، عند هيغل وماركس وآخرين كثيرين، معنى غير المعنى المألوف. وهي، في اللغة واللغات وعند الفلاسفة، تتخذ معاني مختلفة. وهي تتخذ اليوم عند المفكرين العرب معاني مختلفة. بعضهم يقلّصها. بعضهم يوسّعها، يشمّلها الحلم، الخيال الخ، وبلا تمييز، بلا تفريق بين حلم وحلم، خيال وخيال الخ. في هذه الحال، العقل ـ الذي هو «عقل الانسان» ـ يصير مرادفاً لمقولة الروح أو الفكر بالمعنى الواسع أو الوعي ـ الوجدان أو لمقولة النفسيّ le psychique. ويتخلى أصحاب هذا الموقف الأخير عن مواجهة المسائل الأكثر أساسية والأكثر حسماً، وقد ينتهون الى من حيث بدؤوا: موقف وجوديّ ـ وجدانيّ، العقل هو كل ما يحلو للنفس البشرية. التذويت ينتهي الى السيكَلَجَة.

إن قيمة تعليم هيغل، ذروة الفلسفة الأوروبية، أنه يذهب ضد هذا الاتجاه. هيغل ليس في ردّ فعل ضد «عقلانية» قاصرة، مع أنه هو ناقضُها وداحضُها ومتجاوزُها: إنه يقيم «عقلاً أعلى» هو عقلٌ (وليس حلماً... مثلاً!).

ثمة للعقل مستويان، وللكلمة معنيان.

الأول ـ الأسهل والأكثر شيوعاً كمعنى ـ هو ما يسميه هيغل Verstand، وترجمتها الفلسفية الفرنسية entendement، والعربية «فَهم».

فاعليات الفهم هي التحليل والتركيب، الاستنتاج والاستقراء، وطبعاً التجريد. اذن الفهم هو أيضاً الحكم والمحاكمة، الاستدلال، raisonnement، الفكر الخطابي أو المحاكم pensée discursive، تعاقب أحكام مترابطة وصولاً الى نتيجة خاتمة conclusion (إغلاق). هذا الفهم أو العقل يفهم، يعلّل، يُفسّر. إنه في خدمة الحياة والعمل والمعرفة بما فيها أعلى معرفة نظرية (فلسفيّة، علميّة)، في خدمة المجتمع والتشريع. هذه الفكرة يمكن أن تحيلنا الى فكرة الراسيو ratio اللاتينية، التي يمكن أن نسميها العقل الحسابي والعقل المعقلن الخ والتي هي أصل الكلمة الفرنسية والانجليزية reason، raison (العقل. وأيضاً: **العلة**) التي أعطت raisonnement (محاكمة، استدلال)...

لنذكر أن إنجلز يقول (**في جدل الطبيعة**) إن فاعليات الفهم المذكورة آنفاً (تحليل، تركيب، تجريد بالمعنى العادي، استقراء، استنتاج) موجودة أيضاً عند الحيوانات العليا، وان الذي هو ملْك للانسان حصراً هو المستوى الآخر، الأعلى.

4 ـ «العقل السليم»

لنذكر أيضاً، بصدد الفهم Verstand، أن الألمان يتكلمون، وبشكل ايجابي مبدئياً، عن «الفهم البشري المشترك» أو «الفهم البشري العام». حيث يتكلم الانكليز والاميركيون عن «الحسّ المشترك» أو «الادراك المشترك»، الـ«common sense»[2]، والفرنسيون عن الـ«bon sens» والـ«sens commun»، والعرب عن «الادراك السليم» و«**العقل السليم**» و«الحس السليم» الخ. هذه مصطلحات متقاربة، يمكن القول إنها تنتسب الى الـVerstand، الفهم، entendement. هذا اللحن ـ «الفهم البشري المشترك»، الخ ـ لحن ديمقراطي، أنشدته أزمنة ثورية، وهو يرتفع الى مستوى عالٍ عند مفكري القرن الثامن عشر وغيرهم. لكنه يمكن أن يتخذ في التاريخ منحى آخر.

«العقل السليم» فكرة تُسلطِن حاليا عند بعض الاسلاميين، مثلا في كتاب الاستاذ محمد سعيد رمضان البوطي، «**نقض أوهام المادية الجدلية**». بالحقيقة، إنها مسلطِنة في الطرفين: «المادية الجدلية» وناقض أوهامها. كلاهما يلتقيان على «وجود الأشياء» و«وجود المادّة» خارج المفهومية.

لنقل إن الجدل هو، بشكل حادّ وعلى نحو ضارب، اعتراض على هذا التسلطن. الجدل، بحصر المعنى، هو العقل مقيماً الحدّ على «العقل السليم» ومتّهماً دوغمائية الحس السليم والإدراك الحسّي وملحقاته. في وجهه السلبي، إن «العقل السليم» هو مجموع «الأحكام المسبقة» لعصر من العصور. والعقل حسْب، أي العقل بلا «سليم»، ينقضه ويطوّعه، فيحوّله الى «عقل سليم» جديد متقدّم على «العقل السليم» السابق.

«العقل السليم» كان يقول: الشمس والسماء تدوران حول الأرض، وهو الآن يقول: الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس. كان يقول وما زال يقول عند

البعض: الأنواع الحيّة هي هي منذ الخليقة...

إن نسبية أينشتاين لم تدخل بعدُ في «العقل السليم»: هذا أمر طبيعي. ما ليس طبيعيا ان لا تكون قد دخلت في «مبادىء الفلسفة الماركسية» مثلا...

ثمة هوة، في ما يأتينا من الاتحاد السوفياتي، بين سلسلة «العلم للجميع» وكتب تعليم «الفلسفة الماركسية»، «المادية الجدلية» الخ. بعض كتب سلسلة «العلم للجميع» لا تُراعي بتاتاً «العقل السليم» بل تنقضه، تكشف حدوده، تكشف قصوره وباطله المبدلي.

لكل «عقله السليم» وباطله المبدلي. الحزب الديني، الحزب الماركسي، الحزب القومي، الحزب الليبرالي، لا أحد خارج القاعدة البشرية. ليس فقط دوغمائية الأشياء هي أساس لهذه القاعدة العامة، بل العلوم نفسها تخلق هي أيضاً «عقلها السليم» الوثني. لا أحد منّا بمعصوم عن هذا الضلال النابع من ضرورات المعرفة والعمل والحياة. لكن، لئن كان التصوّف جهاد النفس، فالجدل **جهاد المعرفة**، أو هو **المعرفة كجهاد**، بالمبدأ. الفكر العربي ما زال ـ في أحسن حال ـ مع «الاجتهاد».

5 ـ العقل والخيال

كل الفتوحات نقض للعقل السليم بالعقل. سواء أكان الناقض والمنقوض استعملا المصطلحات الآنفة ام لا.

العمليات الصغيرة التي كانت قوام الانتقال الطويل الشاق من القطف والصيد الى الزرع والتربية، اقامة الحضارات النهرية الكبرى، اختراع الكتابة، اختراع الدولاب (العجلة)، اختراع الأبجدية،... تجريدة فيثاغور (إلغاء المادة وتأسيس العلم الرياضي المحض)، علم الهندسة («في كلّ مثلّث...») وعلم الميكانيك («كلّ جسم مغطّس في الماء...»)،... عملية الخوارزمي... كوبرنيك... لافوزيه (الاحتراق، الاوكسجين، لا المادة الاشتعالية)، آدم سميث (الشغل المجرّد) الخ، الخ. كلهم نقضوا «العقل السليم». ولم ينقضوه بالعاطفة ولا بالبصر ولا بالخيال والحلم والسحر ولا بتركية في «جامد ذات» و«معنى مجازي». بل نقضوه بالعقل، بهذا الذي هو يستحق ان يسمّى العقل بتمامه، اي بالعقل الذي هو أيضا خيال (تصوّر، imagination).

فالخيال كلمة لها، في الإمكان اللغوي والفكري والواقعي، معنيان: الخيال الخرافي المجاني «الاختراعي» والخيال العقلي الموضوعي المكتشف لعلاقات الدنيا ومعقولية الواقع. الأوّل غنيّ جداً والثاني فقير عند الطفل، ثم في سنّ معيّنة، تنحلّ أشكال وتنشأ أشكال، يتشكّل العقل، يتكوّن العقل ـ الخيال، او التخيّل العقلي الموضوعي اللا أنوي كجزء من عقل الطفل، ويتراجع الخيال الخرافي المجاني. هذا حسب جان بياجيه Piaget، وهو فيلسوف كبير حقاً وأكبر سيكولوجيي الطفولة في القرن

العشرين... أين نحن في هذه الحيثية؟ عقل في المستوى الأدنى، «عقل سليم» + خيال خرافي؟

لا نضنَّ على العقل والمعرفة بالخيال! اذ ليس الفيزياء المعاصرة فقط بل أيضاً كل تجربة البشرية ومآسيها في عصرنا المتقدّم، تصرخ: «الواقع أكبر من الخيال». لكن ثمة خيال وخيال، تصوّر وتصوّر.

6 ـ مستويان

هناك اذن مستوى آخر لفكرة العقل. شيء أعلى او أعمق في مستوى «الفهم» Verstand. وهذا المعنى الآخر يخصّه هيغل بكلمة vernunft، وهو ليس سحراً ولا عاطفة... بل، ببساطة. عقلٌ، عقل بشري يدرك التناقض في جوهر العالم ومبدئه.

حتى ان إنجلز، كما ذكرنا، يقول إن فاعليات الفهم مشتركة للانسان والحيوانات العليا، والخاص بالانسان هو العقل ـ التصور ـ الجدل، وهذا الخاص بالانسان ـ حسب إنجلز ـ برز بشكل خاص عند الاغريق وعند... البوذيين (ممّا يوحي ربمّا بشكلين للجدل).

العقل «أكثر» من الفاعليات الفكرية التي نعلّمها لطلابنا في الثانوي تحت اسم طرائق الفكر وطرائق العلوم. وطرائق العلوم كما نعلّمها ما هي الا جزء، مهمّ وضروري أجلْ، لكنه ليس «سرّ» الفتوحات العلمية مثلاً وهو لا يحيط بالعمل العلمي بتاتاً. عدا عن أنّ طرائق العلوم في الوقت الحاضر تتوحّد! أمّا أن نقول لطلابنا في صفوف عليا إن عالم الطبيعيات يستقرىء وعالم الرياضيات يستنتج فهذا كلام قاصر. كل محاكمة هي استنتاج، محكومٌ بمبدأ العقل. والتجريب العلمي تابع لهذا المبدأ الفاتح. والواقع قائم بتمامه خارج الرأس، منطقاً ومادّةً وتاريخاً.

7 ـ $\sqrt{2}$

ذكرنا بعض الفتوحات العلمية، بعض فتوحات العمل الانساني. وقلنا إن وراءها دائماً مفارقة على فكرة العقل: الفتح العلمي انعتاق وخرق... أريد الآن أن أذكر واقعة شخصية في تاريخ الفلسفة: هيغل و $\sqrt{2}$.

يبدو أن هيغل الشاب اكتشف «المفارقة» أوّل ما اكتشفها على قضية $\sqrt{2}$. القضية صفعته، او الذي صفعه هو المصطلح العلمي الرياضي: «عدد غير معقول» او «لا عقليّ» irrationnal الاوروبيون يسمّون العدد الذي لا «يقايَس» او لا يُقاس (مثلاً $\sqrt{2}$، الأعداد الجذرية) «عدداً غير معقول»، نحن نسميه العدد الأصمّ.

المفروض في العدد التقايس، القياس. هذا القلم الأحمر أطول من القلم الأصفر ثلاث مرات، النسبة بين الطولين 3 على 1، أي 3: هذه هي فكرة القياس mesure.

النسبة بين الطولين آ و ب هي مثلاً 733 على 547. إنها نسبة، علاقة، وكسر. 547/733 «عدد كسري». لا شك ان هناك بين طولين محدّدين علاقة كسر. هذه مسلّمة العقل او ... العقل السليم. لكن!!

المربّع شكل هندسي بسيط جداً، مثالي جداً: أربعة أضلاع متساوية الطول وأربع زوايا قائمة. إن مربعاً معيّناً يتعين بطول ضلعه لا غير. وليكن هذا الطول 1. أستطيع أن أصل بين رأسين متقابلين، أحصل على بعد جديد هو القطر. ما طوله؟ بتعبير آخر، ما هي نسبة طول الضلع على طول القطر في مربّع من المربّعات، أياً كان؟ هذه النسبة مفهوم ينبع من مفهوم المربع. هذه النسبة ثابتة، هذه العلاقة كلية، ضرورية، مطلقة الخ. فما هي؟ كم؟

بموجب دستور فيثاغور عن المثلث القائم (ونصّه: مربّع طول القاعدة = مجموع مربّعي طولي الضلعين)، اذا كان طول كل ضلع 1، يكون مربّع طول القاعدة (قطر المربّع) 2، ويكون طول القطر المذكور $\sqrt{2}$. إن النسبة «طول القطر على طول الضلع» في المربّع هي $\sqrt{2}$. كم تساوي $\sqrt{2}$؟ نحاول تحويل $\sqrt{2}$ الى كسر، اي الحصول على كسر يساوي $\sqrt{2}$... عبثاً!

محاولتنا «مبرّرة»: أمامي طولان «محسوسان» هما ضلع المربع وقطره. ثمّة بينهما علاقة ثابتة، أثبت من جبال همالايا، واحدة في وعلى جميع المربّعات الممكنة... أمامي طولان محدّدان. أليس لهما «قياس»؟ بالأصح: أليس بينهما قياس؟... أحاول اذن اكتشاف هذه النسبة كقيمة كسرية، اي جعل العلاقة ـ النسبة كسراً بين عددين طويلين جداً... مستحيل!

أنتقل من «المحاولات» ومن الكلام الآنف والملتبس الى العلم الرياضي البسيط، الذي ـ بوصفه علماً ـ ليس «محاولات».

هناك في العلم الرياضي برهان على هذه الاستحالة، استحالة تحويل $\sqrt{2}$ الى كسر. والبرهان المذكور اسمه البرهان بالمُحال (par l'absurde) وهو أهم أسلحة الرياضيات:

لنفترض $\sqrt{2} = \frac{\text{هـ}}{\text{ر}}$، كسراً غير قابل للاختصار.

$\sqrt{2} = \frac{\text{هـ}}{\text{ر}}$. اذن $2 = \frac{\text{هـ}^2}{\text{ر}^2}$.

اذن $2\,\text{ر}^2 = \text{هـ}^2$.

الطرف الاول عدد زوجي، اذن كذلك الطرف الثاني هـ^2 عدد زوجي، اذن هـ عدد زوجي (فكل عدد زوجي مربّعه عدد زوجي وكل عدد فردي مربّعه عدد فردي، حتماً...). اذن هـ^2 زوجيّ مرتين. اذن 2ر^2 زوجي مرتين. اذن ر^2 عدد زوجي، اذن ر

عدد زوجي. بما ان هـ و ر عددان زوجيان، اذن فالكسر $\frac{هـ}{ر}$ قابل للاختصار بـ2. وهذا عكس فرضية الانطلاق.

اذن $\sqrt{2}$ (نسبة طول قطر المربع على طول ضلعه) لا يمكن ان تتعادل مع اي كسر (مهما طال حدّا الكسر، حتى لو أوصلناهما الى طوكيو).

$\sqrt{2}$ عدد غير قابل للقاس، عدد، و، غير قابل للقياس؟ «غير معقول» irrationnel! (أليس العقل قياساً؟ - لكن ما معنى قياس؟!)[3].

تسمية غريبة؟ - اولاً إنها تسمية جيّدة وضاربة، ما دامت نطرح مسألة العقل والمعقول والعقلي، ما دامت تدفعنا الى عدم استسهال الكلمة والفكرة.

$\sqrt{2}$ معقول وغير معقول، حسب المعنى، معنى «عقل» و«معقول» و«عقلي». إنها تنطوي على تناقض، على مفارقة، وعلى نفي عقليّ لموقف سابق. «فضيحة»! حلقة في سلسلة «فضائح» تاريخ علم الرياضيات، بدءاً من اكتشاف او اختراع العدد المجرّد: مفهوم العدد، وصولاً الى رياضيات القرن العشرين.

8 - عقل أعلى

لم نتكلم عن π (الحرف اليوناني «پي»: نسبة طول الدائرة على طول قطرها) وهي «العدد المتعالي» transcndant حسب المصطلح الرياضي (اي أكثر أيضاً من «غير معقول»): هنا أيضاً لسنا أمام حلم شبحيّ بل أمام فتح مفهوميّ للعالم والصناعة.

ولم نتكلم عن $\sqrt{-1} = i$، «العدد الخيالي» imaginaire، الداخل في تكوين «الأعداد المركّبة» أو «المعقّدة» وهي المجموعة الشاملة لمجموعات الأعداد التي تقع دونها وصولاً الى الأعداد الصحيحة والطبيعية و«العادية». هذا «العدد الخيالي» يجد تطبيقه في الفيزياء، الكهرباء.

لم نتكلم عن الصفر واللانهاية والمسيرة اللامتناهية نحو الصفر، عن علم تحليل اللامتناهيات، حساب التفاضل والتكامل.

ولم نتكلّم عن فعلية ذلك وواقعيته وكونيته، ولا اقول عن «وجوده»[4].

هذا كله بعيد عن المعنى المألوف لكلمة «عقل»، المعنى المتآخي مع لغة «موجود» و«غير موجود»: الأشياء موجودة، وهي تُعَدّ، وبينها روابط. يمكن ايضاً «تطوير» هذا الموقف - «علميّة»! -، ويمكن إضافة الحلم، الخيال، الشعر الخ: «انفتاح»! الفلسفة

اعتراض. ذروته هيغل (فكرة الشيء»، الصحيحة الواعية، تفترض فكرة العزل، علم التحليل اللامتناهي ينقل من «العالم أشياء» الى «العالم سيرورات او عمليات pioressus»).

هيغل الشاب يعلّق على √، «الأعداد اللاعقلية»، فيقول: سمّوها «لاعقلية» وكان الأجدر أن يتخذوها مدخلاً الى **عقل أعلى**[5].

هكذا الترجمة الفرنسية Raison supérieure في السياق المحدّد، والمعنى: أعلى من المألوف، كان يمكن ان نقول: **العقل الأحق**، **العقل الأبدأ**. الكلمة الألمانية هي Vernunft.

لو طبّقنا مصطلحات ومعاني هيغل على عنواني كتابي كنْط الأشهرين، لصار العنوانان: «نقد **الفهم** المحض»، «نقد **الفهم** العملي» (بدلاً من «العقل»).

كَنط دشّن عملية كشف تناقضات «الفهم»، وهيغل أعادها، وسّعها وجذّرها، أتمّها. تاريخ «الفلسفة الكلاسيكية الألمانية» هو تاريخ الجدل الحديث، وهو جوهرياً: كنط، فيشته، شيلنغ، هيغل (1770–1830). شيلنغ، عدا عن هذا الموقع، حمل بذرة اللاّعقلانية الحديثة: «الحدس» وأيضاً «الشرقيّة» و«الصوفيّة». موقعه في المسلسل الرباعي موقع حاسم (التحوّل من المثالية الذاتية الى المثالية الموضوعية...)، وجانبه الآخر ان يُضبَط وان يطوّع: ليس الجدل رفضاً لفكرة الحدس، او للشرق الخ. بوجه عام، إن الجدل لا يتعامل مع الأمور بـ«الرفض». وهيغل هو الذي «حلّ» مسألة «الحدس» او الرؤية.

9 ـ لوغوس وراسيو

فكرة الـVernunft الهيغلية يمكن ان تحيلنا الى اللوغوس (Logos) اليوناني = الكلمة (و «الكلمة ـ الفعل» Verbe)، العقل، الربط، وأيضاً **الروح** اي ـ في تاريخ الفلسفة ـ الروح بمناحيها المتنوعة وصولاً الى الروح الهلينستيّة، المشرقنة. بالمقابل، الروح عند الألمان (هيغل وماركس) هي Geist: انها ليست مادّة خاصة، وهي «لا تنفصل» عن فكرة العقل والمعقولية.

كلمة Verstand يمكن ان نربطها بفكرة الراسيو Ratio اللاتينية: العقل الحسابي والمعقلِن والمقايِس، العقل كتنظيم وتشريع، **كإيجابية** بالمقابل. اللوغوس والـVernunft يُضمنان فكرة نفي، سلب. Négation الجدل هو، «بحكم التعريف»، جدل النفي او النفيّة. اذن بالتالي وكنتائج: بسْط، تقدّم ونموّ، تحوّل وتعاقب، تجاوُز.

10 ـ التقدم كعقل

اوروبا الحديثة (1620–1770) تبسط العقل ـ الراسيو، تؤسس العقلانية

والتجريبيّة، تقيم فكرة الطبيعة وفكرة التقنية، تبني «العلم الطبيعي الرياضي»، علم الميكانيك... هذا تقدّم كبير. بل يجب القول، في حيثية معيّنة، ان الصاعة الميكانيكية ذات أساس جدلي بارز: دوران وتقدّم، «وحدة الدائرة والخط المستقيم»، المبدأ الذي حققه واقعياً المخترع السومري للدولاب والذي أكّده نظرياً وفلسفياً بعض رجالات عصر النهضة (ق. 15، 16).

أوروبا الحديثة (ق. 17، 18) ارتكزت على عصر النهضة وتقدّمت. بسطت وأمّت الممكن التاريخي.

غير أن **التقدّم، كلّ تقدم، هو توقيع لممكنات على حساب ممكنات أخرى هي ممكنات من وجهة نظر أكثر تجريداً وأقلّ تاريخية.** بتعبير آخر: **التقدّم، كل تقدّم، هو تقدّم وتقليص.** كشرح او إيضاح: إن الطفل في السنة الأولى من عمره يملك من **ممكنات** النطق أكثر من هذا الذي سوف يتحقق ويتوقعن ويتفعلن. فالأم، المحيط، المجتمع، اللغة القومية الخ يلعبون دور غربال يسمح لبعض الممكنات بالمرور ويمنع الممكنات الأخرى. (إن لفظ الغَيْن هو أوّل لفظ وهو «موجود - ممكن» عند جميع أطفال العالم في وقت معيّن من السنة الاولى، لكنه يُلغى في معظم اللغات). هذا المنع والإلغاء شرط للنموّ، هذا النموّ الذي هو في مثالنا تكوّن الطفل - الانسان الناطق، نشوء اللغة عند الطفل.

إن فلسفة القرنين 17 و18 نضيّع بذوراً وقضايا كانت قائمة في فلسفة العصر السابق، عصر النهضة او الميلاد الجديد.

والتقدّم المحرَز في القرنين المذكورين (1620-1770) هو نفسه يقوّض الموقف الفلسفي الذي كان إطارَه اللازم وقاعدته المقلّصة.

فالرياضيات مثلاً (تحليل اللامتناهيات، بل لنقل «رياضيات المقادير المتغيّرة» التي يدشّنها ديكارت) تحمل موقفاً جدلياً يتعارض مع العقلانية الديكارتية، ومع العقلانية بمعنى يشمل ديكارت والتجريبية المقابلة، ويتعارض مع النظرة الهندسية - الميكانيّة للكون، ومع الشيئية... أخيراً، يوجّه كنط - بنظريته الفلكية عن أصل المنظومة الشمسية - ضربة نجلاء للتصوّر «الميتافيزي والميكانيكي» للطبيعة. لاقراره بعُدم المادّة الاشتعالية (الجوهر - النار)، تبرز النظرة السيرورية او «العمليّتية» Processus، ضد النظرة الشيئيّة... قبل ذلك، بركلي أكل المادّة والأشياء، هيوم أكل السببية والمادة - الماهية Substance (ق. 18).

كنط ينقد المقولات الكبرى (الفلسفيّة، بل الفلسفية والشعبية)، يعيد طرح مسألة المعرفة من أساسها، يُعتّنها مسألةً في المبدأ، ويدشّن مسلسل الجدل الحديث، الألماني. آدم سميث يؤسس علم الاقتصاد السياسي على الشغل المجرّد، «الشغل كمحض فاعلية ذاتية بدون موضوعاته الخارجية» (حسب قول ماركس). وتنتهي الأمور، أمور الفلسفة

والعلوم والمجتمع والسياسة، أمور الأزمة العامّة.

وجملة تناقضات العصر الاجتماعية والفكرية، تنتهي الى هيغل (اوائل ق. 19).

11 ـ اللاعقلانية والوضعوية

الأزمة (ووجوب الانقلاب) التي برزت في أواسط القرن الثامن عشر وخصوصاً في أواخر القرن، انتهيت، عدا عن هيغل، الى مسارين بارزين للفكر الأوروبي في القرنين 19 و20:

1 ـ تيار مناهضة العقل:

من «شبلنغ الأخير» الى التصوّر النازي للعالم والى ما بعد الحرب العالمية الثانية (حسب عرض لوكاكش في «**تحطيم العقل**»، 4 أجزاء). الرايات التي تُرْفع هي: الحدس، الصوفية، الحياة، الوجود، النخبة، البطولة، الدورة الأبديّة، الخ وأخيرا: العِرق.

2 ـ العقلانية السابقة (عقلانية العصر الكلاسيكي، ديكارت وخلافته) تنحطّ الى وضعوية وعلموية:

التداخلات كبيرة بين الخطين. ثمة تكامل بينهما في بعض المذاهب، «توزيع أدوار وصلاحيات». بحيث يعترف «المذهب الحيوي» مثلاً بـ«العقل» ضمن حدوده ويُطلق «الحدس» و«الاندفاعية الحيوية» خارج هذه الحدود. هنا، فكرة «العقل» مأخوذة بمعناها الأدنى والذي يُحَطّ أكثر: فالعقل مع المادّة وميكانيكا المادّة، أما الحياة فهي تعارض مع هذه الوحدة. «الحياة» ضد «العقل». الزمان يقلّص الى مفهوم سيكولوجي مُبهم، الى ديمومة نفسية ذاتية. الفلسفة تُسَيْكَلَج، أي تُلغى. الأدب الفلسفي ينشر هذا المناخ في القرن العشرين: الفيلسوف برغسون والطبيب أليكس كاريل وآخرون لا حصر لهم. من المعروف ان كُتُباً كـ«**الطاقة الروحية**» و«**الانسان ذلك المجهول**» ساهمت جذرياً في تكوين عقول فلان وفلان من قادة جيل او جيلين من الشباب العربي.

12 ـ انتكاس الماركسية الى ما قبل النقد

ماذا عن مصائر الماركسية في السياق المذكور؟

إن ماركسية العالم ردّت على تيار اللاعقلانية وسقطت في ردّ فعل. ألغت مقولة «الحياة» الفلسفية: الحياة مقولة لعلم البيولوجيا. أمّا اذا تردّدت الكلمة موصوفاً او صفة عن لينين، خارج العلم المذكور، فهذا مجاز... الماركسية العامّة ـ فيما عدا بعض الاستثناءات ـ خفضت العقل الى الفهم او المحاكمة، استغنت عن النفي فكرةً وكلمةً،

لم تع وحدة المنطق والجدل، تصوّرت هذه الوحدة في صيغة «المنطق الجدلي» الملتبسة، ألغت نظرية المعرفة، و، تحت سلطات «المادية» و«المسألة الفلسفية العليا»، انتكست الى ما قبل النقد (الى ما قبل كنط)، شطبت على أفلاطون وهيغل والفلسفة، تصرّفت بمقولات المادة والسببية والماهية والجوهر وكأنه لم يكن هنالك بركلي وهيوم وكنط ولافوازيه وآدم سميث. من القتال الايديولوجي، الضروري والحيوي، ضد الخصم والخصوم، تحوّلت هي وبتمامها الى ايديولوجيا، الى آلة حرب. هذه الآلة أدّت خدمات جلّى تحت ألوية العقل والتقدم والانسان والطبقات الكادحة وحق الشعوب، لكنها فقدت أكثر فأكثر صفتها كمعرفة وكمرشد للعمل.

تحوّلت الى وضعوية، اقتصادية، آلية جدلية تقدمية وثورية... أكثرت من كلمة عقلانية بدون ان ترى ان العقل يمكن أن يُفهم بثلاثة معانٍ من المبدأ: ديكارت، هيغل، اوغست كونت.

اختارت ديكارت المصيّر «مادياً» او المنقود «مادياً» ـ لا فرق في ذلك! فما يلغى في الحالتين هو لحظة الصفر الديكارتية[6]... بل اختارت فعلياً مناخ اوغست كونت وخلافته، هذا المناخ الذي ودّع الفلسفة و«تقدّم» من العقل الى «العِلم»، اي كل هذا الذي يخلط العلم الحقيقي و«العلموية»، كل هذا الذي يرفض وحدة او هوية المعرفة النظرية المفهومية وأساسها الفلسفة. تصوّرت ان «العلمية» هي العقلانية المتقدّمة، وان الماركسية بل الايديولوجيا الماركسية الطبقية الثورية هي هي المعرفة العلمية، تبنّت قاموساً ينفخ بعض الكلمات، فرضت على نفسها وعلى غيرها قاموساً يشحن الكلمات بلا حذر، إيجاباً وسلباً.

13 ـ تعارض بين موقفين: الوضعوية والجدل

رغم أن إنجلز يوجّه كتابه الأكبر، آنتي دوهرنغ، ضد دوهرنغ الوضعوي، ويرفع ضدّه لواء الفلسفة ويدافع عن الفلاسفة الكلاسيكيين... فإنّ الماركسية لم تع إن ثمة تعارضاً أولياً بين مناخين ومذهبين وموقفين هما الجدل (الديالكتيك) والوضعوية او الوضعانية Positivisme.

هذا التعارض خيار واجب أضعه أمام المثقّف العربي (أمام مختلف المدارس الفكرية العربية) وألخصه في ثلاث نقاط:

1 ـ المذهب الوضعي هو المذهب الايجابي، الجدل هو بحكم التعريف جدل النفي (هيغل، سبينوزا، بوهم الخ والأقدمون).

«الايجابية» وتر محبّب في قسم من الفكر الاسلامي. في قسم آخر (او جانب آخر؟)، النفي يتحوّل الى نفي بمعنى مغاير، هو حسب الحالات نفي الى الخارج او طرْد Esclusion،

«نفي» لتاريخ طويل جداً او «نفي» للتاريخ الذي هو ضلال. هذه الحالة الفكرية تختلف جذرياً عن الموقف الذي وصلت اليه أوروبا بعد جهد وعناء (او لنقل عن أفضل ما في أوروبا هذه): الأرض ليست السماء، التحسّن ممكن (وواجب)، التقدّم ممكن (وواجب)، تحويل الأرض الى جنّة مستحيل. العقل الوضعي الايجابي يأخذ مكانه في إطارٍ وعلى أساس فكرة النفي الأولي... العالم جوهر واحد ومتعدّد ولا جوهر. العالم ينال الاعتراف كعالَم... بالمقابل، الفكر الاسلامي مازال يناقش العَلمانية (العَلمانية مع فتح العين) أو هو يرفضها بلا نقاش.

توجد مفارقة كبيرة بين العقيدة الدينية الأساسية وأدلجة العصور... بل وأكاد أقول: يزداد «تديين» الدنيا كلّما ابتعدنا عن الأوائل... والأوائل في الأدلجة الحاضرة لا يلهمون هذا العصر في الاتجاه الطبيعي الوحيد: **نفي وإيجابية وتقدّم.**

النفي. ستالين أسقط هذه الكلمة من الفلسفة الماركسية، مكتفياً بفكرة «التناقض». وماركسيون فرنسيون أيدوا هذا الاستغناء: حسب رأيهم، إن فكرة النفي فكرة ألمانية مبهمة، والماركسية الفرنسية ترفع، فضلاً عن راية الماركسية العلمية، راية الوضوح الديكارتي المثلثة الألوان. غير أن ديكارت هو أيضاً يستطيع أن يقول ما قاله ماركس: «زرعتُ تنّينات وحصدتُ براغيث»... لوي ألتوسير دفع القضية الى حدها الأقصى: لا لنفي النفي ولا للنفي، نعم للتناقض او بالأصح لـ«التناقض الشديد التبنين والفائق التحدّد».

وهذا البديل ـ «التناقض» ـ، في غياب فكرة المفهوم Concept، ينخفض بسرعة في الوعي الماركسي العام الى فكرة «الصراع» او لنقل الى فكرة «المكاوَنة» او «التكاوُن». هذا الجدل قديم وعالمي: **الكون تكاوُن**، وهو يعبّر عن حقيقة هامة. لكن الجديد (أرسطو ـ هيغل ـ ماركس) هو: **الكون تكوّن.**

هذا خيار راهن: فكرة «التكاون» (السجال، الحرب، الخ) لا يجوز أن تحجب فكرة التكوّن (التشكّل). لا جدوى في «تكاون» غير مؤسّس على «التكوّن».

2 ـ **التاريخية الكونتية والسبنسرية والستالينية هي فكرة التقدّم الخطّي**: من الحالة اللاهوتية الى الحالة الميتافيزية الى الحالة الوضعية الايجابية (مذهب كونت)، او تعاقب الأنظمة الاجتماعية الاقتصادية: «التاريخ يتقدّم». هذا صحيح، لكن ليس التاريخ شخصاً، أقنوماً، إلهاً، وليس التقدّم خطاً مستقيماً ولا حتى متعرّجاً، ولا حتى مع بعض الانتكاسات.

عند ماركس، لا يوجد تاريخ الاّ لأنه يوجد **منطق لواقع**. ماركس، بخلاف ستالين والذين نسجوا على منواله، يثمّن **فكرة الدائرة وفكرة الدوَران**. هذا جزء من فكرة **المنطق** ذاتها. كذلك إنجلز، وكذلك لينين الذي يتكلم عن «دائرة» و«دائرة من دوائر» (بخصوص تاريخ الفلسفة مثلاً) والذي أكّد ان نظرية **التطوّر** الجدلية، بخلاف سواها،

تتضمن بين جملة تعيّناتها فكرة العودة الى بدء ومبدأ. هذا هو نفي النفي، اللحظة الثالثة في الثلاثية (التأكيد، النفي، نفي النفي). ونفي النفي هو تركيب Synthèse. وهنا فكرة التقدّم الحقيقية التي ليست فكرة الحركة وكثرة الحركة وليست فكرة صراع ينتهي الى عدم. بدون نفي النفي او التركيب لا تقدّم بل «نوّاس» او صيرورة عدميّة.

أما الخط الحلزوني Spirale، الذي يرفع لواءه بعضُ الماركسيين ضد فكرة الدائرة (رغم أنف ماركس ولينين و إنجلز) فهو، بالأحرى والأصح، صورة تريد توحيد مفهومَي الدائرة والخط المستقيم، وليس إلغاء فكرة الدائرة. وهذه الصورة أقرب كتمثيل حسّي الى الدائرة منها الى الخط المستقيم. لها مركز Centre، نقطة ـ مبدأ هي في الوَسط.

باختصار يمكن القول إن فكرة ماركس هي فكرة «تقدّم دائري». فكرة متناقضة؟ ـ أجل وبالضبط. وهي ليست لِـ«العقل السليم» ولا لِـ«التمثيل الحسي»، شأنها في ذلك شأن «سرعة الضوء»، حسب قول هيغل، او شأن «الفراغات داخل الذرة» (لو حذفنا هذه «الفراغات» لتقلّص جبل الى حجم بناية).

3 ـ إن اوغست كونت، وقبله إدموند برك Burke، وحوله وبعده كثيرون، وباختصار إن المناخ الوضعوي والعلموي ينصف بموقف صميميّ يمكن ان ندعوه: «كُرْه المجرّد». هذا الكره يُسلطن اليوم في عقل ولغة الفكر العربي من أقصى اليمين الى أقصى اليسار: «المجرَّد» هو اللّاواقعي واللّاعلْمي... لنقل إن الواقعي والعلمي هو إذن رفض الكلّي و إلغاء المنطق.

إدموند برك يمثّل أوّل ارتداد برجوازي (1790، كتابه: تأمّلات في ثورة فرنسا وبرابان) على الثورة البرجوازية وعلى إيديولوجيا البرجوازية الصاعدة والمكافحة. سلّط هذا الليبرالي الانكلو ـ إيرلندي نقده على فلسفة الأنوار، ألقى نظراً ثاقباً على المستقبل القريب، تنبّأ بعهد الارهاب، حذّر وأنذر... كان لسان حاله ضد خط فلسفة الأنوار: لا توجد حرية، توجد حريات مختلفة او عنقات مختلفة لأقاليم ومدن مختلفة الخ؛ إن مجرّداتكم تتنافى مع الحقيقة والواقع ومع التاريخ، بل ومع العقل والطبيعة (برك يحوّل أسلحة الخصم ضد الخصم: عقل، طبيعة)، وهي ماسِحة، خطِرة، مدمِّرة... برك مدرك ان التجريد او المجرَّد مبدأ مساواة، «تسوية». خلاصة موقفه: المجرَّد؟ يا للهول!

كذلك أوغست كونت في معرفة الواقع الفيزيقي: الضوء، الصوت، الخ حقائق من جنس ذاتها، مقولات ـ أصناف لا تقلّص او لا تُقْهَر Irréductibles. إنه ضد المجرّدات اي فعلياً ضد المجرّدات الأكبر. إنه ضد الكليات الكبرى: مادّة، حركة، سببية الخ. في علم البيولوجيا، الخلية «تجريد ميتافيزيقي».

كذلك المنطق الضمني الذي مفاده: الرجل موجود، المرأة موجودة، الأمة موجودة، او الطبقة، او الجماعة الدينية، الخ، أما الانسان فغير موجود، العالم غير موجود،... الّا في اللغة او الكلام، حيث يُستحسن الإكثار من هذه الكلمات:

إنسان، عالَم الخ. الانسان كلمة، العالم سطوح، إنه جمع لأقسام، الواحد جمع لكسور حُوّلت الى واحدات.

هذه الواحدات تختلف بين مدرسة وأخرى، بين مفكر وآخر. لكنها دائماً جواهر. هكذا مثلاً الحضارات موجودة، الحضارة لا. الانسان الصانع والعاقل منفيّ. في هذه الحال، يجب إلغاء صيغة الفرد من القاموس. واذا كان الفكر العربي السائد لا يطالب بهذا الإلغاء، فلأنه يتصوّر أن صيغة المفرد اللغوية ترتبط بالذرّات، اي بتصوّره الذرّي (المادة ـ الكمّي) للواقع او بالأصح لجواهر الفكر المذكور.

كذلك ـ في مستوى «علمي» رفيع ـ منطق لوي ألتوسير: لا وجود للعمل كعامّ، ولا وجود لمفهوم التناقض. الوجود هو للممارسات النوعية الأربع او الخمس، والوجود هو لـ«التناقض المبنيَن المعقد الفائق التحدّد».

هذا بالضبط عكس موقف هيغل وماركس والفلسفة. الطبيعة، التاريخ، العمل، الشغل، القيمة، المادّة الخ مجرّدات كبيرة.

الطاولة والكرسي والحصان الخ ايضاً مجرّدات. مجرّدات «مادية» (إن جاز المصطلح!) «صغيرة».

إن عالم اوغست كونت و إدموند برك ومدارس الفكر العربي الراهن عالم أصناف ـ جواهر: المقولات أصناف، بدون ان تكون مفاهيم وحدات، العالم عالم مادّة وامتداد وخريطة، بدون عمودية، منطقُ الحدود ينحطُ الى منطق شمول اتساعي Extension بلا تضمّن Compréhension حاكِم، يصير منطقَ أرسطوطاليس السكولاستيكا الوسطوية ضد منطق أرسطو الحقيقي، الهوّية Identité خاصٌ بلا عامّ، خصوصيٌ ضدّ الكلّي والمفرد معاً بالتلازم... لنذكّر ضدّ هذا المنحى في المعرفة ان كلمة Compréhension الفرنسية تعني التضمّن (تعيّنات المفهوم) وتعني الفهم او التفهّم: **التفهّم هو ذلك التضمّن**. إنّ تضمّن المفهوم (بأبسط معنى) هو الذي يحدّد ويقرّر شموله او «اتساعه».

العقل؟ **إن المبدأ العقلي يذهب بالضبط ضد المذهب الجوهري والجواهريّ**. الجواهر نسبية دوماً. فكرة الجوهر مفيدة وضرورية حين تعي حقيقتها وحدودها. بدون ذلك، إنها تشوّه مبدئياً ونهائياً المعرفة، ولا سيما المعرفة التي تريد إرشاد العمل، والتي اذن تستهدف (بوصفها المعرفة **وكغاية أخيرة** للمعرفة) العيانيُّ، الكلُّ، الحالةُ المفردة (الحالة العربية اليوم، حالة هذا البيت الصغير او هذا العالم الكبير، الخ). مذهب الجوهر يُلغي هذه المعرفة.

فكرة «الجوهر» وفكرة «الوجود» شريكتان. أيها أسبق: الوجود ام الجوهر؟ هذه المسألة، التي أذاعتها الوجودية الأدبية المعاصرة، تغطية للشراكة. **المبدأ العقلي موجّه ضد هذا الزوج المذهبي الذي يلغي الصيرورة والتاريخ**، التكوّن **والتقدّم**.

وحدة العقل، بمعنى الفلسفة الكبير، يستطيع ان يعطي الفهم والمحاكمة والعقل السليم الخ حقهم. وحدة الموقف الجدلي، الذي يدين المذهب الوضعوي من المبدأ، يعطي الموقف الوضعي الايجابي مجاله الصحيح. وحدة العقل ـ الروح يُنصف العقل ـ الحساب.

14 ـ خيار لا بدّ منه

الخيار جدل ام وضعوية؟ لابدّ من مواجهته حين نتكلم عن العقل والعقلانية، او عن «تحديث الفكر العربي» او عن «التقدّم». يخطىء الماركسيون في تضييع هذه القضية وضمّ الوضعوية الى المثالية او الى «المعسكر الثالث المزعوم» في «المسألة الفلسفية العليا» (مادية ام مثالية؟). هذا القاموس باطل لأنه يجهل حدوده، ويلغي قضية الجدل. لينين في مقاله «**حول الجدل**» (1916) يقول: «إن الجدل هو نظرية المعرفة لهيغل وللماركسية».

كثيراً ما يقال ان كونت هو هيغل فرنسا (كلاهما عقل موسوعيّ الخ). في هذه الحال، لنقل: اذن كونت هو كاريكاتور هيغل. الفلسفة (آنذاك) ألمانية، هيغل فيلسوف، كونت خريج البوليتكنيك، محبّ للمعرفة العلمية والعلوم الدقيقة. وهذا الحبّ الايجابي يصدر نواهي وتحريمات على المعرفة العلمية: فالسعي الى معرفة بنية المادة ميتافيزيقا، ومحاولة معرفة العناصر (بمعنى علم الكيمياء) التي تتألف منها الكواكب والنجوم ميتافيزيقا، وكذلك حساب الاحتمالات، وتطبيق الرياضيات في البيولوجيا الخ... ميتافيزيقا أي رجم في الغيب ومُحال وعبث... اذ من أين لنا مثلاً ان نكتشف عناصر الأجسام (الأجرام) الفلكية؟ هذا يناقض العقل السليم العلمي... بعد سنوات قليلة من إعلان كونت، اكتشفت العناصر، وبدون مغادرة الأرض، بفضل الموشور الطيفي اي بالعقل المسلّح بأداة[7].

لا هيغل ولا ماركس ولا أحد معصوم عن الخطأ والغلط والضلال. غير أن الأخطاء المعيّنة تفصح عن موقف. وجملة أخطاء كونت تفصح عن حقيقة الموقف الوضعوي. هذا الوضعوي والعلموي يؤمن أنه متقدم على العقلانية الديكارتية والتجريبية الكلاسيكية والفلسفة الحديثة بلهَ القديمة! دوهرنغ يسخر من أرسطو بصدد السلعة. ماركس يثمّن أرسطو ويَسخر من دوهرنغ. ولا بأس من التذكير بأن ماركس خريج فلسفة ودكتور فلسفة وليس دكتوراً في شيء آخر.

ثمة التباس أساسي في مذهب هيغل الذي هو المثالية المطلقة المتساوية مع الجدل. وهذا التساوي او التلازم ليس من قبيل الصدفة. وليس من قبيل الصدفة ان الماركسية ترتكز على هيغل. لا على ديدرو، ولا على ديموقريط، ولا على فويرباخ (مهما تكن أهميته كجسر محدّد تاريخياً؛ وأدْوَم ما فيه صلتُه بهيغل وبالفلسفة الكبرى!)، بل على هيغل.

فويرباخ لا حضور له في رأس المال، في جدل الطبيعة وآنتي دوهرنغ، في المدخل (1857) والمقدمة (1859) الخ. أما هيغل فله «كل الحضور»! إن ما ينقله ستالين من شواهد عن إنجلز بصدد «الطريقة الجدلية المادية» منقولٌ عن إنجلز نفسه عن هيغل. حتى الأطروحة القائلة: «لا مادة بلا حركة ولا حركة بلا مادّة»، والتي يتصورها الوعي الماركسي الشعبي خلاصة للمذهب «المادي الديالكتيكي» هي عند هيغل.

ثمة خطأ، ثمة باطل عند هيغل؟ ـ وثمة إساءة فهم، موقف غير إيجابي، امتناع، قبْلية مناوئة من جانب الماركسية ولينين بدءاً من سنة 1914 يسير صعوداً ضد هذا المناخ «الماركسي»... مسيرة تلازمه حتى النهاية في سنة 1923 وتطويها الماركسية التالية.

15 ـ سقطات وضعوية: إنجلز، لينين

لقد تأثرت الماركسية كلها، بما فيها ماركسية الأعلام الثلاثة، الى هذا الحدّ او ذاك، بالمناخ العام الذي أحاط بها... وما أريد أن أذكّر به (وقد قلت بعضه او معظمه قبل نيف وعشر سنوات، في كتابات سابقة) هو ان لإنجلز ولينين أخطاء من نموذج وضعوي.

مثلاً، إنجلز، في معرض حديثه عن «العلاقات الخارجية للثورة الألمانية» الديمقراطية (1848–1851)، توقع اندثار القومية التشيكية واندماجها في القومية الألمانية المتقدمة، تحت سلطة التاريخ الاجتماعي والحضاري. فيما بعد، كافح إنجلز بشكل ممتاز ضد التشوّه الاقتصادي للمادية التاريخية، أكّد على القوميّة والأمة.

مثلاً، إنجلز، في **جدل الطبيعة** (نهاية مقاله ضد «علماء الطبيعة في عالم الأرواح»)، قال إن العدد الخيالي (1ـ) ليس له وجود الّا في رأس او مخيّلة بعض علماء الرياضيات.

التعليق الذي تلته من رياضي عربي هو منظور الى الواقع كأشياء Choses، هذا صحيح، منظورا اليه كبنى Structures هذ خطأ هذه لغة الرياضيات.

لغة الفلسفة: إن سقطة إنجلز ضد «كرامة $\sqrt[2]{-1}$» سقطة مناهضة لأطروحة واقعية العقل ومعقولية الواقع، التي... أعطانا عنها انجلز نفسه بسطاً رائعاً، فلسفياً وسياسياً في الصفحات التي افتتح بها كتابه عن لودفيغ فويرباخ والتي ذكر فيها، بين أمور أخرى، ان هناك فرقاً في قاموس هيغل بين «موجود» و«واقع».

لنذكر أيضاً ان الفلسفة الماركسية لم تُنصف الرياضيات، أقصد: لم تنصف نفسها في هذه الحيثية. ستالين، في عرضه الأشهر والمقتضب، تجاهل الرياضيات. هذا التجاهل جزء من تفويته للطريقة.

المثل الثالث هو لينين ونسبية آينشتاين.

في اعتقادي، إن كتاب لينين **المادية والتجريبية النقدية** (1908) يجب أن تعاد قراءته نقدياً في ضوء كتابات لينين الفلسفية في 1913 و1914–1916 وحتى 1923، وفي

ضوء الفلسفة بوجه عام... هذا الكتاب ساهم في إضفاء الصفة «الفيزيقية» على المذهب المادي الماركسي: ضد «المثالية الفيزيائية» تصير الماركسية كأنها مذهب «مادية فيزيقية وفيزيائية»، ويكون علم الفيزياء في اواسط القرن العشرين مسرح حرب بين ايديولوجيتين ومناظرة بين حزبين في علم الفيزياء، أحدهما مادي جدلي يضم ماكس بلانك ولوي دوبروبل (وتلميذه الماركسي الفرنسي فيجيه) والفيزيائيين السوفييت والآخر مثالي وميتافيزيائي يضم نيلس بوهر وهايزنبرغ وربما آينشتاين. هكذا المرآة الماركسية حتى أواسط الخمسينات (مجلة الفكر La Pensée شاهد بين شواهد)... هذه المرآة تحطمت (كشاهد، أذكر كتاب كيدروف عن «وحدة المنطق والجدل ونظرية المعرفة المادية»).

لكنني أترك هذه القضية وأمسك بموضوع لينين وآينشتاين. هذا الموضوع لُمِس مراراً على يد ماركسيين فرنسيين وسوفييت. في الجانب السوفياتي، لا «نقد» على حدّ اطلاعي. في الجانب الفرنسي، يختلف الأمر بطبيعة الحال.

قيل ان لينين ليس عالم فيزياء ولا يدّعي ذلك وان العمل السياسي منعه من متابعة موضوع النسبية او الاطلاع عليه رغم بروزه ثانية وتعمّمه في الدوائر العلمية حوالي سنة 1920 (بعد انتقال آينشتاين من «النسبية الضيقة» الى النسبية المعمّمة»). ونقل سوفياتيون عبارة ثمين من لينين تقول ان الرجعية ذو المثالية تحاول استثمار أفكار آينشتاين، عالم الطبيعيات الكبير.

ثمة شيء مفقود في هذا الملف. ليس المهم، في الحاصل، ان لا يكون لينين عالم فيزياء، فهو قائد ثوري وفيلسوف حقيقي يؤكد فكرة المنطق، بل يؤكدها مباشرة من أجل قضية مصائر العالم والثورة العالمية (ولا سيما الثورة في «الشرق القومي والثوري»). وربما لا حاجة له ولنا الى علم الفيزياء، من أجل ذلك. بل الذي يهمني هو أن هيغل، قبل لينين بقرن وقبل تطور الفيزياء ومختلف العلوم، ذهب، في مناظرته الفلسفية (أي بالمضاربة النظرية، Spéculation) ضدّ كنط، حول مقولتي الزمان والمكان، الى القول بما معناه ان هذين الاثنين لابدّ انهما أيضاً واحد. اي انه تجاوز ثنائية الزمان والمكان (او الفضاء، المجال، الفراغ، حسب الحالات، في الترجمة العربية لـ Espace)[4].

القصد؟... ردّ الاعتبار لفكرة الـ Spéculation (المضاربة النظرية، النظر أسّ2. إن من يرفض النظر أسّ2 يخذل النظر!) والاعتراض على... مانوية ووثنية القواميس البشرية.

بدون ذلك تبقى فكرة العقل مَخصيّة.

من آينشتاين الى... الهند. تقول الرواية:

في أواخر القرن 19، دخل عالم فيزيائي انكليزي شاب على شيخ هندي فيلسوف. وسأله: اذا كان في يدي حجَر واذا قذفته نحو اللانهاية فوصل اليها، الى اين يكون قد

وصل؟ أجابه الشيخ: يكون قد عاد الى يدك: فابتسم العالم الأوروبي واستأذن وانصرف. وابتسم مضيفه... بعد قليل، ثبّتت المعرفة العلمية كلام الفيلسوف الشرقي... هذا ما تقوله الرواية. اللقاء المذكور حدث في وقت بلوغ العلموية ذروتها قبل انفجار الأزمة: آنذاك ذهب بعض العلماء الى حد التصريح بأن المعرفة العلمية الفيزيائية أكملت الشوط، اكتشفت الحقائق الجوهرية، ولم يبق شيء ذو أهمية للبحث والاكتشاف. الأزمة (أزمة المعرفة العلمية، الانقلاب، الثورة الدائمة) بدأت بعد قليل. ثم... الفلسفة الماركسية شردت. ودُعي هذا الشرود «المادة الجدلية».

الشروح

1 ـ بخصوص «الفكرة المطلقة» الهيغلية:

1) يعتقد الرأي العام الماركسي ان موقف أعلام الماركسية «الفكرة المطلقة» الهيغلية هو الرفض المطلق، القطعي والنهائي.

2) فعلاً هذا ما توحي به معظم أقوال الاعلام المعنيين.

3) لكن هناك أقوال لهم بالعكس وهي ذات دلالة ضاربة.

4) بالأساس، هيغل هو الحقّ.

5) لا يمكن ان «نستغيم» فلسفة ماركسية بدون مواجهة هذا «الاشكال»، بدون طرح هذه المسألة وحلّها. فهذه المسألة يمكن اعتبارها النقطة ـ البؤرة في ابتعاد الماركسية عن الجدل.

هذا ما آمل العودة اليه وعرضه منهجياً خارج هذا المقال.

2 ـ وكتاب الـ Common sense، تأليف توماس بين Payne، عبّر من ايديولوجية الثورة الاميركية والى حد كبير عن فلسفة عصر الأنوار عموماً (ق. 18) بما فيها حقوق الانسان.

ديكارت أيضاً رفع هذا اللواء («الحسّ السليم هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس») ضد الأرستقراطية والعصور الوسطى، لصالح فكرة الطريقة او المنهج. ولصالح الشعب او العامة او لنقل: لصالح «الأميين»، «الناس»، «النوريم»، ضد «شعب الله المختار» أيّاً كان (رجال دين، رجال علم، فلاسفة، سلف صالح).

3 ـ فكرة القياس Mesure هي أولاً فكرة نسبة، تناسب. وثانياً (او عاشراً) هي القيَاس بالمتر والسنتيمتر او الغرام والكيلوغرام او الدرجات.

كلمة «قياس»، في التاريخ العربي والفكر العربي المعاصر، تستحق دراسة نقدية متأنية.

1) فهي تستعمل للمشابهة او المقارنة Analogie: قياس حالة على حالة، محاكمة متسيّبة الى حد لا بأس به، قياس خاص على خاص بدون عودة واعية وحاذقة الى عامّ.

2) وتُستعمل للاستنتاج الأرسطي Syllogisme (استنتاج خاص من عام).

3) وتُستعمل لفكرة القياس الرياضية (والفلسفية) Mesure التي كثيراً ما تنحط في التعليم الى قياس بالمتر والسنتيمتر بعيداً عن فكرة التناسب والنسبة التي يمكن بدورها أن تغرق في الكمّ الاصطلاحي ضدّ المنطق والحقيقة.

على سبيل المثال، يمكن ان تسأل رجلاً مثقفاً: هذا الماء (أ) حرارته 30 درجة وذاك الماء (ب) حرارته 10 درجات، كم مرّة حرارة الأول أكبر؟ ـ ثلاث مرات!!! يمكن ان تتابع المداعبة: واذا كانت حرارة الأول 10 درجات وحرارة الثاني خمسة تحت الصفر؟

العالم قياس. هذا القول يمكن أن يُعطي معنى صحيحاً وعميقاً ويمكن ان يعطي معنى متشابهاً... وزائفاً.

كذلك العمل الانساني. انه، حسب هيغل، قياس Syllogisme. هدفه مقرّه.

4 ـ هل الصفر موجود؟ هل اللانهاية موجودة؟!

اذا طرحت هذا السؤال او هذين السؤالين على «العقل السليم» الماركسي يمكن ان تنال الجواب التالي: الصفر غير موجود (بديهية!)، اللانهاية موجودة (بديهية أخرى): فالعالم لانهاية له في المكان والزمان وفي العمق الفيزيقي للمادة (تجزئة الذرة وتجزئة الالكترون او الكهروب والفوتون او الضوءون الى ما لا نهاية).

هذه «الفيزيقية» المتناطحة الى ما لا نهاية لتلك فكرة اللانهاية وفكرة الصفر وفكرة الواقع.

1) الجدل اعتراضي على «موجود» وعلى الثنائي موجود / غير موجود، التابع للإدراك الحسي («هذه الطاولة موجودة أمامي والطاولات موجودة في أماكن كثيرة، بخلاف العفاريت).

2) الصفر «أكثر» من موجود: انه فعليّ، واقعيّ. وثمة فرق كبير «موجود» و«واقع».

3) أما عن اللانهاية، فالمقصود به هو «اللانهاية في المتناهي»، الفكرة التي أمسكت بها فلسفة عصر النهضة (ق 15).

ولنردّد وراء ماركس (بصدد علم الاقتصاد) ووراء انجلز (في جدلية الطبيعة) قول الايطالي غاليلي: «تلك اللانهاية التي لا تبلغها الأشياء في التقدّم، تبلغها في الدوران»... (الصفر واللانهاية فعليان لأن العالم سيرورة).

5 ـ انظر جورج لوكاكش، تحطيم العقل، الجزء الأول، الفصل المخصّص لـ«المنظور الفنومينولوجي للأنتلجنسيا الحديثة»، الحقيقة، بيروت.

6 ـ أنا أشك، أنا أفكر. اذن انا كائن، أي أنا كائن كنفس مفكرة. اولاً

هذا هو منطوق الـ «أنا أفكر أنا موجود» الديكارتية.

الوعي الماركسي العامّ يستغني عن هذه «الخالية»، يأخذ على هذا المنطق صلته بالعقيدة المسيحية، يتبنّى ـ ضدّه وكبديل عنه! ـ المنطق التجريبي المادّي (أنا أحسّ، أدرك، أرى ← الأشياء، العالم الخارجي). مع ان المستغنى عنه هو منطلق كل الفلسفة الحقيقية منها تغيّرت الأشكال. الصلة بالعقيدة المسيحية ليست مأخذاً. الزوج المفهوميّ الماركسي مادّة / فكر. طبيعة / روح. ذو صلة بالثنائي الديني التوحيدي (مادة / روح، جسد / نفس).

ولا ريب ان هناك علاقة بين منطلق ديكارت وثلاثية أوغسطين (أنا أشك، أنا أؤمن، لكي أفهم) او موقف أوغسطين (اذا كنت أخطىء فأنا كائن)... يمكن مناقشة هذه العلاقة (يمكن إعطاؤها تأويلات مختلفة). لا يمكن «نفيها» او إنكارها.

رجوعاً الى مستويي «الفهم» و«العقل»، المصطلحين الهيغليين:

اذا قلتُ «جان هو إنسان» فهذا الحكم فهمٌ. اذا أضفت: ما هو خاص هو عام، اذنْ وحدة او هويّة الضدّين (فالخاص والعام ضدّان) فان هذه الاضافة تنقلني الى مستوى «العقل».

اذا قلتُ «هذه طاولة»، فإن هذا الحكم هو إدراك صحيح ورؤية حقيقية. اذا أضفت: لكن «طاولة» هي كلّي (عامّ) و«لا يوجد في اللغة سوى الكلي»، أكون تجاوزتُ الى العقل او الجدل في أسّ المعرفة التي هي معرفة الواقع.

7 ـ عن اوغست كونت، أفكاره ونفوذه، انظر جان وال Wahl: لوحة الفلسفة الفرنسية (ص. 90-97، من الطبعة الفرنسية، غاليمار، Idées، 1962). ـ توجد ترجمة عربية.

الوضعي (الايجابي) هو الحقيقي (الواقعي، الفعلي)، المفيد (النافع)، الأكيد (اليقيني)، الواضح (الدقيق، المضبوط) كونت يربط ايضاً الايجابي بفكرتين أخريين هامّتين: العضوي والنسبي ـ هذا يعطينا لائحة الكلمات المرموزة في قاموس كونت (وبالتالي وبالمقابل لائحة الكلمات الكريهة المسكنة والتي يمكن تنويعها...).

الحالة الوضعية تهيمن عليها فكرة الارتباط، فكرة القانون، طاردةً فكرة السبب.

علم البيولوجيا يجب ان لا يتعدى الأنسجة والأعضاء، الخلية تجريد ميتافيزيقي. ـ عالم اوغست كونت «العلمي» عالم العمومي ضد الكلي والمفرد بآن معاً وبالتلازم.

علم السوسيولوجيا يجب ان لا يتعدى العائلة.

لا فائدة من دراسة النجوم البعيدة، كونت يطرد علم الأستروفيزياء (الفيزياء الفلكية).

يطرد كذلك دراسة أصل او منشأ المجتمعات.

حسب رأيه، الحالة الوضعية لم تنتصر بعد تماماً. مازال هناك حزب تقهقري تسيطر عليه التصورات اللاهوتية وحزب ثوري تسيطر عليه التصورات الميتافيزيقية. علموية كونت وخلفائه المتنوعين دخلت في التاه الفكري لأقصى اليمين، مثلاً شارل موراس. هذا الزعم العلموي ولوه في التصوّر النازي، الى جانب الأسطورة. كونت (1798-1857) جاء مباشرة بعد عصر هيغل وهالة الثورة الأوروبية. ألقى «دروس الفلسفة الوضعية» في السنوات 1830-1842.

اثر تأثيراً كبيراً، متنوعاً ومديداً، في فرنسا، انكلترة، الولايات المتحدة، أمريكا الجنوبية، البلاد العربية، تركيا الخ، على الايديولوجيا العامة، على طريقة المعرفة، العلوم، وعلى الفكر السياسي في اليمين واليسار. دولة البرازيل الناشئة تبنّت شعاره «النظام Ordre والتقدّم».

يمكن اليوم ان نرصد تأثيره في نعوات المفكرين العرب، في «الفئة المثقفين»... إنه «صاخ».

8 ـ لصدنت عبارات: «الزمان ـ المكان» (آينشتاين)، «غزو الفضاء»، «المجال الحيوي» للألمان (هتلر)، «المتدسة الفراغية».

كلمة «مكان» تعني أيضاً «محل» (محلّ): مكان، أماكن.

كلمة «مجال» يمكن ان تجمع المكان والزمان، المجال المكاني والمجال الزماني. ـ في لغة البيروني الخلاق «عصره (ق. 11)»، العامية، ترد «محل»، («محل آذان المشاء») بمعنى «وقت». كذلك اليوم بصيغة الفعل: «حلّ» بمعنى «آن الأوان».

لا لغة (لغات) الاوروبيين ولا لغة العرب. الفصحى، ولا غيرها، يجوز ان تكون نموذجاً و«مثلاً أعلى» ومعياراً. الفكر يجب ان يستخدم اللغة واللغات. اللغويون يجب ان يخرجوا من دائرة فقه اللغة، حتى لا يخلطوا الفكر واللغة والعروبة، يجب ان يُقلعوا عن اعتقادهم الضمني او الصريح بأن واجبهم هو «متابعة» عمل الأوائل، «مواصلة» الخط. يجب أن يدركوا ان الأوائل أسسوا وبنوا علماً، اي علماً محدوداً، اي أنهم انطلقوا من / في واقع لغوي يتخطاه حكماً، يجب ان يعوا ان المتابعة الحقيقية تقتضي العودة الى الأساس وما تحت الأساس وما حوله، الى الواقع ومعقوليته، الى الانسان والعصر: عندنا.

هذا من الجهة العربية.

في جهة ثانية، الجهة الماركسية العالمية. لا بأس من أن أنقل ما يقوله عالم الرياضيات الفرنسي الكبير (الماركسي) لوران شفارتس L. Schwartz في محاضرة بعنوان الماركسية والفكر العلمي (دفاتر مركز الدراسات الاشتراكية، العدد 11-11 مكرّر، 1-15/11/1961). شفارتس يتكلم عن مسائل في تاريخ العلوم، عن الفيزياء ونظريات الضوء، ثم عن الرياضيات والواقع، عن الرياضيات والمنطق. فيقول (ص. 25):

«بالحقيقة، لم يكن للماركسية تأثير حقيقي على هذا التطور. بل أعتقد ان معظم الماركسيين، بوجه الإجمال، أساؤوا فهم معنى هذا التطور. إنجلز سخر من الأعداد المعقّدة ومن الهندسات غير الاقليدية بوصفها خيالات Fantaisies رياضيين. ولنذكر ان الاعداد المعقدة والهندسات التي فيها للمكان بُعدٌ مختلف من ثلاثة، يعمل بها جميع الفيزيائيين اليوم».

□ □ □

الـجَـدَل

مجلة الوحدة العدد (18) ـ 1986

1 ـ جدلان: شرقي، يوناني ـ أوروبي

ثمة جدلان ممكنان. كلاهما موجودان وعالميان.

مع ذلك، وبعد تأكيد عالمية الجدلين، وبعد الاعتراف بما للمصطلح من صفة الحقيقة وما له من صفة الاصطلاح والتجاوز على الحقيقة (فكل مفهوم هو «قَطْع»)، سأدعو الأول «جدلاً شرقياً»، والثاني «جدلاً يونانياً ـ أوروبياً».

الاثنان أعطيا نتاجات عظيمة. الاثنان يعملان بالمفاهيم، الاثنان فكر، وفكر فوق المألوف.

«شرقي» كمصطلح ذي حقيقة يحيل، جوهرياً، على ما وراء العرب شرقاً، كما يحيل أيضاً على ما قبلهم في الزمن التاريخي. هذا الشرق الكبير عالم متنوع وعوالم مختلفة، حضارات عريقة، شعوب كبيرة جداً، أديان وفلسفات وكوسموغونيات، فنون وتقنيات وعلوم: فالصين مثلاً متفوقة، في التكنولوجيا كمجموع مجرَّد، على أوروبا حتى القرن السابع عشر. ولو حذفنا ـ في الذهن ـ الشرق الأدنى القديم، العرب المسلمين، الصين والشرق الخ، لانعدمت «أوروبا». اليونان، الرومان، أوروبا الوسطوية والحديثة، أخذوا مادتهم الحضارية والثقافية من الشرق، لاسيما من الشرق القريب، «الشرق الأدنى»، ومن العالم غير الأوروبي عموماً. العقيدة الدينية نفسها جاءتهم من عالم العرب، من «آسيا الصغرى» و«افريقيا الصغرى»..

العالم صراع. العالم صيرورة: هذا قوام التصور الجدلي. إنه الفباء الجدل. يمكن أن ننوّع الألفاظ:

1 ـ صراع، تناقض، حرب، سجال، «تكاوُن»، تضادّ، تعارض، تناف..

2 ـ صيرورة، حركة، تغيّر، تحوّل، تطوّر... تبقى الفكرة «الأساسية» واضحة عبر

اختلاف الألفاظ واختلاف دلالاتها الفكرية (الممكنة والفعلية، الواعية وغير الواعية). وهي كما قلنا، قوام كل تصوّر جدلي للطبيعة أو الكون أو العالم.

ان فكرة الحركة والتغيّر، ولادة وفناء كل الأشياء، **الصيرورة** بهذا المعنى «العام»، فكرة قديمة جداً. حسب فلسفة الطاو الصينية Taoïsme ، «والحياة يوم». هذه الأطروحة «الوجودية» واردة، بأشكال شتى، في جميع الحضارات والثقافات. بدون مبدأ «فناء الأشياء»، كل فكرة الجدل تسقط منأساسها. لكن الجدل، لاسيا الحديث، لا ينحلّ في هذا الأساس، بل له أساسات أخرى، وهو يريد **معرفة الأشياء**، ويتساءل عن «الشيء» و«الواقع».

يمكن القول أن النقيض الجدلي الكاريكاتوري للجدل كفلسفة **وكمعرفة هو كراتيل** Cratyle ، الذي شهره أفلاطون، والذي هو أحد تلامذة هيراكليت، أي أحد متابعي خط الحركة والصيرورة. كان كراتيل يمتنع عن إعطاء أية إجابة على أي سؤال مكتفيا كاجابة عامة بتحريك إصبعه الصغير قاصداً: كل شيء يتحرّك، يتغيّر، لا شيء ثابت. هذا وجهٌ للأمور. كما قلنا: ان المفهوم مِدحلة تسوية، هوية عادمة أو ماسحة، والمطلوب أن تفعل فعلها المِدحليّ في البداية (لا النهاية). مفهوم كراتيل هو الحركة، التغير... لو أن الخط العريق انتهى عند مبدأ ان «الحياة يوم» أو الى عملية كراتيل الفلسفية لما كان يكون ثمة فلسفة أو ثمة معرفة...

في قسم كبير من الذهن الشرقي (ومن ذهننا الحاضر)، ليس الأزلي والعابر ضدّين نقيضين متباعدين بل يمثلان كواحد لا انفكاك فيه، كوجهين لعدمية واحدة! يمكن التعبير عن هذا الواحد العدمي ــ في مستوى التاريخ ــ بصيغة ثوران السرمدية وسرمدية الثوران. هذا السرمدي بديلُ «الثابت» وهذا العابر بديلُ «المتحوّل»، بديلَين ساقطين.

اذا قالت الماركسية «الأمة مقولة تاريخية»، يفهم قوميون معادون وماركسيون موالون أن الأمة مقولة «عابرة»، بدلاً من أن يفهموا تكوّناً وتشكلاً وثباتاً وتجاوزاً وانتهاء، وأن يتركوا الأزلية السرمدية لله وحده. في الماركسية الصريحة (مثلاً عند ستالين): الأمة مقولة تاريخية ثابتة، مستقرة. لا أزلية ولا عابرة... و«التاريخية» ــ هذه تعني فكرة التشكل أو التكوّن ضدّ فكرة العرق والأصليّة والانتفاخ الوجودي لمعين أصلي في الزمن الفارغ المجرّد والأرض ــ الصحراء...

العالم صراع. هذه الحقيقة لفتت الأنظار منذ زمن قديم (مثلاً صراع حيوانين من أجل البقاء أو رجلين في العصر البدائي). العالم صراع بين اثنين ــ والتصارع بين متصارعَيْن في حلبة المصارعة صورة ضارية و«نموذج» مثمر جداً في كتاب كلاوسفيتس عن الحرب الكتاب الذي يعمل، واعياً بالمفاهيم ــ العالم صراع بين اثنين...، بين مبدأين وجوديين، الين واليانغ في الصين، بين إلهين (خير وشر، نور وظلام) في المزدائية. كل من الجدلين الصيني والفارسي بناء روحي وفكري كبير. التأبير الصيني

(الوخز بالإبر) ذو صلة بالين واليانغ: صراع وتوازن، المزدائية تربي الارادة: واجب الانسان ان يساعد أهورا مازدا (إله الخير) ضد أهريمان (إله الشر).

بالمقابل، في الدين التوحيدي (أي دين الإله الواحد والخالق) الطرف الثاني مخفّض: إبليس ليس إلهاً. هذا فرق كبير الى جانب فروق أخرى...

فكرة الصراع فكرة عالمية، شرقية، ثم يونانية، وغربية. وهي تتخذ أشكالاً مختلفة.

بين مشهد صراع حيوانين مفترسين في الغابة (أو مشهد ذئب يفترس غزالاً بعد مطاردة طويلة، أمامنا على شاشة التلفزيون) و«الصراع من أجل الحياة» عند داروين، «المسافة» كبيرة. ثمة في الموضوعة الداروينية، بالمقارنة مع المشهد الآنف، **توسُّط**. يمكن بصدد الفكرة الداروينية ان نقول: «**مفهوم**»، «**كلّية مفهومية**»، وجملة. صراع الأنواع من أجل البقاء ليس مستنفداً في صراع مباشر بين حيوانين ولا في حرب نتخيّلها بين جيشين بيولوجيين. في الموضوعة الداروينية عرضٌ وضرورة، بيئة، وتحوّلات صغيرة متدرّجة، تكوّن أنواع وفصائل وانقراض أنواع على امتداد ملايين من السنين... ثمة هنا عالَم معقّد يُقبض عليه بتوسّط الفكر والمفهوم، أي بوساطة وشفاعة العقل، في مسيرة نقدية ومسألِيّة على الدوام. الذهاب في العمق ذهاب في المعقولية. هذه المعقولية تكشف صيرورة هي تطور وتقدم وتاريخ.

2 ـ هيراكليت، أفلاطون، أرسطو: الفلسفة

يمكن أن نفترض أن الجدل انتقل من فارس الى اليونان ـ كذلك، من جهة أخرى، مذهب الذرة / الفراغ الفينيقي، واليونانيون، بعكس الفينيقيين، أكّدوا الحدّ والنهاية: ذرّات أخيرة لا تتجزأ Atomes ـ الجدل الفارسي انتقل الى هيراكليت: فكرة الثنائية فارسية، فكرة النار فارسية، فكرة الصراع فارسية. ما الجديد؟ ما التحوّل الذي يحدثه هيراكليت والذي سيأتي بعد هيراكليت، على يد... «**الفلسفة**» (بارمنيد، أفلاطون، الخ)؟

لعله يجب أن نلاحظ أولاً بأول أن الصراع عند هيراكليت يُرفع، يصير إلهاً ـ هو الإله Polemos (= حرب، سجال... ومنها مساجلة، مناظرة Polémique) كأنه إله ومفهوم قائم فوق المادّات والماهيّات. والوجه الآخر هو الضرورة أو القدَر أو القدَر ـ الحظّ (eimarménè باليونانية)، وهو أيضاً ظهور أو بروز فكرة **اللوغوس** (الكلمة، كلام، و، عقل، ربط، بل ورياضة، حساب). لوغوس logos سوف تعطي logique (منطق) وloi (قانون). اللوغوس شرع متعالٍ، سنّة فوق البشر، «كتاب» أعلى، فاعل في العالم ومهيمن: على هذا الخط سوف تعمل فلسفة وفلسفات.

والذي يلفت الانتباه هو أن هيراكليت (أو الخط الذي دشّنه هيراكليت) يعمل بثنائيات حسيّة بسيطة وشعبية، ويتعامل معها فلسفياً، ونظرياً، اذن يتعامل معها

كفِكَر ومُثُل ومفاهيم: البارد والساخن، الفوق والتحت، المليء والفارغ أو النادر (فارغ؟ نادر؟ ـ مادية العالم؟ وجود وعدم؟). هكذا الفلسفة اليونانية: محسوسيّات ـ مفهوميّات. ـ حسب المعرفة المفهومية: البارد والساخن ليسا مادتين، ماهيتين، جوهرين... ولا الفوق والتحت، ولا المليء والفارغ حسب الفيزياء المعاصرة. المفهومية تلغي «الثنائية الجوهرية»، و«المثنوية» ـ. هكذا بارونيد وزينون الايلي، السوفسطائيون، الريبيّون، الخ. هكذا أمثلة السهم الذي لا يتحرك، أخيلّس الذي لا يلحق السلحفاة، وهكذا صلع الأصلع: متى نقول عن الرجل الذي يفقد يومياً شعرتين من رأسه إنه أصلع؟ («تحوّل الكم الى كيف»، تدرّج وقفزة)... الاغريق فلسفوا أبسط الأشياء أو العمليات الحسيّة. كانوا في الفلسفيّة والشعبية بعيداً عن العلموية، أو عن «العلمية» و«الدينية»...

التراث الماركسي يضم هيراكليت الى «المادية الفلسفية»، يجعله جدّ «المادية الجدلية». أليس هو القائل «العالم لم يخلقه أي إنسان ولا أي إله، إنه نار تشتعل وتنطفىء أزلياً»؟ لكن من أقواله أيضاً: «منزل الانسان، هو الله»... ربما يجب أن يُضم أولاً الى هذا الذي يُرجم تحت اسم مذهب «المثالية الموضوعية»، مذهب واقعية المثل الذي يكون «نقيضه» الواعي والايجابي مذهب **مثلية الواقع**. لعلّ هيراكليت يمهد بطريقته الخاصة، في الفلسفة ـ متابعاً خطأً شرقياً قديماً ـ لإله من نوع آخر، ضد الآلهة، ضد الإحيائية ـ الأرواحية Animisme. هذا الإله الناني لا يأتي الى العالم من اليونان ولا من «الشرق» بل من العرب أو «الساميين».

من هيراكليت (سجال، لوغوس، قدر ـ قضاء، صيرورة) ننتقل عبر فيثاغور (الكمّ) وبارمنيد (الكينونة أو الوجود Etre، «الواحد والكل») الخ الى أفلاطون: **المُثل**.

أفلاطون يفصل المُثل، التي هي في حقيقتها كليات الواقع ومفاهيم المعرفة، وبالتالي يؤسّس المعرفة بهذا المعنى وفي هذا المستوى (المعرفة واعية نفسها، الفكر الواعي ذاته كفكر) ويؤسّس ضلال المعرفة الذي هو نسيان الجانب الآخر: الكليات أسماء، المفردات اللغوية ليست كائنات مفردة، لا فوق ولا تحت، أمامنا... إنها كليات الكينونة، بالأصح، ان الذي يتصور أن المفردات اللغوية (مثلاً «الحصان» أو «الطبقة العاملة» أو «الشعب») هي جواهر مفردة موجودة تحت وليس فوق، لا يتبع الضلال الذي أسسه أفلاطون (المثالية الفلسفية)، بل هو غارق في ما ـ قبل أفلاطون، في اللافكرية، في عالم الأشباح، في الفكر الرمزي ـ الشيئي والخليط المدرجيّ (مادة ـ روح)، إنه دون الفهم ودون الرؤية: فهو يرى مُثُله مباشرةً في الواقع، اذن هو لا يرى. هذا وارد في نقد (مجحف بمعنى ما) يوجّهه هيغل وفويرباخ للشرق الأدنى القديم و«الفن الرمزي» و«الرؤية المنامية».

من أفلاطون الى أرسطو، من مذهب المثل الى منطق الشكل والمفهوم (منطق

الهوية، تلاحم الخطاب، العقل والفهم والرؤية).. من أرسطو وأفلاطون الى هيغل، أوغسطين، ديكارت، الخ، الخ. الكائن مادة وشكل، الواقع واقع وممكن، التحوّل تغيّر الشكل، الكون تكوّن، التاريخ تنويعة على الأشكال الخ و... فكرة التقدم. هذا مسار كبير في مضامينه، متنوع في «مواصلاته»، غني في إشكالاته و إشكالياته، في صراعاته وتناقضاته. حقيقته تتخطى الكرونولوجيا الخطية. وهو تاريخ الفكر، «عنصراً» في جملة دنيوية تتخطاه بوصفها واقعاً وتاريخاً.

3 ـ الهندسة، المنطق، الحقيقة.

اليونان نقلت الشرق الأدنى القديم. أخذت منه جميع المواد وصنعت شكلاً جديداً. وهي تعي ذلك وتعترف به.. الأساطير اليونانية شاهدة على هذا الاعتراف المزدوج مع اعتزاز مزدوج: تتلمذاً وأستذةً. أخذاً وعطاء. الفروق بين السابق واللاحق عديدة. يهمّنا هنا الفرق التالي:

الهندسة علم «قياس الأرض» Géométrie. هكذا الأصل. والهندسة المصرية أعطت نتاجات عملية لا مثيل لها. لكن لنلتفت الى وجه نظري أكثر. الهندسة المصرية «وصلت» الى «دستور فيثاغور» محصوراً في المثلّث القائم الذي تتحقق فيه العلاقة 3، 4، 5: اذا كان التناسب بين طولي الضلعين 3، 4، كان طول القاعدة 5. اليونانيون جرّدوا، حذفوا النسبة 3، 4، ألغوا هذا التمييز. قالوا: «في كل مثلث قائم.. »، لا فرق (= سواسية، لا مبالاة) في أن يكون طولا الضلعين 3، و4 أو 1 و7، تحرّروا من «الجمالية» الحسيّة، دفعوا فكرة الصورة ـ الشكل في هذا الاتجاه الغريب.

وراء تلك الهندسة الاقليدية نعلّم تلاميذنا: سواء كانت الرسمة صحيحة أو لا، البرهان يجب أن يكون صحيحاً، لا يهمّ صواب ودقة الرسمة، المهمّ صواب البرهان الذي له بداية ونهاية وطريق هو تسلسل، والأفضل، اذا طلب منكم البرهنة على وجود ثلاث نقاط في استقامة واحدة، ان ترسموا الرسمة بما يخالف ذلك قليلاً، دفعاً للاختلاط بين البداية والنهاية، بين المعطى والطلب، بين المقدمة والنتيجة.

والشعب اليوناني كان «بفتح فاه» مندهشاً أمام كلمة «كل» في «كل مثلث...». كذلك «كل جسم مغطس في الماء...»، مبدأ ارخميدس.

لا أحد يستطيع أن يرى كل جسم، جميع الأجسام، ولا ربع الجميع. بل لنقل: ثمة فرق بين «كلّ» و«جميع»!.. استقراء؟ ـ لا. بل عقل ومعقولية...، مسلّمة المنطق: الانجاز الكبير... و، الحقيقة كقيمة عليا، الاستقراء تابع لهذه المسلّمة المنطق، الحقيقة، تلازمها. يجب أن يُفهم «الاستقراء» بالمعنى اللغوي العربي. قراءة الواقع البالغة الصعوبة، استنطاق الواقع، السعي الى الحقيقة. المنطق علم الحق le Vrai. الحقيقة! يُروى أن العالم الفرنسي الكبير هنري بوانكاريه Poincaré كاد أن يكتشف

نظرية النسبية قبل آينشتاين. وقف أمام الباب، لم يدخل... الفرق بين الرجلين؟ لعلّه في ما يلي مثلاً:

بوانكاريه «مواضعاتي» يؤمن أن الحقيقة العلمية هي «مواضعة» أي اتفاق بين العلماء، اصطلاح يسهّل العمل العلمي الخ. آينشتاين الذي كان شاباً مغموراً يؤمن أن الحقيقة هي الحقيقة. وكل الفلسفة الحقيقية، بما فيها الريبية الفلسفية، خلال نيف وألفين من السنين، تؤمن بالحقيقة، كمبدأ وكغاية، كمسعى (حتى مع الطعن: الريبة الفلسفية). أي هي تؤمن بالحقيقة ضد «المصلحة» و«العملي» و«المنفعة»، ضد «الرأي» والأهواء، ضد «الاتفاق» و«الإجماع» وما شابه. كوبرنيك أو نيوتن أو آينشتاين على حق رغم أنف الإجماع السائد. وهم على حق بالضبط ضد هذا الإجماع، أي هم على حق في المعارضة بين موقفين محددين أحدهما «الإجماع» المعنيّ. بوانكاريه عالم رياضيات كبير جدا، عالم في الهندسة والهندسات (الاقليدية وغير الاقليدية)، في الفيزياء الخ. آينشتاين، التلميذ على مقاعد التعليم الثانوي، غرق في مسائل الهندسة الاقليدية. افترض أنه لا يعتقد أن هذه «اللعبة» التي تستهويه هي «لعبة منطقية» بلا واقعية أو حقيقة. شاباً، نشأ فلسفياً على قراءة هيوم وسبينوزا وأرسطو وبركلي الخ...

عمليات الهندسة الاقليدية في صف الكفاءة تدريب ممتاز من أجل تكوين العقل، الموضوعية، الضرورة. «كل من هذه المسائل هي اذن بمثابة نظرية أو دستور؟»، هذا ما يسأله التلميذ الذكي، والمعلم الذكي يجيبه بلا تردد ولا حنبلية ألفاظ: «نعم، بالتأكيد»... هنا، لا مجال لـ«الحرية» بين مزدوجين. العالَم. ليس على كيفي وكيفك وكيف فلان ولا حتى 4 مليارات فلان. وهنا الحرية بلا مزدوجين! انها وعي الضرورة. الحرية انضباط. و«المصداقة صرامة وتعفّف» (أرسطو).

ان إحدى مزايا الماركسية ومآثرها أنها لم تلغ المطلق، لم تحلّ الحقيقة في قول شهير ومبتذل من نوع «كل شيء نسبي»، وأنها ميّزت مستويات وجوانب، ميّزت مثلاً «الحقيقة من وجهة النظر الاقتصادية الشكلية ــ القطعية والحقيقة من وجهة النظر التاريخية، الكلية» (إنجلز ولينين بصدد الثورة الفلاحية، ولنقل: بصدد الثورة القومية أيضاً).

اذا قسمنا المذاهب الفلسفية، وراء كتاب مدرسيّ فرنسيّ جيّد، الى «دوغماطيين» (= أنصار الحقيقة: ديموقريط وأفلاطون، الخ، وغالبية الفلاسفة) في جهة وريبيين ولا أدريين وبراغماتيين في جهة مقابلة، يصح أن نضع الماركسية الواعية في الصفين. لكن يصحّ أيضاً أن نجمع كل المدارس الفلسفية في جهة والبراغماتية و«ما حولها» في جهة، وفي هذه الحال تكون الماركسية في الصف الأول، مع أفلاطون وديموقريط وديكارت وهيغل وكنط وهيوم والريبية الفلسفية والسوفسطائية الفلسفية الخ. ضد وليم جيمس وبعض الآخرين. الماركسية الواعية «دوغماطية» (و«رياضية») و«ريبية»، دائماً.

4 ـ الكلّي

الذي حققه الفكر اليوناني هو الانتقال الواعي الى الفكر والفكرية. بمبدأ الكلمة (اللوغوس) والحدّ والمفهوم. هذا الانتقال متابعة لسابق وتطوير وارتقاء الى حالة جديدة. الجدل اليوناني ـ الأوروبي جدل مفهومي. المفهوم لا يتطابق مع «شيء»، وهو يرتبط بعلاقة. «المنطق البرهاني» تابع لهذا المبدأ وجزء من هذا الجدل. العلم الرياضي المحض جانب ملازم وتابع. وهذا الجدل المفهوميّ كان (صار فيما بعد) أساساً لفكرة التاريخ وفكرة التقدّم اللتين ارتكزتا من جهة أخرى على دين الإله الواحد Monothéisme.

اذا اتخذنا هيراكليت مرجعاً لفكرة الجدل (الديالكتيك)، أمكننا القول من هيراكليت يستطيع الفكر أن يذهب في أحد اتجاهين:

1 ـ شرقاً، تحت ألوية الوجود، الجوهر والجواهر، المادات والماهية. و، الكون «تكاوُن» هذا الذهاب رجوع.

2 ـ غرباً، تحت ألوية الفكر، والشكل، المفهوم، الحدّ. و، الكون تكوّن. هذا الذهاب تقدّم.

المفهومية، المعقولية نفي للجوهرية الماهوية، «الشيء (مثلاً هذا الكرسي) جملة تعيّنات كلية، ليس جوهراً»، في هذه العبارة يمكن أن تختزل القضية.

«اللغة العربية لغة الضاد». هذا كلام جيّد. أما اذا تصورتُ بعد ذلك أن الضادّ (هذا الحرف، هذا الصوت) خاص بالعربية دون سواها، عندئذٍ أكون انتقلتُ من الكلام الجيّد الى الخصوصية ـ النوعية، الى الوجودية ـ الجوهرية والى اللاعقل، بموجب مصادرة ضمنية.

مصادرتي الصريحة بالعكس: اذا كانت الضاد موجودة في النطق العربي، أي عند جماعة من البشر، في لغة من لغات بني آدم، فلا بدّ أنها موجودة في بضع لغات أخرى، في كثير من اللغات (في ما لا حصر له من اللغات لو كان عدد اللغات في العالم لا حصر له). والا فإن العالم بلا عقل أو عقالة أو معقولية.. بعد هذا «التخمين»، أذهب وأسأل عالماً باللغات، عارفاً مختصاً، فيقول لي: الضاد موجودة في لغة شعب كذا ولغة قبيلة كيْت الخ.

اذن، لا يوجد للغة العربية أية «خصوصية»؟؟

ـ 1) لا يوجد للغة العربية أية خصوصية اذا كنتم تقصدون بالخصوصية خصوصية عنصر أو جانب أو شيء يكون «ملْك يمين» العربية. 2) يوجد للغة العربية خصوصية أو بالأصح مفردية أو تفرّد أو فرادة، شأنها في ذلك شأن كل لغة حية (أو ميتة: أي حية في الماضي). وفرادة لغة من اللغات هي فرادت (ككل أو جملة Totalité). هذا «الجمع» غير ذاك وغير ذلك. وهو حيّ لأنه «جمع»، كلّ. واذا حُلّ العالم الى «عناصره الأخيرة» فإنه عندئذٍ يتساوى وينعدم.

5 ـ «الميتافيزيائية» والتجربة ـ الدوغمائية

الجدل كطريق فكر وطريقة معرفة يتعارض مع التجربية ـ الدوغمائية.

الماركسية السائدة أذاعت المعارضة بين الجدلية والميتافيزية واعتبرتها معارضة بين «طريقتين». هذا كلام ملتبس وباطل. المعارضة الآنفة هي، أساساً وبالأصح، بين **تصوّرين للطبيعة أو العالم**. وقد اشتملت في عرض ستالين ومقلديه على باطل لا بأس به. ستالين يلغي الدائرية ويلغي نفي النفي بل ويستغني عن النفي. بدون فكرة الدائرة والدائرية، التصور المادي والجدلي للطبيعة مُحال...

من جهة أخرى. إنّ المعارضة بين التصوّرين الميتافيزي الميكانيكي والجدلي للطبيعة، المعارضة التي شهدها إنجلز، هي، عند إنجلز، معارضة بين «**عالم أشياء» و«عالم عمليات أو سيرورات** Processus». مع ذلك، فقد ظلت الماركسية في علم الفيزياء متمسّكة بالنظرية الجسيّميّة. أخيراً، ان بول لانجفان (وهو من أكبر فيزيائيي القرن العشرين ومن أهم شيوعيي فرنسا)، الذي كان قد دافع طويلاً عن النظرية المادية ـ الجسيمية ـ الميكانيّة، انتهى الى الطعن بهذه الفكرة ـ الجُسَيْم Corpuscule ـ المستمدة من الادراك الحسّي للأجسام بالتوسيع المتجاوز («جسيم» تصغير «جسم») والتي يمكن أن تكون قد أصبحت عقبة أمام تقدّم علم الفيزياء، هذا ما ينقله عنه ابنه جان لانجفان، في محاضرة صدرت قبل نيف وعشرين سنة.

بول لانجفان يؤكد التمسّك بالـ Déterminisme (التعيّنية، مذهب التعيّن أو التحدّد)، لا بالميكانيّة أو الجسيمية.

لنقل أن هذه الكلمة Déterminisme ـ التي يترجمها البعض بـ«الحتمية»، والتي توحي لـ«العقل السليم» بهذا المعنى (محتوم، حتمي) عند الفرنسيين أيضاً ـ يجب أن تعاد الى أصلها اللغوي الذي هو Terme, Détermination أي: حدّ، تحديد، تعيين، عندئذٍ يكون معنا: حين تكتمل التعيّنات تقع الواقعة. طالما لم تكتمل التعيّنات، الواقعة لم تقع بعد، الحاصل لم يحصل. اذن، **وحده الواقع (الذي وقع) محتوم**. ما لم يقع فهو ليس محتوماً، يمكن أن يكون مرجحاً بنسبة تزيد كثيراً عن 99,99٪، احتمال عدم وقوعه لا يزيد مثلاً عن 1 من «10⁵⁰» (واحد وخمسين صفراً)، لكن ليس ثمة «حتمية» مطلقة، تامة، 100٪، قبل الوقوع. هذا ما تشرحه فيزياء الأجسام («دروس الأشياء»!) اليوم بأمثلة مؤسَّسة جيّداً ندعوها ـ استفزازياً ـ «معجزات». مثلاً معجزة فلان من العلماء، وسأسمّيها هنا «معجزة الطاولة».

هذه الطاولة قاعدة على الأرض. لا يمكن أن تتحرّك، أن ترتفع فوق الأرض،

بسبب الجاذبية، جاذبية الكرة الأرضية. الطاولة هامدة... هذا صحيح، شرط ان لا يتخطى حدوده. فالقضية لها وجه آخر: في المنطق الآنف، حذفنا حركة كتيلات Molécules الطاولة، ومعنا حق: ملايين الكتيلات تتحرّك دائماً، وحركتها عشوائية، وبالتالي يُحيِّد أي يُبطل بعضها بعضاً في مستوى الجسم ـ الطاولة. «الطاولة هامدة».. لكن حقنا غير مطلق، ماذا لو اتجهت نسبة معينة من كتيلات الطاولة في نفس الاتجاه (مثلاً الى فوق) في لحظة معينة؟ عندئذ، تكون هناك قوة مقابلة لقوة الجاذبية الأرضية. وبعد عقبة محددة (معلومة، يحسبها الفيزياثيون) تغلب تلك القوة قوة الجاذبية فترتفع الطاولة، هذا الاحتمال صغير جداً جداً (ويحسبه الفيزياثيون في كل حالة)، والأرجح ترجيحاً كبيراً أننا سوف نموت جميعاً قبل أن نشاهد طاولة ترتفع. لكن مَنْ لا يعرف هذه «المعجزة». من يرفض هذا النظر، إنما يضع نفسه «خارج علم الفيزياء». هذا ما يشرحه كتاب من كتب سلسلة «العلم للجميع» السوفياتية... ان المعرفة العلمية لا «تنفي» العشوائية، بل تعترف بها، لسان حالها: قوننة العشوائية. الماركسية السوفياتية في زمن ستالين كانت تنبذ الاحتمالية. والذهن العربي مازال في معظمه بعيداً عنها، غارقاً في «الآلية» + «الإعجاز».

«الآلية» هذه جزء من الطريقة التجريبيّة ـ الدوغمائية التي لها مرتكزات شعبية وطبيعية في الحياة، في العمل الانساني، في المعرفة العلمية، لكنها تتمذهب، تَسْتَطْلِق، وتتصوّر أنها هي العقلانية والعلْمية الخ. إنها المألوف والسائد في الفكر العربي لاسيما السياسي.

التجريبية ـ الدوغمائية تبدأ بـ«الواقع» وتنتهي الى «تبخيره» (تبديده) في مجرّدة أثيرية تسميها «القانون» أو «الجوهر» الخ. هذا الجوهر يمكن أن يكون حسب الحالات:

1 ـ «صراع الطبقات» (مثلاً، في دراسة التاريخ العربي أو الحاضر العربي أو الحاضر، العالمي، تنتهي الى «صراع الطبقات»).

2 ـ «الرأسمالية» (مثلا في دراسة بلد من بلداننا تنتهي الى «الخلاصة»: بلدنا مجتمع رأسمالي أو برجوازي، ويا للقبح!).

3 ـ «الأمة»، «الصراع القومي»، «الصراع الثقافي»...

4 ـ الجاذبية (الكون جاذبية)، المادة والحركة (العالم مادة وحركة وربّما التاريخ كذلك!).

الجدل عكس هذا الطريق المألوف... إنه يؤكد على التباس فكرة «البدء بالواقع». لا أحد يبدأ بالواقع، كل يبدأ مسلحاً بكلياته (واحداهنّ «الواقع»). الواقع الذي ندعي البدء منه هو اختلاط ذاتي ـ موضوعي. الجدل يتخذ الواقع غاية أخيرة لعملية المعرفة، يعي في المبدأ الفرق بين الواقع والمحسوس، بين الواقع والمباشر، بين الواقع والظاهر ويستهدف الواقع كجملة لها منطق وذاتية وحياة.

بما أنه يبدأ من الصفر ليتقدم بالحدّ والحدود في عملية إنشاء الجملة فهو لا يستجد لأي حدّ، بما أنه يصل الى الواقع كجملة، الى الحالة المفردة (مثلاً الوطن العربي اليوم، هذه المدينة أو القرية أو الحارة، العالم في عصر معيّن) فإنه يستطيع أن يؤشّر، في اللوحة ـ الجملة، على «حلقة حاسمة» أو «فرق دقيق» أو بؤرة التقاء تكون هي «الرافعة» للعمل.

الطريق الأول ـ المألوف ـ عاجز عن إرشاد العمل بشكل صحيح. وهو بالحقيقة لا يرشده في الحاصل الفعلي، العمل يُسلّم للتجريبيّة (والبراغماتية) والنظر ينحطّ الى كلام ودعاية.

هذا ما يفرض قوله هيغل وماركس، وهذا ما تفرضه التجربة العربية والعالمية في عصرنا. لكنه يرتكز على شيء قديم هو: «الفلسفة»، فكرة «المفهوم» الواعية، فكرة المعرفة ـ الطريقة. كل مرحلة في «البسط» تتابع وتنمّي وتبلور وتحقّق اتجاهاً أو بذرة أو جانباً «موجوداً» في مرحلة سابقة.

6 ـ نظرة على نموذج

في أية «مرحلة» يعيش الوعي العربي المعاصر؟ الاجابة صعبة، الحالات متنوعة، كلمة «مرحلة» (ذات الحظوة الكبيرة في قاموسنا الحالي) غير مناسبة.

التجريبية ـ الدوغمائية، الوضعوية، العِلموية، الخ قائمة عندنا ومزدهرة فوق أساس من الوجودية واللاعقل، هذا يعطي نتائج مختلفة في الفكر العربي اليوم. الذهن مشدود نحو اليقين، يبحث عن يقين، فوق قاع من أشباح الصيرورة والتحوّل والزوال، التي يمكن أن تستمد تعزيزاً إضافياً من تطور العلوم في عصرنا. «المتحوّل» يأكل «الثابت»، لكن الثابت الحقيقي في الذات المعادية لعالم وعنه كأشباح هو «الشعور» الذي قد يكون «ثورياً» وقد يكون محافظاً، قد يُسمى عقلاً، وقد يوضع كضدٍ للعقل، وقد يكون مع المادة أو ضدها، في تشكيلات مختلفة حسب الحالات.

ولئن كان أفلاطون والفلاسفة ينشدون بينهم ويجدون ثابتهم في الفكر والعقل والمنطق مقابل الأحاسيس والشعور، فالأمر بالعكس عند شوقي ضيف مثلاً. هنا: «المادة لا تفنى» اذنْ «الأجسام كذلك»، لكن هذا يعني ان «الثابت» هو «عالم الشعور والأحاسيس»، «الحقائق النفسية الكلية» والتي «هي حقائق دائمة»، «حقائق الشعور المطلقة الثابتة»، بعكس «عالم الفكر والعقل»، الذي «هو كل يوم في شأن»، «قوانينه قابلة لأن تصبح باطلة» و«غير ذات موضوع»، و «حقائقه زائلة».

بما أن القارىء قد لا يصدّق وقد لا أصدق معه، بما أن القارىء يعتقد، وهو مبرر في اعتقاده، أن في هذا الكلام مبالغة وتحاملاً، وبما أننا أمام موقف أنموذجي، وبما أن كل نظرية في الشعر والأدب والفن، وكل نظرية في الجمالية أو اللاجمالية، تفترض ضمناً أو بشكل صريح غنوزيولوجية أو أونطولوجية، نظرية معرفة ورؤية للوجود، وبما أن هذه النظرية أو الرؤية يصرّح بها على نحو حادّ في هذه الصفحات من كتاب

الدكتور شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر (دار المعارف بمصر 1969 ، ص 78-79، ص 85..)، بمناسبة شعر الزهاوي. «العلم في شعر الزهاوي». لذلك يجدر بنا أن نتوقف عند هذه الصفحات.

باختصار، العلم هو العلم Science ، الشعر هو الشعور. لا شيء آخر. في العلم، شوقي ضيف يكتشف تناقضا منطقيا عند الزهاوي: «لا أدري كيف قال «لا جسم الا ويفنى بعد أزمنة» فمن «القواعد المعروفة في الطبيعة أن المادة لا تفنى»! ! (ص 78). ضيف يعرف العلم Science ، لا يعرف الفلسفة ، لا يعرف العلم Savoir . إنه «يعرف» علم الكيمياء، يجهل علم المنطق، و يجهل جهله. بما أن المادة لا تفنى، اذن هناك أجسام لا تفنى، أو – من يدري؟ «ليت شعري»! – الأجسام عموماً ومبدئياً لا تفنى!

ولعل الشعور جسم، لعل «عالم الشعور والأحاسيس» هو الأجسام والمادة. أو العكس (قلب «المبتدأ» والخبر)، في هويّة لا تنفكّ. فهو الثابت والكلي والمطلق الذي ينشده الشاعر الحقيقي.

«وهذا هو الذي يجعل موقف الشاعر دقيقاً حين يترك عالم الشعور والأحاسيس الى عالم الفكر والعقل، لأنه يترك الشيء الثابت فينا الى الذهن وعالمه. وهو كل يوم في شأن. وليس ذلك فحسب. فانه يتناول مسائل وقوانين قابلة لأن تصبح باطلة وتحل محلها قوانين أخرى، وحينئذ تزول كل قيمة لشعره، لأن قوانينه التي بشر بها انتهت، ولم يعد لها موضوع قائم، أو بعبارة أخرى أصبحت غير ذات موضوع» (ص79).

«أليس يتجدّد العلم دائما؟ أو ليس يطلع علينا العقل كل يوم بجديد قد يلغي إلغاء حكماً أو نظرية ضخمة سابقة» (ص85) – من يدري؟ لعل آينشتاين ألغى نيوتن إلغاء! ولعل الالكترون ألغى الذرة والأشياء إلغاء!.. ما لا يُلغى هو الشعور والأحاسيس لا إلغاء ولا نصف – إلغاء!

وشوقي ضيف يتساهل مع فن الشعر، فيقبل المزج بين المملكتين، و ينصح «الشاعر حين يتعلق بالعلم أن يمزجه بالحقائق النفسية الكلية، لأنها حقائق دائمة، ولا تتغير على شاكلة ما نرى في حقائق العلم من تغيّر وتحوّل دائب مستمر. والشاعر الممتاز هو الذي يستطيع أن يقوم بهذا الصنيع، بل هو الذي يستطيع أن يحوّل العلم نهائياً من حقائقه الزائلة الى حقائق الشعور المطلقة الثابتة» (ص 85)!!

المنبوذ في هذه القسمة العادلة هو كلية الأساس: الروح Esprit ، الوجدان Conscience (وعي، ضمير) الخ، اذن التملك... العمل... في هذه الحال، لا مكان للشعر، للفن. لا مكان لغوته، شيكسبير، المتنبي، المعري الخ، ولا لشعراء اليونان الذين ذكر ضيف بعضهم بطريقة وأحكام لا مجال لتناولها هنا.

وضعوية حديثة + «شرقية» قديمة = عالم بلا حقيقة. الحقيقة الوحيدة هي الشعور والمادة.

شوقي ضيف يلغي فلسفة الطبيعة باسم العلم، يلغي القديم باسم الحديث، والحديث باسم الأحدث المتسارع الحداثة. بالمقابل، هناك نظريات ومواقف في الفيزياء الفلكية المعاصرة تُعيد الى نظريات أو أفكار وردت في الكوسموغونيا الهندية قبل ألفين من السنين أو أكثر. لا أعتقد أن هناك عالماً واحدا في العالم يشارك منظّر الأدب العربي تصوّره عن العلم وتطور العلم..

هنا، ان رفض الجدل (ورفض فكرة التناقض والصيرورة كباطل) يبرز مباشرة كرفض للمنطق الشكلي أو الصوري بالمعنى الأبسط والأكثر ابتدائية، هذا المنطق الذي ينكشف هنا بقوة عن أنه هو منطق الهوية، منطق المفهوم والفهم. آ هي آ، المادة هي المادة، الأجسام هي الأجسام، آ ليست غير آ، بين آ وغير آ يجب الخيار، لا ثالث، لا خلط، ثمة ــ مثلاً ــ فرق بين المادة والأجسام. لأن «كل الأشياء مختلفة» لذلك مبدأ الهوية. هذا هو المعنى حسب هيغل وأرسطو.

وليس فقط «المادة» و«الجسم» مختلفان، بل المادة (المفهوم الواحد) و«الجسم» ــ «الأجسام» متقابلان، متعارضان، ضدّان... مع هوية الضدين.

المادة لا تفنى = الأجسام تفنى. البشر ــ الأجسام والجبال والأقمار والشموس الخ فانيات = المادة لا تفنى. «المادة باقية، الشكل يتغير»، الأشكال تتغير = المادة باقية، الفناء تغير الأشكال: هكذا فلسفة الطبيعة، هكذا مادية الأقدمين وسبينوزا ولاهوازيه وفويرباخ. هذه الوحدة أو الهوية ــ التحول، الصيرورة.

والذي يتناقض، الذي يخالف منطق الهوية وتلاحم الخطاب، هو الدكتور شوقي ضيف. بالأصح انه يبقى دونه دون منطق الفهم والمعرفة، قبل المحاكمة والفهم Verstand، قبل هذا الذي أسسه الفكر اليوناني حسب قول هيغل. شوقي ضيف يبقى في الاختلاط، اللاانفصال، أشباح الرؤية النامية. وليس من الانصاف أن نضم هذه الرؤية الى الجدل الشرقي، أو لعله يجب القول انها حدّ أخير ممكن: عملية كرابتل أو مبدأ «الحياة يوم»، الوجه الآخر للأزلية السرمدية الصائرة هنا عالم الشعور والأحاسيس، الثابت والكلي والمطلق وهلمجرا، المرتبط ارتباطاً بالمادة والأجسام. واقع شوقي ضيف هو «عالم الشعور والأحاسيس»، «الشيء الثابت فيناء»، و«حقائق العلم الزائلة» = «التحول الدائب المستمر المتوالي»..

ان الذي ينتفي هنا هو **العالم كعقل والصيرورة كعقل.**

بمعنى ما كل الفكر البشري جدلي، ديالكتيكي لكن ثمة فرق بين ديالكتيك المفاهيم وديالكتيك الأشباح. أو لنقل: هناك حدان ــ طرفان ممكنان في حياة الذهن الجدلي هما ديالكتيك المفاهيم وديالكتيك الأشباح. الديالكتيك بالمعنى الحصري، هو منطق.

اليونانيون اخترعوا المنطق، حققوا هذا الخرق، متابعين في ذلك خطاً عريقاً في تاريخ الانسان العاقل، خطاً متنوعاً في تاريخ الشرق والحضارات والثقافات وفي تاريخ

ما قبل «الشرق». وان كل شيء عظيم إنما يُخترع أكثر من مرة على هذا السلّم الصاعد: العقل، الجبر، مقولة العمل، المجتمع المدني، فكرة الانسان... مثلاً الجبر اخترعه الخوارزمي والعرب، واخترعه من جديد بعدهم بقرون فييت مؤسساً علم الجبر الحديث «نهائياً» (مع المزدوجين)، واخترعه البابليون ثم يونانيو الحقبة الأخيرة. لكن اخترعه أيضاً وأولاً الانسان صاحب اللغة، الكائن الجابر.

أن يضع أحدٌ منا ثابت الشعور والأحاسيس مقابل زوالية الفكر والعقل هذا انتكاس كبير عن الفكر العربي والعقل العربي كما برزا وطفوا في فترة ماضية من تاريخ الانسان، هامة ومديدة وحاسمة.

وقد يفكر القارىء، وأفكر معه أن هذه السقطة من شوقي ضيف سقطة استثنائية وقعت خارج ميدانه الحقيقي، بمناسبة «العلم في شعر الزهاوي»..

غير أنني أعتقد أننا ازاء حالة ذهنية وفكرية وروحية تتخطى شوقي ضيف وميدانه ـ وميدانه يخدمها ـ حالة لها صفة العمومية والتفشي، تكمن وتنام تارة، تظهر وتبرق تارة أخرى، ومن الممكن والواجب معاينة أشكالها واتجاهاتها. غني عن القول أن اشارتي في الحاشية الأولى الى كتاب أدونيس «**الثابت والمتحول**» ليست معاينة نقدية أو دراسة منهجية لهذا الكتاب.

ولا اشارتي الى سعيد عقل والى الأشكال الأخرى (غير اللبنانية) للعروبية الشبحيّة الحاضرة، أو إشارتي في مقال سابق الى صاحب «نقض أوهام المادية الجدلية»، الخ الخ. ثمة قواسم مشتركة وقاع مشترك لهذه المواقف المتنوعة والمتكاونة في «ساحة الشعور» و«أعماق اللاشعور»، عدا عن ساحة الفكر والنشر. وليست «المادية الجدلية والتاريخية المعروضة» أي المنقودة هنا، منهجياً الى حد كبير، بعيدة عن القواسم المشتركة والقاع المشترك. أرادت شيئاً حديثاً بدون جذره، نتيجة وذروة بلا أساس، جدلاً وصيرورة وتناقضاً وتقدماً وثورةً الخ بلا المنطق، أو لنقل باختصار: أرادت جدلاً ليس المنطق.

و إن «العلاج» ـ فكر المفكرين ووعي شعب وثقافة عامة ـ ليس بتاتاً في الركض وراء آخر منجزات العلم والعلوم. المطلوب هو **التأسيس** الذي يحمل معه «التحديث الصحيح». هكذا **القضية**.

المطلوب بعث روحي وفكري شامل فعلاً، أي له أساس.

العلوم كيان داخل كيان أكبر منه هو الفكر النظري المفهومي: فلسفة ـ علم ـ علوم. وهذا الكيان الأكبر جزء بل، و بمعنى ما والى حد ما، أساس مموقع في كيان أكبر منه هو الروح.

لكن من العبث واللاعقل أن نتصور أن هذا الكيان الأكبر ـ الروح ـ يمكن و يجب أن يكون أساسه العلم Science، من الحماقة أن نتصور ان «المعرفة العلمية» هي الأساس للروح والفكر والمعرفة. بالعكس، إن المعرفة العلمية جزء من الفكر الناظر والنظري، وان

هذا المستوى ـ الفكري أو الذهني ـ يرتكز على مستوى أعمق أدعوه المستوى الروحي ـ الفكري. هكذا كان طفوُ اليونان، وهكذا كان طفوُ «أوروبا الحديثة». وهكذا كان طفوُ العرب: هكذا تكوّن وبرز هذا الذي هو، في الواقع والتاريخ، العرب، الحضارة العربية ـ الاسلامية، الثقافة العربية، علم المسلمين، المجد العربي، المعجزة العربية. هكذا حقّ وحقيقة العرب ـ هُمْ ـ بخلاف باطلنا (نحن). نحن لم نخترع الجبر ولا الكيمياء. وننتكس عن الزراعة والتعامل. مستوانا الأعمق هو «بيت الداء».

كثيراً ما يبدو لي الشعر العربي الجيد كأنه ملاذ الروح والجدل في عالم فكري مغلق عنهما. لكن الشعر العربي ونظريته مخطئان حين يعتقدان أن البعد الوجودي، والوجودي ـ الثائر، هو البعد الوحيد للشعر والفن.

ولقد أذاعت الماركسية أن الفرق بين الفن والعلم هو الفرق بين لغة الصور Images ولغة المفاهيم. هذه الحقيقة تسقط اذا لم ندرك أن الصور هنا هي الصور الحسية وأن المفهوم شكل Forme، وأن «التشكيل» (مثلا «التشكيل الاقتصادي الاجتماعي») هي من Formation ،Forme وأن هذا يُدخل الحركة والتقدم والتاريخ. والحقيقة المذكورة تتحول الى ضياع كبير اذا ما فُهم منها أن الفن، ولاسيما الشعر، في غنى عن المفاهيم والعمل بالمفاهيم. الصور مرحلتُه الأخيرة، لغةُ تعبيره.

لا شعر ولا فن بدون البعد الوجودي. الحبّ، الموت، الخ مواضيع خالدة. لكن كبار شعراء العرب، فضلا عن شعراء اليونان أو عن غوته وشيكسبير، شواهد على أن للشعر بعداً آخر أيضاً أدعوه البعد المفهومي والتاريخي.

7 ـ ثلاثة مستويات

كخاتمة، ورجوعاً الى الجدل كموقف وكتصور عام، لا بد من ملاحظة أخيرة تتصل بـ«تاريخ الجدل».

لقد حدد ستالين أربع سمات أو مبادىء أساسية لما أسماه «الطريقة الجدلية الماركسية»: 1) الترابط الكلي أو الكوني. 2) الحركة والتغير والصيرورة... 3) التقدم بقفزات أو «تحول الكم الى الكيف». 4) التناقض أو صراع الضدين.

هذه السمات الأربع ليست خاصة بالماركسية ولا بالجدل **الحديث**. المبدأ الأول بديل ضعيف وملتبس عن فكرة **المنطق**، وهو ـ عند ستالين ـ يطرد مُعارضه المفهومي (الاستقلال، الانفصال...)، **والتناقض** وُضع بعيداً عنه، في الموقع الرابع. المبادىء 2، 3، 4 تؤلف ـ في عرض ستالين ـ مجموعا منفصلاً عن المبدأ الأول الذي يبدو كياناً مستقلاً. المبادىء 2 و3 و4 موضوعها الصيرورة ـ التقدم بلا تمييز حقيقي بينها. ستالين خلط المستويات، أقام عقيدة بين ـ بين، تصوّراً ليس هو جدل ماركس وهيغل ولا هو الجدل القديم والعالمي، وسماه «الطريقة الجدلية الماركسية».

حسب المنطق والتاريخ، هناك **ثلاثة مستويات**:

1 ـ **التصور الجدلي للعالم قوامه الصيرورة والصراع**. الوحدة والكثرة متضمّنتان في فكرة «العالم» (أو ما ينوب عنها: **الكون، الكوسموس**، الطبيعة، الخ حسب الحالات). الحركة جانب في الصيرورة. هذا التصور الجدلي فتح شرقي (الصين، الهند، فارس، الخ) ويتضمّن فكرة الدائرة وفكرة اللانهاية.

2 ـ اليونان «تضيف» **المفهوم** (الشكل، الحد، المفهوم. اذن أيضا **هويّة** الضدين، **منطق** الشكل أو المفهوم) هذه «الاضافة» ركيزة للتطور التالي.

3 ـ أوروبا «تضيف» **التقدم** (التاريخ والتقدم): هذه «الاضافة»، الحديثة في معظمها، «محكومة» **بالدين التوحيدي، عقيدة الخلق، فرز الانسان**. التصور الشرقي للتاريخ تصوّر دائري، كذلك التصوّر اليوناني. فكرة التقدم خرق يستند على عقيدة دينية جديدة، مغايرة جذريا لما سبقها من أديان كبيرة ومهمّة (مزدائية، هندوكية، بوذية، وأيضاً بابلية وشرقية قريبة) عدا، بطبيعة الحال، عن الأديان الإحيائية والعبادات الطبيعية الأكثر ابتدائية الخ.

هذا ما يجب نظره.

أولاً، ما هي فكرة التقدّم، ما هو «التاريخ والتقدم»؟

ثانياً، «المرتكزات اللاهوتية لفكرة التقدم».

الشروح

1 ـ قصدت، بطبيعة الحال، كتاب أدونيس الثابت والمتحوّل، الجزء الأول.
«من حدّ المملوكية الى حدّ الحرية» شعار عظيم، مبدأ بنال تأييدي وحماسي هكذا يجب أن ننظر الى التاريخ.
بعد هذا التأييد (أي بعد الصفحة الأولى، صفحة الغلاف) يبدأ خلافي مع أدونيس.
من حد المملوكية الى حد الحرية، كيف؟ تاريخياً واجتماعياً / أم / فردياً وشعرياً ووجودياً؟ جدوى / أو / لا جدوى؟
وإنني في هذا التاريخ أو في هذه المرآة للتاريخ لا أرى ثابتاً ومتحوّلاً، بل أرى سرمدية وثوراناً، أرى سرمدية ثورانٍ وثوران سرمدية. هذا ما يجب أن نخرج منه، فكرياً وواقعياً.
لعل أفضل ما عندنا هو الشعراء الحقيقيون. لكن المؤلم أن الشعراء الحقيقيين استغنوا عن «الفلسفة» عن الثقافة النظرية الأساسية.

2 ـ هنا أيضاً دعوى الطهر أو مطلب الطهارة والفضيلة.
هذه الدعوى التي كان كهنة أهورا مازدا يرفعونها ضد السلطة المدنية والسياسية حيناً تلو حين هل كانت تحبط كل تقدم وكل بناء وضعي في تاريخ إيران القديم، كما يقول بعض المؤرخين؟ هذا ما لا أستطيع البتّ فيه. لكن من المفيد أن نذكر أن التعارض بين ملك مصلح وكنيسة محافظة أو رجال دين رجعيين، باسم الدين والشرع والطريق القويم، عرفته أوروبا الحديثة (مثلا روسيا بطرس، امبراطورية النمسا..) والدولة العثمانية وغيرها من الدول الاسلامية... يمكن أن نفترض أن المشكلة كانت أكبر في ايران. ولا ريب أن «المخرج» كان مختلفاً حسب الحالات المذكورة وغيرها، ان المسارات والنتائج كانت مختلفة.

3 ـ سعيد عقل، الشكل «اللبناني» لـ«العروبيّة» العامّة، يركب على هذه القضية... بحق جزئيّ، متطوع ومتعصّب!
لنقل من جهتنا:

1 ـ لا شك أن مذهب الذرة فينيقي (كنعاني) بالأصل، خرج من مدينة صور الى اليونان. هذه الحقيقة المهمة ـ حقيقة الأصل الفينيقي والهندي ـ معترف بها اليوم، ذكرها مثلاً كيدروف في كتابه عن «وحدة المنطق والجدل والغنوزيولوجيا المادية، في ضوء أفكار لينين»، موسكو، بالفرنسية، ص 260.

2 ـ لاشك أن فيزياء القرن العشرين (من الذرة الى الجزيئات الابتدائية: الكترونات الخ الخ) هي بمعنى من المعاني عودة الى «الأصل» من فوق تراث بتالي كبير: الذرة تُجزّأ نظرياً وعملياً (ليست حداً أخيراً). يوجد، وأخيره. علماً بأننا في هذه الحال ـ في الانتقال في الكتلة الذرة الى ما دونها ـ تنتقل من مستوى الى آخر، من شيء الى «شيء» آخر. ثمة فرق بين مفهوم «الذرة» الفيزيائي اليوم وفكرة «الذرة» العامة والعالمية.

3 ـ هذا مثال مهمّ في التاريخ عن فكرة التطوّر الجدلية التي تتضمن فكرة «عودة» والتي هي فكرة تقدّم. إنها مفهوم «تقدم دائري»، يمثل حسيّاً في الشكل الحلزوني، الحركة اللولبية.

4 ـ ان التقدم الجدي (بناء معرفة الواقع الفيزيقي بما في ذلك وعلم الفيزياء العلمي) لتحقق خلال نيف وألفي سنة على ركيزة المذهب الذري الديموقريطي الابيقوري الخ (Atomes ذرات أخيرة لا تجزّأ). وما كان يمكن أن تجري الأمور على نحو آخر: معرفة الأشياء، علم الحركة (الميكانيك).

بدون فكرة المدّ والنهاية لا تقدّم. لا بناء. نبق في الاتساع اللاتناهي...

«الشكل البتالي» شكل من أشكال «العروبيّة» العامة. هناك أشكال أخرى معلومة: «العروبي ـ الاسلامي» و«العروبي ـ الاسلامي ـ اللاإسلامي» و«العروبي ـ السوري» وربّما الآن أو غداً «العروبي المغربي»: غرق واستغراق في القديم وفي اللانهاية، محو وامّحاء في ذات أصلية مبهمة و«رحبة»، ومنشجة، في هوية جوهرية مطرحية الخ، رفع للأجداد ضد «التالي» في التاريخ.

لكن ألا يحق لنا أن نقول: لو بعث الأجداد لرفضوا هذا «التكريم» الملتبس، لرفضوا هذا الشرف أو هذا العار. ولوقفوا مع «التالي» بلا تردّد. فهم ذهبوا نحوه مهّدوا له، تقدّموا ولم يدّعوا ختم التقدم، تكلموا عن البشرية، عن مصائر الانسان، كانوا فاتحين فعلاً، كانوا صادقين، وكوّنوا وطناً...

4) هنا، لابدّ من إشارة الى جورج بوليتزر، فيلسوف الحزب الشيوعي الفرنسي، وبالتحديد الى مقاله «الفلسفة والأساطير» المنشور في العدد الأول من مجلة La Pensée نيسان ـ حزيران 1939 (وأعيد نشره في 1955، عدد خاص). بوليتزر (وهو نفسه صاحب الكتاب التعليمي المؤسف: مبادىء الفلسفة الماركسية) يناضل ضد النازية وضد المناخ الوجوديّ المتنوّع المتهم بمساعدتها.

وفي هذا النضال، يرفع بوليتزر لواء «أفلاطون ضد الشعراء»: لقد طرد أفلاطون الشعراء من الجمهورية مُكلّلين بالزهور. ومعنى هذا الرمز أن «الفلاسفة أو العلم» أي المعرفة المفهومية تطرد الصور الزائفة، أشباح الأزمنة البدائية ووجوديّات الحسّ والخيال... إن النازية تريد «إرجاع أوروبا الى ما قبل المسيحية والعقلانية والليبرالية والديمقراطية»، تريد تنكيس أوروبا الى الأزمنة البدائية المؤسطرة في خدمة مشروع بالغ التقدّم في همجيته... وبوليتزر يحارب ضد هذا المشروع وضد المناخ الايديولوجي للعصر الامبريالي، مدافعا عن الإنجاز الإنساني العظيم...

جورج بوليتزر يذكر، بين آخرين، جان وال Jean Wahl وهو من أهم فلاسفة فرنسا في زمنا. فقد تكلم هذا الأخير، في الدراسات الكيركغاردية، عن الـ«أنا موجود» ضد الـ«أنا أفكر»، الـ«الوسوم» Sum ضد الـ«كوجيتو»، باعتبار أن الكوجيتو «فكر مجرّد». على حد قوله (المتعاطف مع موضوعه): هناك حرب بين الاثنين، الفكر عندنا قتل الوجود... هذا لحن نعرفه اليوم، عندنا، وسنعود اليه في حينه.

5 ـ مصادرة أرسطو: «الانسان والحصان والكائنات من هذا النوع الذين يؤكدون كأفراد خاصين والذين هم كذلك كليّا ـ كونياً Universellement ليسوا جوهراً Substance، بل مؤلّف من شكل محدّد ومادة محدّدة مأخوذة كليا ـ كونياً». «والمادة لا تعرف في ذاتها. فهي من جهة محسوس ومن جهة أخرى مذهون: محسوس، مثلاً الحديد، الخشب وكل نوع مادة قادر على التحرك، مذهون، التي هي موجودة في الموضوعات الحسية لكن ليس بوصفها حسية، على سبيل المثال الكائنات الرياضية» (ما وراء الطبيعة 3035 ب25، 1036 آ10). ـ مذهون (Intelligible، مفهوم): يقبض عليه بالذهن أو الفهم أو العقل Intellect.

في ترجمة شيفلر التي نقل ليبين عنها، وردت «كلمة «مفهوم» Concept بدلاً من «شكل» Forme، وسقطت عبارة «مأخوذة كلياً ـ كونياً»... وأضيفت كلمة «معزولة» بعد «جوهر»... انظر الترجمتين في الصفحة الأولى من خلاصة لينين لكتاب أرسطو، في الدفاتر الفلسفية، باريس 1955، ترجمة بوتيجيلي، أو ترجمتنا العربية، دار الحقيقة، بيروت.

التالي الأرسطوتي «مادة ـ شكل و/ أو مفهوم» موجّه ضد الجوهر، الماهية، الجوهر الماهي...

«المادة لا تُعرف في ذاتها». «لا علم الا بالكلي» (أرسطو) ـ «الكلي، هو C'est الفكرة» (هيغل، لينين).

لكن بعض الذين عندنا يحبون «الكلّ» و«الشمول» يجهلون معنى الكلمة: كلّي Universel. يريدون «شمول» الأجزاء

(اجزاء المادة ـ الامتداد) ونبذوا الكلي.
الملف يشمل أرسطو وأفلاطون، انجلز وماركس وفويرباخ وهيغل. الخ الخ. «المادة المحددة المأخوذة كلياً» (عبارة أرسطو) تدفعها المعرفة المفهومية الى النهاية ـ اللانهاية. لا مادة أخيرة. ما يبقى من المذهب المادي هو «مادية العالم» العالم خارج رأسي. «الفكر = قراءة الجبل الحواس في ترابطه أو تواصله Enchainement» (فويرباخ). والجدل يعترض هنا على كلمة «الجبل»، أي على تحوّل فويرباخ ضدّ هيغل، حربه ضد النظر الضارب. انتكاسه «المادي» عن الجدل الأعلى.

6 ـ لينين، في الدفاتر الفلسفية، خلاصة كتاب هيغل «دروس تاريخ الفلسفة»، ينقل كلام سقراط أفلاطون «ما بالنسبة لي يجب أن يكون الحقيقة، العدالة، هو روحٌ روحي. لكن ما يخلقه الروح على هذا النحو بنفسه، ما يحمل بالنسبة له هذه القيمة يجب أن يأتي منه بوصفه آتياً من الكلّي، لا من أهوائه، مصالحه، نزواته، حيالاته، أهدافه، ميوله، الخ. أجل، هذا كله أيضاً شيء ما داخلي، «وضعته الطبيعة فينا»، لكنه ليس ملكنا الخاص الا على نحو طبيعي...

بروتاغوراس يقول: «الانسان مقياس كل الأشياء». سقراط يقول «الانسان بوصفه كائناً مفكراً، مقياس كل الأشياء». لا بوصفه صاحب «أهواء ونزوات ومصالح وأهداف وميول الخ». ديكارت يكرّر العملية. وآخرون، بأشكال مختلفة ـ لينين يؤيد سقراط الارستقراطي واليميني والمثالي ضد السوفسطائي بروتاغوراس، المادي والنسبي واليساري، يرفع لواء علم المنطق أي «الجدل كعلم فلسفي». ثم يطعن بليخانوف: في اللغة لا يوجد سوى الكلّي «بليخانوف كتب عن الفلسفة (الجدل) كتباً كثيرة، ربّما ألف صفحة. لكنه لم يكتب سطراً واحداً عن المنطق الكبير أي بالجوهر والأساس عن الجدل كعلم فلسفي».

رجوعاً الى بداية الشاهد في أعلى هذه الحاشية: في «الحقيقة، العدالة» ترادف، تمد موازيه في وحدة وازدواج كلمة الحق في العربية. الحق هو الحقيقة Verité وهو الحق Le Droit (وجمعها حقوق). يقال أن الألمانية واليونانية لغتان فلسفيتان (أفضل وأنسب للفلسفة أو العلم الفلسفي، من الفرنسية والانكليزية الخ). كذلك اللغة العربية [و إن كان يقتلها محبّوها ومجدّدوها، كارهو الفلسفة والعقل، وكارهو اللغات الأجنبية.

مرة أخرى: «لا علم الا بالكلّي» (أرسطو). و«الكلي، إنه الفكر» (هيغل، لينين).

7 ـ في كتابي «الماركسية في عصرنا» (دار الطليعة، 1965، ط2، 1968)، أخذت بمقولة النفي، لكنني أبديتُ الاستغناء عن نفي النفي، على الأقل كمقولة فلسفية أساسية في الجدل. هذا موقف خاطىء. بحدود الفلسفة كتاريخ، يكون وقوفاً عند سبينوزا («كل تعيين هو نفي»، «كل تحديد هو نفي»، Determination و Limitation) بدلاً من المتابعة الى هيغل.

8 ـ جان لانجفان Langevin: «شروط البحث العلمي والماركسية»، في العدد 11 من دفاتر مركز الدراسات الاشتراكية، نوفمبر 1961.

يقول العالم الكبير بول لانجفان:
«ان فكرة الـ Objet (شيء، موضوع، غرض؟)، المجردة في الأصل، المقتطعة اعتسافياً من / في الكون، أصبحت مألوفة لنا الى درجة تجعل بعضنا يفكرون أنه ليس بإمكاننا أن نستخدم شيئاً آخر من أجل بناء تمثيلنا (صورتنا) عن العالم. إنهم يعتقدون أن الجسيم Corpuscule، الذي هو توسيع خارج القطعين Extrapolation دُفع الى حده الأخير لفكرة الـ Objet (الشيء أو الموضوع) هو وسيكون على الدوام ضرورة لا غنى لذهننا عنها من أجل تفسير الواقع. أنا من جهتي أكثر ثقة في إمكانات تطورنا الذهني أو الفكري».

جان لانجفان، الذي نقل هذا الكلام عن والده، يضيف:
«وهكذا فقد كان والدي يفضّل الاحتفاظ بفكرة كونٍ معرّف (محدّد)، قابل تماماً لمعرفتنا، بدقة متزايدة، أي الاحتفاظ بمبدأ التعيّنية Determinisme، والتضحية بتصوّر خاص عن هذا الكون، هو التصوّر الذري الكلاسيكي، الذي كان تصور الماديين حتى القرن العشرين، والذي كان والدي قد درسه الى هذا الحد المعظم ودافع عنه وحسّنه كثيراً».

بول لانجفان يتمسّك بالتعيّنية: أصبحنا الآن نعرف الواقع الفيزيقي الفيزيائي أكثر وعلى نحو أفضل مما كنا في أمس قريب، المرحلة لمنح لمعقولية الواقع.

لنلاحظ أخيرا أن بول لانجفان لا ينقل بتاتاً «مفهوم المادة الفلسفي» اللينيني الى علم الفيزياء ـ لا يستخدمه ـ. بل هو يتكلم بلا تردد أو تحرج عن «تحول الضوء الى مادة وبالعكس»... ـ أنظر مقاله في العدد الأول من مجلة الفكر La

Pensée، 1939، المكرر في العدد الخاص من المجلة نفسها، نيسان 1955: «الفيزياء الحديثة ومذهب التعيّن»، تحديداً ص 7.

9 ـ يريد بعض المفكرين واقعية في الأدب والفن بدون جدل الواقع والظاهر. «الواقعية الاشتراكية» كانت انتكاساً جذرياً عن إستيطيقا عصر غوته وهلدرلين وشيلر.

سوفوكلس وأوربيد، راسين وشيكسبير وغوته الخ أبطالهم ملوك وأمراء ونبلاء وأحياناً عوام.

«الواقعية الاشتراكية» كانت في أحد جوانبها تخفيضاً أو إلغاء للكلي. بالتالي، فهي تتعارض مع روح الاشتراكية ذاتها. هذا يطرح مبدئيا، في الماركسية، وبالنسبة للمجتمع الاشتراكي والمشروع التاريخي الكبير، قضية المثل الثلاثة وعلومها المعيارية.

الحق والخير والجمال، المنطق والإثيقا والاستيطيقا، ثلاثة علوم معيارية Normatives، اذن مُثلية ومثالية. تقابلها العلوم الوضعية أو الايجابية Positives: مثلاً علم النفس، علم الفلك، علم الاجتماع والاقتصاد والسياسة، علم الفيزياء، علم التاريخ، الخ.

هل هذه العلوم الأخيرة ـ العلوم الوضعية ـ هي علوم الواقع، معرفة ما هو كائن، لا ما يجب أن يكون؟ نعم، شرط وعي أن الكائن يتضمّن على نحو ما أو يقتضي تعارضياً، الواجب الوجوب، والممكن، الخ، أن الواقع ليس المباشر وأن العلم علم، أن الواقع له صفة النزوع والملكة، مثلاً في اتجاهين، صاعد وهابط، نحو الأفضل ونحو الأسوأ. اذا لم يتجه نحو الأفضل فقد يذهب نحو الأسوأ. ان المعارضة بين نوعين من العلوم تستمد قيمتها وجدواها من تأكيد النوعين، هذا هو المطلوب وليس التضحية بالعلوم المعيارية حبا «بالواقع» و«الواقعية».

منطق شعب من الشعوب و إثيقاه و إستيطيقاه يمكن أن ينحدروا من علٍ. الاستيطيقا الأدبية مثالاً يمكن أن تصبح استساغة أذن، رد صدر على عجز وصوراً بلاغية أخرى. الفن يمكن أن ينحط الى لهو وتسلية، الى «نضال» سياسي، الى «مصلحة» من النوع الأول أو الثاني.

لابدّ من اضافة مزدوجة

أولا ـ عقدت عدة أمسيات حول أدونيس، في «بيت الشعر»، في باريس، نوفمبر 1984. الحاضرون عرب (الا فيما ندر)، ومعظمهم بعيدون عن الثقافة. الأمسيات بلا نقاش.

أنقل من أمسية 84/11/13 ما يلي:

رينه حبشي: الصحراء... لا جديد... أدونيس يتجاوز: عنده بُعد المستقبل... قول هيراكليت: الزمن طفل يلعب بالزهر (زهر لعبة الطاولة).

أندره ميكل: ... «جنون»، تصوّف... المطلق... الجنون الصوفي... أحمد شوقي... جنون أراغون الثوري... الكلّية... الشعر والبحث عن الكليّات: الغرب مالارميه (الشاعر الفرنسي) وأبو تمام.

بشكل خاص، روجيه مونيه: أدونيس يحمل كلّية هي عكس كلية الفكرة Idée. نداء أدونيس هو التغلب على الفكرة... كلية الصورة Image، كلية رَغبَة Désir. أوروبا = الفكرة ← التاريخ. لقد نعبنا من الفكرة، من المفهوم، من تقلّبات الفكرة وخلفائها: المفهوم... التكنولوجيا، السياسة... روجيه مونيه يعلن حربه على «ألفي سنة» من التاريخ... لا أدري ما اذا كان أدونيس فهم القضية L'enjeu !

ثانيا ـ «الأساطير الأوروبية». «اليمين الجديد» في فرنسا يعلن العودة الى «الأساطير»، إرجاع فرنسا الى ما قبل المسيحية والعقلانية والليبرالية والديمقراطية، الى ما قبل اليونان والفلسفة.

أنقل هذه الورقة ـ الدعوة: «الأساطير الأوروبية» يوم الاربعاء 84/12/5... «الأسطورة تمزج التاريخ بالمقدس. انها تهرب من الكلمة Le Verbe، الفكرة الخالصة، لكي تكتب نفسها مجدداً وبلا انقطاع في هياج الصورة Image وانفعال الرسومات.

الأسطورة هي بالحقيقة هذا «الشيء» Le même، الحاضر دوماً وغير المدرك أبداً، الذي يشحن تاريخ شعب يسعى لا بكلّ وراء المعنى.

إعادة اكتشاف النسيج «البويتيقي» (الشعري أو الفنّي) لأساطيرنا الأوروبية، إعطاؤها من جديد قدراتها العليا في عصر التقنية، هذا هو التحدّي الذي نرفعه...

... من أجل إعادة سِحْر العالم... حرفيا وبالتمام.

لنتذكّر بأن العصر الحديث، حسب قول مأثور لماكس فيبر، نزع سحر العالم، أسّس دُنْيويّته، وأسّسها ارتكازاً على المبدأ المنطلق في دين الاله الواحد، المتعالي.

لنتذكّر أخيرا بالنازية والوجودية ومعركة جورج بوليتزر سنة 1939 (أنظر الشرح رقم 4).

التاريخ والتقدم

مجلة الوحدة العدد (23/22) ـ 1986

هذا المقال ينتمي الى بحث طويل، أكتبه بالارتباط مع مسائل ومحاور مجلة «الوحدة»، ويتسلسل على النحو التالي: 1) تحديث أم تأسيس؟ 2) اشكالية العمل الثوري. 3) العقل والعقلانية، ثلاثة معان ممكنة. 4) الجدل. 5) التاريخ والتقدم. 6) المرتكزات اللاهوتية لمفهوم التقدم.

انتهي في البند الرابع الى اختزال تاريخ الجدل في ثلاث مستويات:

1 ـ التصور الجدلي للعالم قوامه **الصيرورة والصراع**. هذا الجدل فنح شرقي (الصين، الهند، فارس، الخ) ويتضمن فكرة الدائرة وفكرة اللانهاية. العالم هو الكوسموس، الطبيعة، والوجود.

2 ـ اليونان تُبرز الفكر، المعرفة.. فكرة الحد والشكل **والمفهوم**. اذن أيضا «هوية الضدين»، منطق الشكل أو المفهوم. الجدل منطق، نظرية معرفة.

3 ـ أوروبا «تضيف» التقدم (التاريخ والتقدم). هذه «الاضافة»، الحديثة في معظمها، «محكومة» **بالدين التوحيدي، عقيدة الخلق، فرز الانسان**. التصور الشرقي للتاريخ تصور دائري، كذلك التصور اليوناني. فكرة **التقدم خرق** يستند على عقيدة دينية جديدة، مغايرة جذريا لما سبقها من أديان كبيرة (مزدائية، هندوكية، بوذية، وأيضا بابلية وشرقية قريبة) عدا، بطبيعة الحال، عن الأديان الاحيائية والعبادات الطبيعية الأكثر ابتدائية الخ...

هذا ما يجب نظره: **التقدم والتاريخ**. «المرتكزات اللاهوتية لمفهوم التقدم» أتركها لمقال آخر.

1 ـ ما معنى «التقدم»؟

فكرة التقدم تختلف عن الصيرورة، التغير، التحول، التطور. هذا، مبدئيا وبصرف النظر عن تنوع الاستعمال اللغوي. وتعدد معاني كل مصطلح في القاموس المكرس.

ليس كل تغير تقدما. وليس كل تحول تقدما. فكرة التقدم تفترض ذهابا الى أمام، تغيرا نحو «الأرقى». كلمة «تحول» تعني «من حال الى حال»، كلمة «تطور» تعني «من طور الى طور» بدون تضمين اضافي مفاده أن الحال الجديد أو الطور الجديد أرقى أو أفضل من القديم.

في اللغة اليومية، يمكن أن يكون الأمر غير ذلك: كلمة «تطور» العربية وEvolution الفرنسية أو الانكليزية توحي بفكرة التقدم. لكن اللغة اليومية متسيبة الى حد لا بأس به. بيد أننا حين ندعو نظرية لامارك وداروين نظرية «التطور والارتقاء» أو أيضا نظرية «النشوء والتطور والارتقاء»، فالمصطلحات العربية مناسبة وضاربة، ومتمايزة الى حد كاف، وهي تختزل أو تريد أن تختزل المضامين أكثر مما يختزله العنوان الانكليزي أو الفرنسي (المرتبط بالعصر، والذي يؤكد نظرية «التحول» ضد نظرية «الثبات»). لنقل، بالمقابل، أن هذه الارادة أو الرغبة ملتبسة: المفروض أن العنوان ليس أكثر من عنوان ولا داعي لتكبيره. أما المضمون فهو: ثمة تطور وتقدم في الطبيعة، ارتقاء الى حالة أكثر تعقيدا وتنظيما. تطور (وسلم تطور) على خط **العضوية والحياة والجملة والتفردن والذكاء**[1].

فكرة «التقدم» توحي بالذهاب في اتجاه، بالسير الى هدف وغاية. كلمة Progrès الفرنسية تتضمن البداية Pro (بمعنى: الى الأمام، ذهاب وتقدم). هذه البداية Pro واردة في اسم بروميثيوس (Prométhée)) الذي تمرد على رب الآلهة زيوس وسرق النار من السماء وأسس الصناعة والحضارة، وعوقب بتسميره على جبل القوقاس، حسب الأسطورة اليونانية.

وPro واردة كذلك في Prophète (= نبي)... **فكرة التقدم ذهاب الى أمام**[2].

Progrès تعطي أيضا Progression = تقدم، **متوالية** أو متتالية (مثلا في الرياضيات: المتوالية الحسابية، المتوالية الهندسية). وهي تُضمن **فكرة التدرج**، Progressivité: تقدمية وتدرجية. لا أستطيع أن أصل الى غايتي (مثلا الى مدينة من المدن) بدفعة واحدة، بقفزة. والقفزة على الأرض قفزة في البسط الأفقي، ليست قفزة شاقولية نحو السماء. وهذه تنتهي الى سقوط، وقوع على الأرض.

التقدم (Progression, Progrès) عكسه التراجع، التقهقر (Régression). أما الصيرورة والتغير والحركة فعكسهن الوجود أو الكينونة الثابتة، السكون، الركود.

ان أحد وجوه الغلط الفلسفي في الماركسية المعروضة أن ستالين أراد، في المادية

التاريخية والمادية الجدلية، تقدما بلا تقهقر، حركة بلا سكون، تطوراً بلا ركود. كما أراد ـ من جهة أخرى ـ ضرورة بلا عرض... أراد مفاهيم بلا مقابلاتها، مفاهيم غير ثنائية، مفاهيم لا تنثني. وهذا محال من وجهة نظر المنطق. قيل: الحركة مطلق، السكون نسبي. واستخدمت هذه البديهية الجدلية لطي بديهيات أخرى: أجل، الطاولة ثابتة نسبة الى الأرض ولكنها تتحرك مع الكرة الأرضية ومع المجموعة الشمسية أيضاً. وكتيلاتها متحركة وشديدة الحركة ـ لكن! «الطاولة ـ الجسم» ثابتة وساكنة بعكس الكتيلات وبعكس الأرض ـ الجسم الفلكي... ولا تهمني حركة الكرة الأرضية فقط وحركة كتيلات الطاولة فقط بل تهمني جدا الطاولة نفسها. تهمني الأجسام ـ الأشياء الساكنة.

كذلك، على نحو آخر، المجتمع والتاريخ: هناك **حالات** متحركة ومتغيرة وهناك **حالات** ثابتة، راكدة، بل وحالات آسنة، رغم حركة العناصر وغليان الأجزاء، أو ربما بفضل تلك الحركة وهذا الغليان.

التاريخ كفكرة وكعلم لا صلة له بالزوج الفيزيائي مادة وحركة. علم التاريخ بعيد عن علم الفيزياء. والكلمات حين تنتقل من علم الفيزياء أو لنقل من الوجود اليومي والفيزيقي للبشر الى علم المجتمع والتاريخ تتغير معانيها الى هذا الحد أو ذاك، على نحو وآخر. لكن الدلالات الحسية الأصلية مفيدة ومناسبة (لاسيما كلمة «تقدم») شرط أن توعى وأن تُحد.

وليس فقط: علم التاريخ بعيد عن المادة والحركة، بل لنقل أيضاً، بعد تأكيدنا للفروق: في الواقع الاجتماعي والتاريخي، يمكن ان تكون «الحركة» كثيرة (حروب، ثورات، انتفاضات..) بدون أن يكون هناك تقدم وتاريخ.

اذا كنا مغرمين بـ«الثورة»، فالثورات كثيرة في تاريخ البشرية الطويل، شرقا وغربا، شمالا وجنوبا. أما اذا كنا نبحث عن تقدم فالتقدم أندر.

وهو أندر الى حد أن المغرمين جدا بالثورة يتجاهلونه أو حتى ينفون وجوده. ان قسما كبيرا من الوعي العربي المتنوع يعيش في عنصر الثورة خارج وضد عنصر التقدم. انه **«يستغني» بالثورة، عن التقدم.**

هذا ما لم تقع فيه الماركسية التقليدية، التي لها مزية أنها اعتمدت الفكرتين، ميزتهما، وعارضت بينهما: تطور ـ ثورة، تقدم ـ ثورة، تواصل ـ انقطاع، تدرج ـ قفزة، كم ـ كيف. (بالمقابل، الثورانية العربية المعاصرة هي جدل كيف بلا كم، أي لا ـ معنى، عبث، محال)[5].

خطيئة الماركسية التقليدية أنها اكتفت بهذه المعارضات، أنها لم تفصل فكرة **التقدم** ولم تبرزها في علاقات أخرى، لم تفصل الانسان (المجتمع، التاريخ) عن الطبيعة وتاريخ الطبيعة في مستوى النظر الفلسفي على **التقدم**، لم تعمل بجدل وثنائية مفهوم

الطبيعة نفسه، جعلت «المادية التاريخية» تابعا لـ«المادية الجدلية» و«تطبيقا» مزعوما لها، وبالحقيقة وسمت ابحاء «المادية التاريخية» (التقدم) على الطبيعة كلها وعمل الطبيعة وحركة الطبيعة، بلا مبرر.

وان أحد أشكال وأسباب هذا الشطط أنها أدارت ظهرها للدين واللاهوت ولم تدفع علم أنسابها هي في هذا الاتجاه! اختزلت موقفها من الدين في كونه رجعيا وعافظا، وتمسكت بثوريتها وتقدميتها (اللتين لها «أصل» في دين الاله الواحد)، مضفية هذين اللقبين على الطبيعة، ومؤقنة التاريخ والتقدم. في عرض ستالين، التاريخ يتقدم، كل المجتمعات تتقدم، قوى وعلاقات الانتاج «لا تبقى أبدا على حالها لفترة طويلة». ستالين يكرس دفن مقولة النمط الآسيوي للانتاج، الركود الشرقي... المجتمع البشري يبدو في حركة تقدم دائمة مع ثورات ناقلة من مرحلة الى مرحلة على خط التاريخ.

بالحقيقة، ان الذين يتقدمون دائما هم الأفراد البشريون مثلا. لكنهم يتقدمون نحو الكهولة والشيخوخة والموت. هذا قانون الطبيعة. وهو يقيم الجدل، بالمعنى العام: الصيرورة، ولادة وفناء كل الأشياء، و ــ بحق لا بأس به ــ «الحياة يوم» فكرة التاريخ لها مضامين أخرى. البعد التاريخي ليس البعد الوجودي. والبعد الوجودي ــ أيا كان ــ لا يستنفد فكرة الواقع.

2 ــ الركود والتقدم

ماركسية ماو تسي تونغ تختلف عن ماركسية ستالين.

لنقل أولا وباختصار. من أجل ستراتيجية صحيحة للثورة الصينية، **ماو تسي تونغ يعي ويؤكد ركود الصين التاريخي الطويل، ودور الامبريالية في انطلاق حركة من نوع جديد.**

قصدنا كتابه **الثورة الصينية والحزب الشيوعي الصيني، 1939، الفصل الأول: المجتمع الصيني.**

الكاتب (ماو تسي تونغ أو اللجنة التي حررت هذا الفصل باشرافه أو موافقته) يتكلم عن الثورات في تاريخ الصين، ويعدد بعضها بأسمائها: انها ثورات فلاحية جماهيرية، كبيرة وصغيرة، ولا حصر لعددها.. لكن المجتمع الصيني بقي على حاله مدة ثلاثة آلاف سنة: علاقات الانتاج لم تتغير، نمط الانتاج لم يتغير، الطابع السياسي (الدولة الامبراطورية) لم يتغير. تلك «الانتفاضات الفلاحية والحروب الفلاحية التي شهدها تاريخ الصين كانت ذات نطاق واسع لا مثيل له في تاريخ العالم». رغم ذلك، و«على الرغم من حصول المجتمع على كثير أو قليل من التقدم في أعقاب كل نضال ثوري واسع النطاق يخوضه الفلاحون، فان العلاقات الاقتصادية الاقطاعية والنظام السياسي الاقطاعي بقيت على حالها بالأساس والجوهر». «النظام الاقطاعي الذي بدأ مع أسرتي

تشو وتشين قد استمر حوالي 3000 عام». «ولم تحصل تغيرات جدية لهذه الحالة الا في السنوات المئة الأخيرة».

بالحقيقة، في هذا الفصل الأول (المجتمع الصيني: 1) الأمة الصينية. 2) المجتمع الاقطاعي القديم. 3) المجتمع الحالي المستعمر ونصف المستعمر ونصف الاقطاعي)، الذي هو من أهم وأخطر ما أعطته الماركسية الصينية في المستوى النظري، يراعي المؤلف قوالب الماركسية العامة، كما صاغها وكرسها ستالين قبل قليل في كتابه **المادية الجدلية والمادية التاريخية**. ماو يعتبر الصين «مجتمعا اقطاعيا» استمر ثلاثة آلاف سنة وأعقب مجتمعا عبوديا أو نظام رق. ويؤكد أن «الصراعات الطبقية والانتفاضات والحروب التي خاضها الفلاحون كانت هي وحدها القوة المحركة الحقيقية لتطور التاريخ في المجتمع الصيني الاقطاعي»... وان «كل انتفاضة كبيرة كانت تفضي الى توجه ضربة للحكم الاقطاعي القائم في زمنها وبالتالي كانت تدفع، الى حد ما، نمو القوى المنتجة الاجتماعية». «ولكن نظرا لعدم وجود قوى منتجة جديدة وعلاقات انتاج جديدة وقوى طبقية جديدة وحزب سياسي طليعي في تلك الأيام... فقد انتهت جميع الثورات الفلاحية بالفشل واستطاع ملاكو الأراضي والارستقراطيون استخدامها في كل مرة، في مجرى الثورة أو بعدها، كأداة لاستبدال أسرة ملكية (سلالة امبراطورية) بأخرى». اذن، ماو تسي تونغ يحافظ على فكرة التقدم، وعلى فكرة صراع الطبقات بشكلها الشائع، ولا يستخدم في وصفه للحالة التاريخية الصينية كلمة «دائرية».. لنقل من جهتنا وبمفرداتنا: ان ثورات فلاحية كبيرة وعامة كانت **تنجح** وتفشل، كانت تفضي الى سقوط الحكم والسلطة والنظام بما فيه **وضع ملكية الأراضي**، لكن كان التاريخ بعد ذلك يعيد انتاج الحالة السابقة بمجموعها.

لنقل انه لئن استمر المجتمع «الاقطاعي» الصيني ثلاثة آلاف سنة على حاله بالأساس أو الجوهر، فان المجتمع الاقطاعي الغربي لم يستمر على حاله قرنين أو قرنا من الزمن. حسب عرض مهم لانجلز (الرسالة الى ك. شميدت، 1895/3/12): لقد ظهرت الاقطاعية في مملكة فرانكيا الغربية وطورها الفاتحون النرويجيون في نورمانديا، وطورها النورمانديون الفرنسيون في انكلترا بعد فتحها (أواخر ق11)، ثم بلغ هذا النظام الاقطاعي Ordre féodal (مع تراتبه وتعاقده وتعقده) ذروته أي «اقترابه الأكبر من مفهومه» في... مملكة القدس الصليبية العابرة (ق12) ثم أخذ يبتعد عن مفهومه، بدأ بأفل.. واستمرت عملية أفوله قرونا. البرجوازية تنشأ في القرنين 12 و13، الثورة البرجوازية تبرز في القرنين 17 و18 (هولندا، انكلترا، فرنسا)، وتستمر هذه العملية حتى القرن العشرين.

هذه المعارضة بين «المجتمع الاقطاعي الصيني» و«المجتمع الاقطاعي الغربي» طباق بكشف معنى الحركة والسكون كمفهومين صحيحين وضروريين في النظر الى المجتمع

والتاريخ، ويكشف من جهة أخرى موقع المفهوم أو «المثال» في هذه المعرفة النظرية الأساسية. «ثمة فرق بين مفهوم الشيء وواقع الشيء». يقول انجلز.

يبقى أن ماو تسي تونغ بين بشكل واضح فكرة الركود، السكون، الثبات، الاستمرار. وكما يمكن أن نلاحظ، ان لبعض هذه الكلمات الأربع، في لغة التداول عندنا، شحنة ايجابية (ثبات، استمرار) ولبعضها الآخر شحنة سلبية (سكون، ركود). ماو تسي تونغ (الذي لم يستخدم كلمة «ركود»). لم يعط كلمة «استمرار» شحنة ايجابية. ماو تسي تونغ أكد، بهدوء، وبصرف النظر عن المصطلحات، فكرتي الركود والدائرية.

هذا مع أنه صيني وطني قومي، يعتز بـ«الأمة الصينية» ويؤكد عراقتها (مخالفا بذلك القالب النظري الستاليني المتعلق بالأمة)، ويتكلم عن انجازاتها واختراعاتها، وعن عظمتها السياسية في آسيا الشرقية، ويعتبر الأقليات القومية غير المنتسبة الى شعب هان (أو عرق أو قوم هان؟) جزءاً من الأمة الصينية، وهي مواقف تجعل البعض يتهمونه بالقومية ـ الشوفينية.

والفقرة الثالثة والأخيرة في هذا الفصل الأول والتي موضوعها «المجتمع الحالي المستعمر ونصف المستعمر ونصف الاقطاعي» (أي القرن الأخير) تعزز المنحى السابق. بعد تأكيد جديد ومكرر على الاستمرار والركود الأساسي «طوال ثلاثة آلاف سنة»، المحور هو هنا (في القرن الأخير بدءا من حرب الأفيون) موقع ودور **المداخلة الامبريالية في تاريخ الصين.**

يبدو ـ حسب ستوارت شرام Schramm وغيره ـ ان لهذا المقطع الخطير شكلين: في الطبعة الأولى (1939) قيل ما معناه أن الصين ما كان يمكن أن تنتقل الى شيء جديد لولا التدخل الامبريالي أو المداخلة الامبريالية. أي أنه لولا هذا التدخل لكانت الصين استمرت على حالها وتاريخها (الدائري) كما من قبل. في الطبعة الثانية والشكل النهائي، قيل: كان يمكن لكن التدخل الامبريالي سرع التطور وعجل التحول. في الشكلين قيل: الامبريالية فعلت كذا وكيت، دمرت البنى التقليدية قوضت ركائز الاقتصاد الطبيعي المكتفي ذاتيا، الخ، الخ، خلقت تطورات وتناقضات جديدة، أذلت وامتهنت، ولعبت دورا رئيسيا أو الدور الرئيسي في انطلاق المسار الجديد.

في الحاصل، ليس الفرق كبيرا بين الشكلين. والشكل الثاني مبرر بتاريخ الصين الحقيقي في القرنين 17 و18 آنذاك عرفت الصين (وليس مصر أو سوريا أو العراق الخ) نموا ديموغرافيا واستعمارا وطنيا صينيا لتلال وهضاب الصين الجنوبية وأزمة متنوعة هي بين جملة أمور أزمة نمو (ماو شدد على نمو الاقتصاد السلعي).

العوالم مختلفة، الحالات مختلفة. هناك الهند وتاريخها أو لا تاريخها، هناك التاريخ العربي الاسلامي (المجهول عندنا الى حد لا بأس به)... لا يمكن التعامل مع مقولات ماركس عن النمو الآسيوي للانتاج والركود الشرقي والاستبداد الشرقي والعبودية المعممة

بادارة الظهر أو بتهمة «الاستعارية» أو «التمركز الأوروبي». ان تشخيص «ماركس عن الهند كتاريخ أو كديناميكية يقول: تحرك كبير في السطح السياسي والايديولوجي (تعاقب دول وسلالات مالكة وأقوام حاكمة أو شبه حاكمة) لكن بلا تغير في العمق، في نظام الانتاج والعلاقات الاجتماعية. التشخيص الأساسي صحيح. أن يكون ناقصا (ليت ماركس قال شيئا عن نظام الطبقات ـ الطوائف Castes الهندية) لا ينفي أنه صحيح. وماركس ألمح الى المسألة الدينية اللاهوتية: أبدى أسفه لكون الانسان هنا يسجد لسايالا البقرة وهانومان القرد بدلا من أن يعتبر ملك المخلوقات وسيد الطبيعة[4]...

ان تاريخ الهند، تاريخ الصين، العرب، افريقيا السوداء الخ تواريخ مختلفة، و. مختلفة بمجموعها عن تاريخ اوروبا في الألفين الأخيرين.

واذا أردنا «الدفاع» عن «النمط الآسيوي للانتاج»، فالدفاع الوحيد الصحيح هو التذكير بأن هذا النظام الذي تشكل قبل عدة آلاف من السنين ليس فقط احتضن حضارات وثقافات كبيرة، بل أيضا وأساسا أفسح المجال لعيش مئات الملايين من السكان، لحياة غالبية النوع البشري خلال ألوف من السنين.

هذا النظام مقضي عليه. المداخلة الاستعمارية والامبريالية بدأت هذا «القضاء»، مأساويا بدمارات ونتائج تخريبية وبأعمال إجرامية أصابت العرب والهنود الخ وأصابت الزنوج والهنود الحمر أكثر أو أكثر بكثير مما أصابت العرب...

أما اظهار الأمور ـ بإعلان أو المجانية ـ وكأن أحوال شعوب الشرق (ولا سيما أحوالنا العربية) كانت جيدة أو لا بأس بها قبل هذا التطور المأساوي فهو أكذوبة ديماغوجية ومعادية للشعب تجنبها، بشكل مطلق، ماوتسي تونغ وهو شي منه... بل وتجنبها الى حد كبير النهضويون العرب: هؤلاء تكلموا عن الانحطاط، عن التأخر، وعن تقدم «الآخرين»، لاسيما تقدم أوروبا المستعمرة. أيدوا فكرة التقدم، تبنوا الاستقلال والتقدم، تبنوا التقدم كضرورة للاستقلال والسيادة، بل الى حد ما كضرورة للذات والهوية.

الركود والتقدم و«الشرق»: لينين وماو تسي تونغ وجان جوريس وأحمد شوقي وحافظ ابراهيم يلتقون على فكرة ركود الشرق ويستبشرون بالتطور الجديد: «استيقاظ آسيا»، «شعوب الشرق تدخل حلبة الصراع» (لينين)، «هبت شعوب من منيتها..» (شوقي).

حسب لينين، شعوب الشرق أدخلت في التاريخ كمادة وكموضوع او عرض لهذا التاريخ الكوني، ثم بدأت تتحول الى ذات وصانع لهذا التاريخ.

الانتلجنتسيا الصينية التي مهدت للثورة الصينية وللحزب الشيوعي الصيني كانت أكثر جذرية في طروحاتها من النهضويين العرب. تطرفت و«بالغت»، وضعت القضية

كخيار حدي بين التراث والوجود، بين الهوية الثقافية و«العرق»، واختارت الثاني ضد الأول، كاحتمال أو اقتضاء. هذا ما لم نفعله[5].

ثمة فرق موضوعي بين الحالتين: العرب (أو الهنود) أصبحوا مستعمرين بالتمام (احتلال عسكري، سقوط السيادة السياسية، استعمار استيطاني الخ)، بينما الصين نصف ـ مستعمرة: هذا سهل بروز المسألة «الداخلية» والصراع الداخلي، مكن من دفع المسائل الى نهاياتها الأكثر عمقاً، بلا حرج أو ابتزاز، في امبراطورية الصين.

على أي حال، 1) ان في تصنيم «التراث» و«الهوية الثقافية» (مع أسطرات لا حصر لها) مقتلنا. 2) ان في حل الدين في جملة «الثقافة» و«الحضارة» مقتل الدين ومقتل الثقافة. هذا «الحل» يأتي من جهات مختلفة (بل ومتعاكسة). لكن هناك اعتراضات على هذا الخلط تأتي هي أيضاً من جهات مختلفة، لاسيما ـ لحسن الحظ ـ من جهات دينية[6].

3 ـ الثورة «العودة» والتقدم

ثمة «فرق» بين فكرتي الثورة والتقدم، والمقابلة بين هذين المفهومين لابد منها.

لاسيما وان الوعي العربي السائد، بمدارسه المختلفة والمختلطة، يعيش في العنصر الأول: «الثورة». «التقدم» يضحى به على مذبح «الثورة»، مثلما «التاريخ» يضحى به لصالح «طبيعة» انحطت الى «فطرة»، الى شيء ما ذاتي نفسي، قد يكون «العدالة» أو «المساواة» أو «الحرية» أو «الشعب» أو «الجماهير» الخ، أو باختصار الى شيء ما «أخلاقي»، صادق أو كاذب، ومن غير الممكن تحديد أين ينتهي الصدق ويبدأ الكذب. هذا الوعي اللامفهومي واللاتاريخي يعشق مثله الأعلى الأزلي (أي الأزلي ـ العابر) كما عشق قائد تاريخي القومية العربية والرسالة الخالدة. لكن، في هذه الحالات كافة، من المناسب التذكير بقول مأثور: «بين أن أحب وأن أتصور أنني أحب أي إله يستطيع أن يرى الفرق!». هذا القول المأثور قاله أندريه جيد، وهو أديب فرنسي يحبه القائد التاريخي المذكور، ونحبه معه... لنقل انه أديب وبعيد عن هاجس الثورة أو السلطة.

الوعي العربي السائد حول الثورة والتقدم وسواهما من فكر ومفاهيم الى عناصر وجود واختار أن يعيش في بعضهن ضد بعضهن الآخر. «الثورة» وتوابعها العنصرية تلغي التقدم، التدرج، الاصلاح، الدولة، المؤسسة.. التوابع هي «الشعب»، «الجماهير»، الطبقة العاملة، الكادحة الخ لا فرق في ذلك: كلهن أقاليم وجواهر. وفي هذا الوعي السائد، «الثورة» تتبادل الارتباط مع «الشيء» ومع «الحدث»: انها جزء مميز وممتاز في النظرة الشيئية الى الواقع، في النظرة الحدثية أو الأحداثية الى التاريخ، وهما وجهان للتصور الشيئي ـ الرمزي للواقع أو العالم. الثورة «حاضر» أبدي، اذن عابر،

وبالتالي مستحيل، كتقدم، كجدوى. الحاضر لحظة، برهة، برهة بين الماضي الثقيل والمستقبل الفلكي، في خط الزمن الفارغ.

مع ان فكرة الحاضر الحقيقية هي فكرة الراهن والفعلية Wirklich, Actuel وهي اذن فكرة الواقع، das Reale, Réel. هذا الحاضر الحقيقي ملغى في الوعي العربي السائد: اللامنطق يلغي الزمنية. يجب الخروج من هذه الحالة التي لها إحداثية قديمة، محلية، ولها إحداثية جديدة ومعاصرة وعالمية. مثلا في عصر التضخم النقدي، يتحول «المستقبل» في حياتنا اليومية من فكرة مجدبة الى هاجس متسلط: كثيرون (من ذوي الحظ) يشترون «عيادة» أو «مكتبا» من أجل «الولد» الذي سيصبح مهندسا أو طبيبا.. بعد عشر سنوات أو عشرين سنة. «المستقبل» يقتل الحاضر. القاتل الأكبر هو الماضي. والمقتول هو المجتمع.

يجب الخروج من هذه الحالة... يجب على الفكر ان يعود الى الفكر.. يجب اعادة الكلمات الى حقيقتها، الى وظيفتها: فكر، مفاهيم.

«ثورة» مستمدة من ثار، يثور، الفرنسيون وغيرهم يقولون Révolution وهي لغويا أخت Révolte التي لها ايحاء «ثورة» العربية. الأرجح ان الأتراك والفرس (وربما العرب أيضا لكن قبل نصف قرن) يقولون «انقلاب» حيث نحن العرب نقول (اليوم) «ثورة»، الثورة انقلاب، الثورة تغير كبير، جذري وأساسي.

في الآونة الأخيرة، في قاموسنا المتداول، خفضت كلمة «انقلاب» وعظمت كلمة «ثورة». كلمة «انقلاب» أصبحت تعني شيئا شبيها بـcoup و coup d'état، ضربة، انقلاب عسكري. يمكن أن نشاهد، مثلا، مناقشة موضوعها: هل ثورة 23 يوليو 1952 انقلاب أم ثورة؟ ويفترض المتناقشون أن الاجابة على السؤال المذكور هي الذروة والنهاية والخلاصة وأنها هي الحكم على جودة أو رداءة الشيء ــ القضية! هذا جزء من الحالة السائدة: وثنية ومانوية القاموس!

Revolution اللاتينية ــ الأوروبية قريبة من Evolution التي تعني «تطور» وتعني أيضا «حركة». وهي (Révolution) مصطلح مستخدم في الفيزياء والفلك، في علم الميكانيك، حيث يعني أو يفيد: انقلاب، دورة، دوران. الكلمة واردة مثلا في عنوان كتاب كوبرنيك. مرة أخرى، Révolution تقابل Evolution (حركة، تطور).

وكما ذكرنا، كانت الثورات الصينية الكبرى خلال ألفين أو ثلاثة آلاف من السنين تطيح بالحكم والنظام، لكن كان التاريخ يعيد نفسه بعد الانقلاب الشعبي الكبير. فالتاريخ ليس رهن الارادة، لاسيما ارادة العدالة. ان اعادة توزيع الأراضي بعد ثورة كبيرة و«منتصرة» لم تكن تدشن عهد العدالة الأبدية.. الثورات في تاريخ الصين عمليات ضرورية، حتمية (نابعة من أسباب وأوضاع) وهي.. ثورات بلا تقدم.

كلمة «ثورة» العربية تحمل معنى مباشرا يعبر عن جانب مهم في كل ثورة: ثار،

هب، انتفض. بين عناصر «الثورة» فكرة الغضب، ثورة أو سورة غضب، فكرة الهوى والآلام والجموح Passion، شيء غير «طبيعي» (رغم أنف الوعي السائد الذي يحب الثورة من أجل الثورة).

وكل ثورة حقيقية، من جهة أخرى، تتضمن بين تعيناتها فكرة عودة، رجوع. لكن الثورة الايجابية فعلا تضع أساسا لتقدم. والثورة في هذه الحال تكون درجة أساسية على سلم التاريخ الذاهب الى أمام. الثورة الواعية هي التي تعي موقعها في مسار التاريخ كتقدم. هذا الوعي متفاوت... في ثورات العصر الحديث وثورات القرن العشرين، انه يكشف في «لحظة» القيامة ويبرز بعد انقضائها...

كل ثورة انما تتضمن فكرة عودة او رجوع. لكن كيف وبأي معنى؟ عودة الى ماذا؟

الثورة الشيوعية عودة من فوق طبقية المجتمع والتاريخ الطبقيين الى المجتمع اللاطبقي لكن في مستوى جديد وعلى أساس ادماج كل الانجاز الحضاري والثقافي والاجتماعي الايجابي للتاريخ الطبقي. توجهها الكبير والبارز والمؤكد هو مستقبل يطوي الماضي، مستقبل ليس الماضي. الحاضر والماضي والمستقبل مفاهيم حقيقية وفكر قوية في ماركسية ماركس وفي كل ماركسية شعبية. ماركس، حتى في **مخطوطات 1844** (التي محورها فكرة الانخلاع او التغرب الخ)، يشن حملة طويلة على «الشيوعية الفظة» أو «الشيوعية المساواتية»، بدين حلم الرجوع والمنام «الطبيعي» والموقف الطوباوي، ثم، في **الايديولوجيا الألمانية**، يدخل في مناظرة طويلة، فلسفية واجتماعية، ضد ماكس شتيرنر، رائد الفوضوية وحامل لواء «الفرد» و«الحرية» (أي، بالمدلول العربي والفلسفي للكلمة: مجرد الفرد ومجرد الحرية).

لينين، في أعقاب الثورة السوفياتية، يدعو الشيوعيين الذين لا يحبون التجارة الى «تعلم التجارة على الطريقة الأوروبية» بدلا من الطريقة الشرقية، يعلن أن الرأسمالية التي هي شر بالمقارنة مع الاشتراكية هي خير عظيم بالمقارنة مع الآسيوية والقرون الوسطى والحالة الروسية، يرفض ويشجب دعوة «الثقافة البروليتارية» (البروليتكولت) ويرفع لواء الحرز الثقافي التاريخي للبشرية، لاسيما الثقافة البرجوازية، يدعو شعوب الشرق الى الثقافة والتمدن كشرط للانتصار على الغرب الامبريالي...

الحركة الوطنية والقومية العربية رفعت لواء عصور الأزدهار العربية من فوق عصور الانحطاط والحقبة المملوكية والعثمانية. وكانت تعي أنها قيد صنع شيء جديد، كانت تعي مبدئيا أنها بالاستقلال والسيادة تؤسس لتقدم ولوحدة عربية قومية تستجيب لمتطلبات العصر. عبد الناصر ذروة هذه النهضة، عمقها ووسعها، شعبيا وتاريخيا.

أمجاد روما القديمة خدمت الوحدة الايطالية، الأسطرات الجرمانية أو الوسطوية خدمت الوحدة الألمانية، الخ ودائما كانت الحركات القومية متطلعة الى مستقبل حقيقي، مستقبل ليس الماضي.

مشرعو ملك فرنسا فيليب الجميل (حوالي سنة 1400) أو مفكرو النهضة (ق16/15) «عادوا» الى روما وأثينا من فوق العصور الوسطى.

اللغات القومية الحديثة (الايطالية الخ) «أسسها» كلاسيكيون لاتينيون (بترارك Pétrarque مثلا). «الأصوليون» الحقيقيون يبنون النهضة والتقدم!

الاصلاح اللوثري عودة الى «المسيحية الأولى» والى «الكتاب» من فوق الكنيسة «الموجودة» والظاهرة والبارزة الخ التي يطعن الاصلاح اللوثري في كونها هي الكنيسة الحقيقية أو الواقعية والفعلية Réelle حسب بولس الرسول.. واذا قارنا هذا الانقلاب (انشقاق، هرطقة، الخ) على يد لوثر وكالفن وفاربل وزفنغلي الخ مع هرطقات العصور الوسطى، أمكننا القول انه هو الأكثر جذرية والأكثر جدوى وهو الأكثر «في المسيحية» والأكثر مسيحية، معا بالتلازم. انه الأكثر أساسية وأصولية والأكثر حداثة وعصرية ومستقبلية. لسوء الحظ، في حالتنا الحاضرة، كلمة «أصولية» هي أيضا ضيعت المعنى! صارت شدا ماديا نحو ماضٍ مادي مستحيل.

ثمة قاسم مشترك بين المجتمع المدني البرجوازي الحديث والعالم الروماني الأخير من فوق العصور الوسطى الاقطاعية والكنيسة: فكرة السيادة Souveraineté أو الدولة، فكرة الملكية الخاصة والحارمة Privative (أو لنقل: فكرة الملكية وفكرة المُلْكيّة). هذا القاسم المشترك قائم في الواقع نفسه. لهذا السبب، يمكن أن تكون الحقوق الرومانية (التي لعب السوريون دورا بارزا في تكوينها: الامبراطور كاراكالا، المشرعان أوليان وبابينيان...) «استباقا» Anticipation للمجتمع المدني البرجوازي الحديث (حسب قول ماركس): المجتمع القديم مجتمع رق، بينما المجتمع الحديث مجتمع برجوازي رأسمالي، لكن العبد سلعة. والفكر والواقع ينفصلان: تسقط خصوصية الرق، تبقى عمومية السلعة. «المجتمع المدني» هو ميدان التعامل بين البشر، هو «الكينونة» الاجتماعية التي لها وظيفة تعيين وتقرير على «الولاية».

القرن السادس عشر ـ النهضة، الاصلاح ـ عودة: وعودة تؤسس للتقدم والبناء.

وكل «عودة» مهددة بأن تؤسطر هذا الذي «تعود» اليه، أو بأن «تعطيه» أكثر مما يجوز. لكن الوعي الحقيقي جهاد ضد هذا النزوع، ويضع فوق الحقبة التي «يعود» اليها مبدأ مجردا. وفي الحاصل، ان أولئك الذين «عادوا» أو أعلنوا «عودة» كانوا يعودون لا الى عصر وحالة بل الى مبدأ أو الى «شيء ما» في العصر والحالة، ولذلك كانوا ثوريين حقيقيين أي مؤسسين لتقدم. كانوا يرجعون الى مبدأ مجرد، الى كلي حقيقي.

هكذا «الثورة البرجوازية»: انها مسلحة بمبادىء ـ كليات، ومشدودة الى مستقبل. هكذا الثورات الكبرى في تاريخ الغرب (هولندة حوالي سنة 1600، انكلترا ق17، الولايات المتحدة ق18، فرنسا ق18). «مبادىء كليات»: هذا معناه شيء له علاقة بكل الأشياء، بكل الواقع والحياة والتقدم: العمل، التعامل، الحرية، «حقوق

الانسان والمواطن»، المساواة الحقبة، الوطن، الأمة..

هكذا الثورة الروسية (1917)، الثورة الصينية وغيرها: المستقبل، انهاء استثمار الانسان للانسان، الغاء الطبقات، الحروب، الظلم الاجتماعي والاضطهاد القومي. المستقبل ليس الماضي. الماضي لا يحمل من هذا المستقبل سوى حلمه، الحاضر يحمل الحلم وشيئا آخر ليس الحلم. هذه الثورات، مبدئيا، أكثر وعيا لمهامها التاريخية من الثورات البرجوازية.

ان الثورات الجماهيرية لم تحول الأرض الى جنة. مع العلم أن النفس «الخلاصي» أو «القيامي» رافقها ولازمها، بطبيعة الحال. ما كان يمكن أن تقوم وان تنتصر بدونه. لكن، ما كان يكون لها أي جدوى لو لم تكن سوى «قيامية» و«خلاصية»، لو ضحت بالوعي لصالح «الرؤيا»، لو كان جوهرها العودة الى «فردوس مفقود» خرافي.

هكذا أيضا ثورات الاستقلال الوطني. الثورتان البرجوازيتان، الهولندية والأمريكية ـ الشمالية، كانتا جوهريا حربي استقلال وطني. الثورة الهولندية رفعت هولندا في فترة قصيرة الى مرتبة الطليعة في ركب التقدم التاريخي والى السيادة الأولى، لفترة. هكذا أيضا الحرب الأهلية الأمريكية (ق19)، الشمال ضد الجنوب، الغاء الرق: انها ثورة كبيرة جدا، جذرية، ظافرة، وفتحت الباب على مصراعيه ليس للعدالة والمساواة بل لتقدم الولايات المتحدة الرأسمالي والامبريالي.

4 ـ فكرة التقدم، الانسان والتاريخ

ثورة، تقدم، الخ، الكلمات تتخذ شتى المعاني. بعد التأكيد على هذا المبدأ المنطقي أو الفنوزيولوجي، واذا حصرنا النظر في تاريخ المجتمع البشري، وفي المعنى الايجابي مبدئيا للكلمتين الآنفتين، وجب علينا القول: لا ثورة بلا تقدم وتقدمية. الثورة حلقة في تاريخ هو تقدم. والتاريخ البشري يتمثل في جانبه الأهم كتقدم.

ان قسما من الفكر العربي والوعي العربي، اليوم، يتبنى فكرة التقدم، بشكل صريح أو ضمني. وكذلك يفعل قسم كبير ومتنوع من الفكر العالمي، قصدت: الأوروبي والغربي. هذه الحالة جديدة الى حد كبير.

فكرة التقدم فكرة أوروبية حديثة، جوهريا. لها حتما عناصر آتية من بعيد في الزمان والمكان، لكنها **كتصور أساسي للتاريخ البشري** فكرة أوروبية وحديثة «في الحاصل»[7]. فالتصور الشرقي للتاريخ، وأيضا اليوناني، تصور دائري. هذا التصور الدائري يستمد من تأمل الطبيعة (الطبيعة دورة، دورة ميكانيك، دورة حياة الخ) ومن تأمل البشر والأمم..

والتصور الدائري للتاريخ البشري يبرز أحيانا في الفكر القومي، عند ساطع الحصري مثلا، معززا بمشابهات مع الطبيعة: «مد وجزر»، الأمم تصعد وتهبط. هذا

التصور عن الأمم يقف في الوسط المغلوط بين حقيقتين: من جهة، ليس فقط الأمم تصعد وتهبط بل الأمة كحقيقة لها ولادة وفناء مثلها مثل «كل الأشياء» و«الأحياء». ومن جهة ثانية، ما يهمنا هو تكون الأمم وتقدم الأمم.

الرؤية «الموسعة» قتلت هذا الجانب التاريخي الحقيقي الذي ليس رؤية «الأشياء» و«الأحياء»... مع أن الفكر القومي العربي تكلم عن عملية تكون الأمم. لاسيما وبشكل خاص تكون الأمة العربية، وان كان لسوء الحظ حصر هذه العملية في حركة الاستعراب، الحركة اللغوية، استنادا (عند الحصري) الى الزوج المتكافىء «لغة ـ أمة»... رغم هذا وغيره، ورغم مؤثرات لاعقلانية ألمانية وأوروبية ورغم قاع قديم غير تقدمي، يمكن القول ان الغلبة ظلت، في تاريخنا الفكري الأخير، لفكرة التقدم، بالارتباط مع المشروع الوطني والقومي والاجتماعي...

في أوروبا الغربية، سلطنت فكرة التقدم في عصر الصعود والجهاد، وصارت الكليات الكبرى ـ بما فيها مفهوم «الطبيعة» الفلسفي وتنويعاته: «الحق الطبيعي»، بل و«حالة الطبيعة»، والاشتراكية الطوباوية ـ صارت أساسا لفكرة التاريخ ـ التقدم أو التصور التقدمي لتاريخ الانسان. يمكن القول أن فكرة التاريخ وعلم التاريخ تأسسا (ق18، ق19) على هذا المفهوم نفسه وعلى كليات الانسان، العمل والشغل، الأمن، الملكية الخ.. والكلام عن مصائر البشر وطبائع البشرية واختلاف الحضارات الخ، ووعي التاريخ كدراما وكمأساة (حروب، جرائم، الخ) لم يستخدما ضد فكرة التقدم، كممكن، كواجب، وكواقع. هكذا يمثل الفكر الأوروبي في زمنه الأعظم، عصر الثورة الفرنسية وهيغل، العصر الذي يضم فولتير وروسو ومنتسكيو، آدم سميث وريكاردو، كنط وفيشته والأخوين فون همبولدت وكلاوسيفيتس، وموزار وبيتهوفن وغوته وهلدرلين والرومانطيقية..

العصر التالي ـ البرجوازي المستقر والبرجوازي المأزوم ـ بسط التقدم وابتذله (الوضعوية، التطورية، البراغماتية، الاقتصاد البرجوازي المبتذل الخ) أو (في اللاعقلانية المقاتلة) ألغاه: تبنى «الرجوع الأبدي» وتبنى فكرة «العرق» اللاتاريخية(*). الايديولوجيا البرجوازية في العصر الامبريالي تنقسم بين تفاؤل مسطح وتشاؤم صميمي.

القرن العشرون يشهد حربين عالميتين مع جرائم كبيرة وأزمات متنوعة.. «التفاؤل» ينتهي، يعود، ينتهي مرة أخرى... التقدم يوضع في السؤال والطعن: هذا حقه واستحقاقه. لكن بعض التيارات ترد فكرة التقدم من أساسها: لا يوجد تقدم، التقدم أكذوبة ايديولوجية، كل الحالات متساوية، اذا تكلمتم عن «مجتمعات بدائية» ضعوا كلمة «بدائية» Primitive بين مزدوجين. في أوساط الماركسية في العشرين سنة الأخيرة، لوي ألتوسير يعلن في مستوى النظرية موقف اللاتاريخية واللاانسانية Antihistoricisme و Antihumanisme في رد باطل على تاريخية وانسانية «تجاوزنا الحد».

هذا الموقف لالتوسير شاهد ثمين على ترابط المفهومين المنبوذين: فكرة **الانسان** وفكرة التاريخ!

في تاريخ الفكر العربي النهضوي، ان رفاعة الطهطاوي «تابع» الى حد كبير لمرحلة أولى في الفكر الأوروبي (العقلانية، الأنوار). خلفاؤه تابعون لمرحلة تالية، وضعوية وعلموية. وجيل ثالث يتبع، أكثر، اللاعقلانية. وجيل حاضر يركب على «العلوم الأحدث»، على «الانتروبولوجيا الثقافية» مثلاً، لينفي التقدم. (هذا أحد جوانب تاريخنا الفكري).

ان أحد أشكال تصفية مفهوم التقدم هو إغراقه في «النسبية». في القاموس العربي المتداول، هذه الكلمة ـ «نسبية» ـ تعويض بكمل الاطلاقيات الصنمية (الموجودة دائماً عند حاملي «النسبية») وحل وهمي للمسائل قوامه وأساسه تصفية المفهومية وتصفية الكلي Universel. فالمفهوم الذي ليس الا نسبياً، المفهوم الذي ليس له **وجه من مطلق**، ليس مفهوماً، بل هو «فكرة» براغماتية منسية. المفهوم عام وكلي. والتقدم والتقهقر مفهومان. و ـ بعد ذلك ـ كل الأشياء نسبية **أي «علاقية»**. صفة المفهوم انه ليس شيئاً وليس مثالاً حسياً. كلمة «مثال» العربية مزدوجة. انها تعني من جهة المثال الحسي ومن جهة أخرى الفكرة Edée أو المفهوم. ثمة بين المعنيين هوية وفرق. في قضية التقدم، «أوروبا» مثال بوضح المفهوم. انها ليست المفهوم. المفهوم هو بالأحرى: الانسان.

اذا نظرنا الى تاريخ الأرض والأحياء عليها، أمكننا القول: هذا التاريخ (مليارات من السنين) هو «تقدم»، «جيولوجي» و«بيولوجي»، وهو تطور «طبيعي»[4].

بعده، هنالك تقدم آخر، نشوء الانسان، تاريخ البشريات = «الانسان الصانع» Homo faber، أخيراً تكون «الانسان العاقل» Homo sapiens. المجموع هو طور «انتقال» طويل «من الطبيعة الى التاريخ» (حسب صيغة انجلز الشعبية والضاربة).

ثم يأتي «التاريخ»، تاريخ «الانسان العاقل»، النوع المتميز، **والواحد: خصائص نفسية** واحدة **وامكانات ذهنية** واحدة.

ولنقل ان هذا المعنى ـ نوع متميز وواحد ـ، الذي تثبته وتشرحه المعرفة العلمية الحديثة، وجد تعبيره الديني ـ العقيدي والشعبي في فكرة «آدم» و«بني آدم» المتعارضة مع الغرق الكوسموسي، مع الاحيائية ـ الأرواحية، مع الطوطمية، ومع العرقية[5] بما فيها العرقيات المهذبة: عالم الأصناف.

الانسان طبيعة، طبيعة عامة (جسم، كائن حي، حيوان) **وخاصة**: انه الانسان **الصانع والعاقل**، كائن **الوعي** (الوجدان) **والاجتماع، والتاريخ** أي: التاريخ غير البيولوجي، غير الطبيعي.

هذا لا يعني أن التطور الطبيعي ـ البيولوجي اللانسان انتهى 100٪ منذ أن بدأ تطوره التاريخي أو الاجتماعي أو الحضاري، الثقافي، الصناعي (وجميعها مفاهيم متلازمة

وبمعنى ما مترادفة)[11]: في الوقت الحاضر مثلا، يشير علماء سوفيات وغربيون الى تطور بيولوجي ـ طبيعي معين للانسان تحت سلطة التطور الآخر: انسان المستقبل سيكون أكثر تحملا للضجة والتلوث، و«الاصطفاء الطبيعي». (فكرة داروين) يلعب لصالح الأكثر تحملا للضجة والتلوث. الحضارة تنعكس على الطبيعة. بالأساس، الشغل علاقة (تبادل) بين الانسان والطبيعة خارجه..

لكنه يعني أن الشيء البارز والأساسي في تاريخ «الانسان العاقل» أو «الانسان العاقل العاقل» على امتداد خمسة آلاف أو عشرة آلاف سنة هو تطوره (تاريخه. تقدمه) غير الطبيعي وغير البيولوجي.

مع ذلك، هناك من يعتبر فكرة التقدم فكرة مبهمة، خاطئة، لا مبرر لها. الانسان هو هو. كان يقتل وهو الآن يقتل بأدوات وامكانات لم تكن متاحة له في الماضي. كان يغضب ومازال. كان ومازال يحب ويكره ويحقد. كان ومازال مركبا من خير وشر، من فضيلة ورذيلة.

بتعبير آخر: الانسان هو هو، هذه طبيعته.. ـ لا شك في ذلك. والتقدميون يخطئون حين يديرون ظهرهم لهذه الحقيقة (هذا الجانب أو هذه الجوانب الخ) أو لهذه المسألة بوصفها دينية ولاهوتية (النفس أمارة بالسوء، عقيدة الخطيئة الأصلية، الانسان ظلوم وجهول، الخ) وشعبية. لكن اللاتقدميين يخطئون في كونهم يستخدمون «الطبيعة» كحاذفة للتاريخ والتقدم التاريخي (الانسان سيد وفاتح، مستخلف في الأرض، الخ: تاريخه التقدمي «تابع» هو أيضا لطبيعته، التي هي طبيعة مغايرة، طبيعة نوعية ـ خاصة)، وكمؤسسة في انحطاطها الذاتوي والسيكولوجي لـ«ثورة» خارج التاريخ، لـ«قفزة خارج التقدم». ولئن كان هوركهايمر أو بنيامين أو غيرهما في الغرب يرفعون هذا اللواء ـ «الثورة، قفزة خارج التقدم» (أنظر المقال عن ندوة هوركهايمر، في مجلة **الوحدة**، العدد التجريبي، حزيران / يونيو 1984، ص 114-115) فانهم على كل حال يعرفون جيدا ما هو التقدم ويعترفون بما هو! عندنا، ليس الأمر هكذا. وهذا الذي عندنا مستمد جزئيا من موقف شرقي قديم، وجزئيا من فكر غربي حديث أو معاصر، مبتذل وابتذلوه أكثر.

هذا، اذا لم يتجاهل العقيدة الدينية مع ركبه على الدين علنا: فهو يحول الطبيعة عامة والطبيعة البشرية الى خير عظيم (متجاهلا الخطيئة الأصلية ـ خطيئة آدم، المعصية الأولى والأوضح ـ وعواقبها السلبية والايجابية، المأساة والتقدم)، أو يضع «الطبيعي» ضد «المصطنع» (بدلا من أن تكون الطبيعة مقابل **الصناعة** والتاريخ والثقافة الخ). انه لا يعترف بالدراما ولا يعترف بالوجه المأساوي للتاريخ، مع أنه يعرف «جيدا» هذا الوجه في تاريخنا مثلاً. لكن الاعتراف، كما يقول هيغل، أصعب من المعرفة وهو الشرط لمعرفة صحيحة! لأن الطبيعة ليست خيرا مطلقا، لأن «الطبيعة» ليست مترادفة مع

«الخير»، لذلك هناك تاريخ ممكن، هو تقدم، تدرج، صعود، أساسه جهاد. التاريخ ليس تاريخ الملائكة في الملأ الأعلى، انه تاريخ بني آدم في الأرض، تاريخ الأمين في الدنيا.

5 ـ معيار التقدم

ما هو التقدم؟ هل التقدم موجود؟ ما هو معيار التقدم؟

التقدم هو أولا وفوق كل شيء تقدم الانتاجية (Productivité مردود الشغل) والانتاج و«التوابع» (مع المزدوجين)، و ـ كخلاصة بارزة ـ نمو حجم النوع بخلاف الأنواع الطبيعية العادية، أي نمو تعداد البشر في «أرض البشر». الانسان كائن الشغل، الانتاج، الحضارة، الاجتماع، الوعي والوجدان الخ. **والتقدم هو تقدم هذه الجملة.**
وأول ما يلفت النظر في جملة هذا التاريخ هو نمو تعداد النوع البشري.

قبل عشرة آلاف سنة، كان تعداد البشرية، في مرحلة الصيد والقطف، 10 أو 15 مليونا، حسب «التقديرات». والتقديرات تعتمد على دراسة الكثافة: بالصيد والقطف، لا تعطي الأرض امكانية عيش الا لعشرة أشخاص في مساحة مئة كم»[12]..
فيما بعد (الزراعة والرعي، الحضارات النهرية الكبرى في الشرق، تعمم الحديد، الامبراطورية الرومانية، أخيرا بداية العصر الحديث) ارتفع تعداد السكان الى 30 مليونا، 100 مليون، 450 مليونا من «النفوس»، معظمهم في المناطق الحضارية (الصين، الهند، الخ، البحر المتوسط، أخيراً أوروبا الغربية)، بينما ظلت مناطق وقارات وأشباه ـ قارات شبه خالية، أي أنها بقيت في الحالة «السابقة».

ضد من يعترض على فكرة التقدم «المبهمة» و«غير المبررة»، أقول اذن:

هذا هو التقدم. ثمة «**تاريخ اقتصادي لسكان العالم**» (عنوان كتاب لكارلو شيبولا، Carlo Cippola)، أي تاريخ ديموغرافي يرتبط بثورات الانتاج كانتاج (الثورة الزراعية، الثورة الصناعية). «التفجر الديموغرافي» الأخير (منذ قرنين، ومنذ نصف قرن) يرتبط بـ«الثورة الصناعية»: هذه العلاقة ليست علاقة آلية، مباشرة، انها تتم في اطار عالمي. ليس بلد الانفجار الصناعي هو بالضرورة بلد الانفجار الديموغرافي. أوروبا عرفت انفجارها الديموغرافي الأكبر في القرن 19، لكن النمو الديموغرافي كان، داخل أوروبا، أسرع أحيانا حول «المركز» منه في «المركز»[13]..

التقدم تقدم الانتاجية: هذا خط عريض في جملة تتخطاه. تكلمت عن «توابع». «التوابع» كثيرة، كبيرة: دولة، نظام، مؤسسات، عقل، فكر، «تكنولوجيا»، أمن، تراكم، الخ. التاريخ ليس تاريخ «بشر وأدوات انتاج». لكنه لا يفهم بدون ذلك.

بعد اللمحة «الديموغرافية»، يمكن أن أقول:

التقدم هو تقدم «انتاج المجتمع»، حيث المضاف اليه ليس في مقام الفاعل فقط بل

في مقام المفعول به أيضا: **المجتمع يُنتج المجتمع**. هذا الأمر يمكن أن يتقدم ويمكن ان يبقى على حاله، ويمكن أن يتنكس وان ينهار.

في يوميات البديري الحلاق أو في رحلة فولني الى مصر وبلاد الشام (ق 18)، يتبين أن «انتاج المجتمع»، عندنا كان في حالة سيئة تماما[6].

حوالي سنة 1800، يقدر عدد السكان في مصر بـ 2 أو 3 مليون، في سوريا بمليون، في العراق كذلك (ثم أقل). الانحدار ـ بالمقارنة مع حقب سابقة ـ ليس ناتجا عن قلة النكاح والأنجاب، بل يرتبط بـ«كثرة الوفيات»، الناتجة عن سوء «الجملة»، هذه الجملة التي تضم: الزراعة، الانتاج عموما، الأمن، الملكية، الأخلاق، الدين الخ. و«الجملة» ليست جمعا حسابيا، «الكل» ليس «المجموع». يمكن أن نتساءل مثلا: ما هي، آنذاك، نسبة الذين يعيشون من العمل ونسبة الذين يعيشون من النهب والاستزبان؟!! ويمكن أن نقول مثلا: الأخلاق هي «الوجدان» (= الذاتي) و«العمل والتعامل» (= الموضوعي)، ويمكن أن نضيف: هذا «كل» المجتمع و«كل» الانسان. وهو الذي كان منتكسا في قرننا الثامن عشر. من المؤسف أن الفيلسوف كنط والبديري الحلاق، أو أن الجبرتي وروسو، لم يعرف أحدهما الآخر.

التقدم مقولة واضحة الى حد كاف، مفهوم جيد التأسيس، و: مسألة ومسائل. ان التفجر الديموغرافي الأخير شاهد، بين شواهد، على أن لكل تقدم نهاية. هنا توجد في الفكر النظري الرياضي ثلاثة مفاهيم ضرورية: حد أدنى Minimum وحد أقصى Maximum وحد أمثل Optimum. على الوعي العربي ان يدرك هذا المصطلح الأخير: حد أمثل أو أفضل، Optimum، ليس الحد الأقصى. عليه أن يدرك هذا المفهوم المرتبط بالمنطق وبالواقع، ضد النزوع الطاغي: الكم، الحجم، الضخامة، الـ «Mégalon» (العظمة)، اذن الكم المجرد المطلق من المنطق والقياس والتناسب.

فكرة التاريخ ترتبط بفكرة المجتمع. الانسان هو الكائن الاجتماعي، هو «مجموع العلاقات الاجتماعية» وليس «تجريد الفرد المعزول» (ماركس). ثمة كينونة اجتماعية.

«انتاج المجتمع» غير «انجاب الأفراد». ثمة فرق بين «المجتمع» و«مجموع الأفراد». «المجتمع» مفهوم، هوية كينونية وتاريخية. «المجتمع» ليس مقولة بديهية. التاريخ أو التقدم (والتقهقر والركود) تابع لواقع ومنطق واقع. حركة التاريخ ليست حركة جسم يذهب من نقطة الى نقطة في المكان المحول ذهنيا الى زمان. المسألة هي على «الجسم». «الشعب» ليس جوهرا أو أقنوما، كذلك «الطبقة العاملة»، «الفلاحون»، كذلك «الأمة». في الوعي العربي الثوراني، هناك ميل واضح الى جوهرة «الشعب» وأقنمة «الجماهير». هذا الميل تابع جزئيا لمنطق باطل يضحي بالمعقولية لصالح المادة ـ الكم ـ الكتلة وتابع جزئيا للتسرع الديماغوجي... نظريا، انه يلغي فكرة التشكل، وحدة المنطق والتاريخ سياسيا، انه ارتداد على مئة سنة أو مئتي سنة من نهوضنا.

6 ـ الحضارة، الثقافة

التقدم تقدم الانتاجية، مردود الشغل الانساني. الشغل علاقة بين الانسان والطبيعة، علاقة تحدد طبيعته الخاصة، النوعية. فهو «الانسان الصانع» Homo faber، انه «حيوان صانع أدوات» Toolmaking animal (فرانكلين، ماركس، ستالين). الحضارة، الثقافة، المدنية، العمران الخ مفهوم «تابع» لهذه الحقيقة الأساسية.

هذا «المفهوم التابع» كلي. انه لغويا في صيغة المفرد. لا حضارات بدون الحضارة. الحضارات (اختلاف، تعدد) بدون الحضارة = لا معنى، لا منطق. القرن الثامن عشر الأوروبي أكد الحضارة، القرن التالي (الوضعوي، العلموي) أكد الحضارات، وأكدها في أحيان كثيرة ضد الحضارة. دوائر شبنغلر إنماء جديد، «حيوي» ولا عقلاني، لهذا الاتجاه. ومثقفون عرب وعلماء عرب يركبون هذا المركب بأشكال مختلفة، ومزاودة. بمجرد أن يقولوا «ثقافة» فانهم يقولون ويفكرون: صراع ثقافي، صراع ثقافات وحضارات ومدنيات. باسم «الدين» باسم «الواقعية»، باسم «العلمية»، او باسم المجموع. الصراع مع الامبريالية «يُثَقَّفن»، يُحول الى «صراع ثقافي». هذا وجه مهم في انحدارنا الأخير: في عهد عبد الناصر كان الصراع مع الامبريالية صراعا سياسيا واقتصاديا وايديولوجيا. لم نكن في خصام مع ديكارت وارسطو وماركس وآدم سميث. كنا نطلب الثقافة، لاسيا الثقافة المتقدمة، لاسيا الثقافة الأساسية. كذلك كان عرب عهد الصعود وعهد الازدهار (الذين لقبوا أرسطو بـ«المعلم الأول») وابن خلدون، الذي ميز وبقوة مستويين في العمران، هما العمران البدوي والعمران الحضري، أجرى هذا التمييز الكبير على أساس مفهوم العمران ذاته، الخاص لا يطرد العام، والخاص الأساسي مستويات في منطق الواقع ثم مراحل تاريخ وتقدم ممكن. علوم السوربون وهارفارد تضيع عند العرب، عند كثير من العرب، «البديهيات»: أساسيات المنطق والمعرفة.

بداية التمايز عن الطبيعة، بداية «البشريات» هي «الأوسترالوبيتيك» (أي، لو جازت الترجمة الحرفية للمصطلح المذكور: «قرد الجنوب») الذي عاش قبل مليون ومليونين من السنين. ذلك النوع البشري الأول كان أقرب في «شكله» لـ«القرد» منه لـ«الانسان». حجم مخه لم يكن أكبر كثيرا من حجم مخ أرقى القردة الحاضرة (الشمبانزه).. لكنه يتميز بالشغل، الانتاج (الانتاج بالمعنى الواسع)، «صنع أدوات».. وله، حسب المصطلح العلمي، «ثقافة»، «حضارة» (بدون أن تكون له لغة) تدعى بالانكليزية Pebble culture وبالفرنسية Civilisation pebble. بالمقابل، في الوعي السائد عندنا، والهوالي الى حد لا بأس به، «الثقافة» لا علاقة لها بالشغل، الكدح، الجهد البشري تجاه الطبيعة والحياة.

أترك الأنواع البشرية التالية: «البيثيكانتروب المنتصب»...، «انسان نياندرتال»، «الانسان العاقل المستحاثي». أصل الى «الانسان العاقل»، الى التاريخ البادىء من «ما

قبل التاريخ» و«البروتوتاريخ».

هذا التاريخ أقصر بكثير من تاريخ البشريات الطبيعي أو نصف ـ الطبيعي. وهو، جوهريا، نمو (التقدم) وسائل الشغل (أدوات الانتاج)، تطور وتعاقب وتقدم أشكال الانتاج (من القطف والصيد الى الزرع والرعي، الخ، الى الصناعة الحديثة)، تطور وتقدم وتعاقب أنظمة علاقات الانتاج (الملكية، الطبقات)، الثقافة، المؤسسات، الدولة، الايديولوجيات الخ.

7 ـ الملكية الخاصة والطبقات

الحرية

ظهور «الملكية الخاصة» تقدم كبير. الملكية أو الخاصية Propriété تقدم جذري على اللاملكية، على «حالة الطبيعة». والملكية أفضل جذريا من «نقيضها» المفهومي والواقعي البارز في تاريخ طويل ألا وهو «المصادرة». يمكن أن ندرس تاريخ العرب والصين وأوروبا وافريقيا من زاوية هذا الزوج المفهومي: **ملكية / مصادرة** الملكية، العمل، الحق، الأمن الخ مثال مركب من مثل يذهب «التاريخ» نحوه او يبتعد عنه، يجاهد في سبيله.

الشائع عن مشروع ماركس أنه الغاء الملكية. ثمة نصوص لماركس تسمح لنا بأن نقول أيضا، وعدا عن التصور الشائع (والصحيح)، ان مشروع ماركس هو: ملكية ضد ملكية، مفهوم ضد مفهوم، معنى ضد معنى، تحت غلاف الكلمة الواحدة عينها. شعبيا، وبدون الدخول في تنظيرات لا مبرر لها، أقول: ثمة فرق بل ثمة تعارض بين أن أتصور أن ملكي هو ما في جيبي أو في قبضة يدي / و / أن أتصور أن العالم ملكي وعالمي بدون أن يكون شيء منه في جيبي وقبضة يدي. هذا مشروع مستقبل! عن الحاضر، اذا كان لسان حالنا نحن العرب (مثلا وربما) أن بيتي يجب أن يكون نظيفا ولماعا و«غنياء» داخل جدرانه الأربعة أما الشارع والحديقة والمقهى والمدرسة والغابة وشاطىء البحر فلا شأن لي ولا لأجد بنظافتها، عندئذ فنحن تحت سلطان الملكية بالمعنى الأول، المعنى البرجوازي الذميم، أو ما ـ دون ـ البرجوازي. يمكن القول أن مشروع ماركس هو الملكية العامة ـ الفردية ضد الملكية الخاصة ـ الخصوصية.

نشوء المجتمع التاريخي ذهابا من «الجماعة الطبيعية» تقدم كبير، مرحلة انتقال طويلة وشاقة.

ظهور الرق تقدم كبير، وبالنسبة للعبد نفسه، في الحالة البدائية للشغل والانتاج، كان مصير المهزوم في حروب القبائل الهلاك، فقط بعد بلوغ الانتاجية عتبة معينة، أصبح أخذ أسير ـ عبد أمرا مربحا: يستطيع العبد أن ينتج بشغله ما يبقي حياته مع فائض للسيد، هذه هي القاعدة الاقتصادية المجردة لظهور الرق وانتشاره (تجارة

الرقيق، حروب الدول). ثمة ريعية للعمل العبدي بدءا من نقطة محددة في سلم الانتاج، ريعية تجعله يظهر في شتى مناطق العالم عند النقطة المذكورة.

هذا التطور يبلغ ذروة معينة في «مجتمع الرق» أو «المجتمع العبودي» (اليونان، روما). هذه الذروة المعينة ليست الشكل الوحيد كذروة في الامكان والواقع. الظاهرة يمكن أن تستفحل داخل اطار ليس «مجتمع الرق».

هكذا حضارة الآزتيك (مع التضحية يوميا بمئات البشر من أجل طلوع الشمس).. هكذا الصين في فترات مختلفة، هكذا العصر العباسي (ثورة الزنج... — بغداد أهم مركز لتجارة العبيد من جميع الألوان ومن الجنسين)، هكذا أوروبا الحديثة (ق17-18)، هكذا الولايات المتحدة حتى سنة 1865. العبودية ظاهرة عامة كونية، متنوعة. القنانة شكل مخفض، وظاهرة عامة.

العبيد يمكن أيضا أن «يركبوا على الخيول» وأن يحكموا. هذا قسم من تاريخنا وتاريخ شعوب أخرى في آسيا: «عبيد على الخيل»، عنوان كتاب (أمريكي وامبريالي على الأرجح) لم اطلع عليه.

بمعنى من المعاني، ان العبودية شيء طبيعي في تاريخ البشرية كتقدم وكمأساة. أما أن يحكموا فلعل هذا أقل «طبيعية» و«سوية» و«معيارية».. لكن: «مثلما تكونوا يول عليكم»، دائرة «المجتمع المدني» لها صفة التحديد والتعيين المبدئية. والشعر («لا تشتر العبد الا والعصا معه..») ليس «حلا»..

بخلاف ما ترويه الماركسية الشائعة، لم «ينتقل» أي مجتمع معين من «نظام الرق» الى «النظام الاقطاعي». هذان النظامان هما درجتان على سلم منطق ومرحلتان ممكنتان في تاريخ الانسان. هكذا الأنظمة — النماذج. انها ليست محطات تقدم لمجتمع معين، لشعب «موجود»، المجتمعات، الشعوب نتاج تشكل. فرنسا مثلا لم تنتقل من عصر المشاعية الى عصر الرق الى عصر الاقطاع. أولا لأن فرنسا لم تكن موجودة في عصر المشاعية ولا في عصر الرق. فرنسا الكيان والواقع، فرنسا الأرياف والمدن، المجتمع والدولة، الخ، تشكلت في زمن أحدث من عصر الرق. فرنسا ليست مفهوما جغرافيا مجردا.

المجتمع أو بالأصح العالم الاقطاعي الغربي أعقب العالم الاغريقي الروماني المتوسطي، العبدي والحضاري، لكن ثمة بين العالمين، في الزمن التاريخي الحقيقي، عالم آخر: ان بلاد الغول وايبيريا وايطاليا وبريطانيا تنهار تحت اجتياحات الجرمان (فرانك، أوستروغوت، فيزيغوت، برغوند، فاندال، انكلو — سكسون، لومبارد...)، أما أوروبا الوسطى والشمالية (والشرقية) فلم «تبدأ» بعد. و«الغرب» ينتقل من الحالة البربرية الجديدة أو البدائية الأصلية الى النظام الاقطاعي. انه بهذا الانتقال يتشكل كغرب، كحيز جغرافي — تاريخي جديد، متزاح نحو الشمال، محوره وادي الراين. وهذا الانتقال

ثورة تقدمية وبنائية كبيرة جدا: أراضي الصقيع والضباب والغابات والمستنقعات تحولت الى بلاد زرع ورعي، الى أرياف ومدن (صغيرة). والبشر تداخلوا واندمجوا. من خليط الأقوام ظهرت شعوب، قوميات، أمم، ودول _ أمم.

ولن أقول أن فرنسا في القرن 12 «متقدمة حضاريا» على روما في القرن الأول م. لكن يجب أن نقول: ان الشرط الانساني للشغيل تقدم، ملكية السيد على الشغيل سقطت الى حد كبير، الفلاح القن «مربوط بالأرض»، أي: ليس سلعة، انه لا يباع ولا يشترى... ثم، في «النظام الرأسمالي»، تسقط ملكية «رب العمل» على «الشغيل»: انه «العامل الحر» الذي يبيع قوة عمله والذي هو مضطر الى بيعها.

ومن الصحيح أن نتكلم، في اطار مفهومي عام، عن تعاقب تقدمي نظام رق، نظام اقطاعي، نظام برجوازي رأسمالي، و، بادىء بدء، عن تعاقب تقدمي هو لا طبقات، ثم، طبقات وملكية ودولة..

كذلك، من وجهة نظر «الحرية». هذا الهاجس المتسلط على بعض الصادقين و / أو غير الصادقين يشوه الرؤية، يضيع التاريخ لصالح طبيعة مفطرنة. في الوعي الضمني، تنحصر مسألة «الحرية» في علاقة الانسان بالانسان (طبقات، ظلم، دولة، قهر...)، لكن خارج علاقة الانسان مع الطبيعة!! تكون الحرية بنت «الطبيعة» وملازمة لـ«حالة الطبيعة». واذا لم تكن من نصيبنا فالسبب هو فساد التاريخ وظلم الطبقة الظالمة وقهر الحكام للشعوب. يمكن القول ان الماركسية قد سهلت هذا المنحى الأخير في الوعي العربي السائد، مادامت هذه الماركسية (لاسيما الماركسية الأخيرة، الميسرة أو اليسراوية) قد ضحت بمفهوم **الانتاج** نفسه على مذبح «**علاقات الانتاج**» وضحت بفكرة المنطق والثقافة على مذبح «الايديولوجيا»... والوعي العربي السائد لا يرى أن الحرية، مهما يكن لها من بذور أو مقومات في الطبيعة والفطرة، فهي جوهريا بنت التاريخ ونتاج التقدم.. كلا، ان الانسان في «حالة الطبيعة» لم يكن حرا ازاء فقر الصحراء وغنى الغابة (بالوحوش). باختصار، التقدم تقدم قدرة الانسان[4].

8 _ المهمة الراهنة

التقدم، التخلف، التأخر مفاهيم صحيحة وأدوات ضرورية لمعرفة أحوال البشر ومصائر الشعوب. ان تكون هذه المفاهيم، دائما، موضع سؤال ونقد ومراجعة هذا أمر لا غنى عنه. أن تطرح جانبا تحت هذه الحجة أو تلك فهذا، بالنسبة لنا، تعويض ديماغوجي يحمل هلاكنا. خارج التقدم لا حياة لنا ولشعوب العالم الثالث. وكل «ثورة» لا تؤسس لتقدم انما هي ثورة تأخر وانحلال.

التقدم مفهوم واضح، مسوغ بشكل جيد. كتاب التاريخ المدرسي يقدم عنه لوحة واضحة: من العصور الحجرية الى عصر البرونز وعصر الحديد، من الثورة النيولتية في

بلاد الشام وحولها الى الشرق الأدنى القديم والحضارات النهرية الكبرى في عوالم الشرق، الى اليونان وروما، الى العصور الوسطى العربية والأوروبية، الى الأزمنة الحديثة والمعاصرة. صحيح أن كتابنا المدرسي يحتاج الى اصلاح جذري على هذا اللحن الذي هو العمل، الوطن، الانسان: التاريخ كتقدم، كصعود، وكدراما ومأساة. التاريخ تاريخ البشر في الدنيا: عالم قابل للتحسين، غير قابل لأن يحول الى جنة. لا توجد جنة على الأرض لا في الحاضر ولا في أية حقبة من حقب تاريخنا أو تاريخ غيرنا. ويوجد دائما وجه من مأساة. الاعتراف بالمأساة شرط للسيطرة على المأساة بالعقل، كي لا يسيطر المكبوت على الوعي واللاوعي. والاعتراف بالنسب الخلاصي والقيامي للثورة في القرن العشرين شرط للسيطرة على هذا النفس بالعقل، لكي لا تضيع هذه الخلاصية الثورة والمستقبل من أساسها، ولكي تستطيع البشرية أن تمضي الى تاريخ وتقدم أقل مأساوية.

التقدم خير مبدئي. هذا لا يعني انه إله خير علينا أن نعبده، ان نركن اليه. هناك تقدم وتقدم. هناك تقدم الى الهاوية.

ان تقدم «الانتاجية» (قدرة الانسان الانتاجية) هو أيضا تقدم «التدميرية»: البشرية قادرة على تدمير نفسها (الحروب العالمية والمحلية، الأسلحة النووية، نفاذ ثروات باطن الأرض، نمو التلوث، مختلف أزمات العالم الراهن واستراتيجيات الدول ــ القوى، سير بعض المجتمعات والدول في العالم الثالث نحو «النفاذ» والانقراض...).

ان الماركسية لم تقع في تأليه التقدم. لقد أكدت، مع التقدم، الوجه المأساوي للتاريخ. تكلمت عن الانخلاع، التغرب Aliénation.. أبرزت، في التاريخ، التباعد بين الأهداف الفردية والخاصة والنتائج الاجتماعية والبعيدة لأفعال البشر، الانفصال بين ما يريدون وما يحصل، بين مملكة النوايا وعالم الوقوع: هذا لحن كبير ينشده انجلز في الصفحتين الأخيرتين من مقال عنوانه وموضوعه... «**دور الشغل في تحول القرد الى انسان**». فالمشروع الماركسي الثوري مندرج في تصور الماركسية للانسان وتاريخه وقدره. هذا التاريخ تاريخ «الانسان ــ مع ــ الطبيعة». وهذا المشروع عبر عنه في صيغ لاذعة، نقلت مرارا الى اللغة العربية: تصالح الانسان «مع ذاته» و«مع الطبيعة» (انجلز الشاب، وماركس الشاب)، الانتقال من «ما قبل تاريخ البشرية» الى «تاريخها الحقيقي»، تجاوز «المجتمع المدني» الى «المجتمع الانساني» الخ الخ.

الماركسية نقدت المفهوم البرجوازي للتقدم وأدانت من العتبة فكرة التقدم البرجوازية المبتذلة، أكدت وجوب التحول والانقلاب، أكدت فكرة ثورة أكبر بكثير وأكثر أساسية من ثورات الماضي، ثورة لا تعادل كثورة الا مع «ظهور النوع» قبل بضعة ألوف من السنين. لذلك اتهمت بالطوباوية من قبل مفكرين برجوازيين كبار لم يكلفوا أنفسهم عناء تبيان ما اذا كان هناك أمام البشرية خيار آخر في الامكان. اما هذا

وأما العدم. ان بعض ما قاله ماركس قبل نيف وقرن («البعض الأم») يصح اليوم أكثر أيضا مما كان صحيحا في زمن ماركس. لقد أصبح، كراهن تاريخي، أكثر إلحاحا. وهو يتفق، في مستوى جديد ومتقدم، مع شيء قديم في روح الانسان.

يمكن اختصار التصور الماركسي للتاريخ في ما يلي: ثورة أولى هي ظهور الانسان ـ النوع انتهاء الى «الثورة النيوليتية» (الزراعة، الانتاج بحصر المعنى)؛ ثورة منشودة وراهنة تختزل (وأحيانا تبتذل!) في «الثورة الاشتراكية» أو «الشيوعية» (مع فيض من تمييزات وتنظيرات باتت ادلجات بعيدة عن الواقع)؛ وليس بين الثورتين من مهمة ايجابية للتاريخ سوى انجاب «المجتمع المدني»، وهو المطلوب تجاوزه اليوم أو «تحقيقه وتجاوزه»، حسب الحالات. علينا نحن العرب تحقيقه وتجاوزه.

أما القفز من فوقه، أو التحول عنه نحو أشباح الماضي المرفوعة الى هوية وذات وأصالة الخ، فحكاية رافعية قبيحة وقاتلة.

الشروح

1 ـ لقد يعجبنا ذلك وقد لا يعجبنا. لكنه «جزء» من الطبيعة وحياة الطبيعة وحقيقة الطبيعة، اكتشفته (سوعت المرحلة العلمية في القرن التاسع عشر، و«اتجه» نحوه نفر من المفكرين الكبار في عصور سابقة (بينهم ابن مسكويه).
ان أحد روافد وأسس الفكر الجدلي الحديث هو علم الجيولوجيا كما أقامه الانكليزي لايل Lyell (ق19). عارض مذهب الانهيارات والانقلابات (مذهب كوفيه Cuvier)، أبرز التدرج، العمليات البطيئة المديدة في تاريخ تكون القشرة الأرضية في شكلها الحالي. والدور الانقلابي لهذه التحولات.

2 ـ قاموسيا، في الفرنسية Progrès مرادفة لـ Avance، فعل Avancer: حركة التقدم. ويمكن أن نحي «نتقدم نحو الأسوأ». ما دام «الذهاب الى الأمام» يمكن أن يكون في الخير أو في الشر (وان كان الغالب في الاستعمال هو الاتجاه الآخر). وهي شقيقة Processus اللاتينية (سير، تطور، مسار، سيرورة)، وشقيقة Développement (بسط ـ نمو ـ تطور)..
جدلية اللغة (الفرنسية أو العربية أو غيرهما) تذهب أساسا ضد تصنيم الألفاظ. لا يجوز أن ننحو هذا المنحى الوثني بحجة الضبط. لا يجوز أن نحول الضبط الضروري الى تصنيم، عزل عن السياق، ترك مبدأ المقابلات أو المعارضات. أساس كل ضبط صحيح. الفكر العربي يعاني بآن معا وبالتلازم من اللاجدلية واللاضبط.

3 ـ هذا ما تدعوه الثورانية المذكورة «قفزة نوعية» حسب الاصطلاح العربي والألماني، أي ـ حسب المصطلح الفرنسي ـ «قفزة كيفية» Qualitative، لكن «كيفية» في اللسان العربي تعني أيضا «على كيفي وكيفك» أي «عسفية».
ان «القفزة النوعية» ـ هذه خارج جدل الكم والكيف وخارج الثاني مادة ـ شكل وفكرة التشكل والتكون.
انها «صوفية» تستحضر في الذهن وجودية ومسيحية كيركغارد. مع الفارق والفوارق، بطبيعة الحال. كيركغارد لا يحمل مشروعا سياسيا، كيركغارد ناقد عميق للشرط البرجوازي والشرط الانساني..
في الثورانية العربية، «الثورة» حدث. في التاريخ ـ التقدم، ليس الأمر كذلك. وبمعنى من المعاني قد يكون «عكسه»: «الثورة النيوليتية»، التي كان وطنها الأول بلاد الشام وما حولها، عملية تاريخية استغرقت بضعة آلاف من السنين (قبل الحضارات النهرية الكبرى). كذلك اختراع الكتابة، اختراع الأبجدية الخ: ثورة، عملية كبيرة، معقدة، متدرجة. كذلك الثورة الاقطاعية، تكون عالم الغرب: مئات من السنين.. كذلك «الثورة البرجوازية»: ليست مستنفدة في «ثورة 1879»..

4 ـ من الواضح أن ماركس لا يعتبر هذه التقنية شيئا نافلا. مع أنه يبدي احترامه لثقافة الهند وحضارتها، وتعاطفه مع شعبها ومع البشرية..
انظر مقالات ماركس عن الهند، 1853. في ماركس وانجلز: المختارات، أو ماركس وانجلز: نصوص عن الاستعمار طبع موسكو. أو كتابي: الماركسية والشرق، دار الطليعة...

5 ـ أنظر بشكل خاص، ياسين الحافظ، التجربة الفيتنامية ولاسيا الملحق عن الصين (دار الطليعة).

6 ـ أنظر بحث الشيخ د. صبحي الصالح «الاسلام والعروبة بين مدينة الله ومدينة الانسان» في ندوة ناصر الفكرية الرابعة، العروبة والاسلام علاقة جدلية، بيروت 1981، مع ردود الباحث: دفاع (دفاع هجومي) عن الدين ضد الذين يحولونه الى «ثقافة»، الى «حضارة»، الى «عروبة»، الخ. ضد الذين يكبرون دوره في التاريخ الدنيوي فيقتلونه بهذا التضخم... صبحي الصالح يؤكد كلية ومثالية الثقافة والحضارة، يعارض عمليات الخلط والمزج، لاسيما خلط «الاسلام» و«المسلمين». يبدأ بفصل المفاهيم: «من البديهي أن الاسلام غير العروبة وان العروبة غير الاسلام». هذا الفصل شرط لمعرفة العلاقة.

أنظر أيضا د. محمد أحمد خلف الله، في كتب وأعمال مختلفة: الدين التوحيدي يؤكد فصل «الأرض» و«السماء»، مفهومي الأساس العقيدي. والقرآن يعلن ختم النبوة. العالم متروك للانسان وعقله وجهده..

كذلك في كتاب محمد حربي من جبهة التحرير الوطني الجزائرية (طبع باريس بالفرنسية، وترجمة قيد الاصدار في بيروت، دار الكلمة) اعتراض واضح على خلط الدين والثقافة، على حل الدين في الثقافة.

كذلك عند ياسين الحافظ: تمييز «الدين» و«الايديولوجيا الدينية». هذا موقف هام جدا، نظريا وعمليا.

7 ـ عند «الأقدمين»، نجد فكرة «الفردوس المفقود»، فكرة «سقوط» الخ و«مأساة» معترف بها. لكن نجد أيضا «العكس».

اليكم هذا النص القديم من سومر:

«النوع الانساني، حين خلق، لم يكن يعرف الخبز ليأكل ولا الألبسة ليكتسي. كان الشعب يمشي وأطرافه على الأرض، كان يأكل الحشيش بفمه كالخراف، كان يشرب ماء الحفر».

اذا البشر أحرزوا تقدما منذ بدايات النوع. يمكن القول ان أولئك السومريين كانوا يعون أن حياتهم اللاحقة، الانسانية ـ بلا فردوسية ـ هي ثمرة جهد أجيال بشرية بنت وطنا ـ بيتا ـ عالما.

التصور التقدمي للتاريخ يفترض فكرة التقدم للماضي والمستقبل، اذن فكرة «نقص» في الحاضر والواقع. هذا مفقود، مثلا، في ايديولوجيا الدولة العثمانية التي كانت تؤمن ايمانا يقينيا بتمامها كنظام وبتفوقها على باقي العالم. بالمقابل، في القرن الثالث عشر الأوروبي، ان نظرية «المتوحش الطيب» أو «المتوحش النبيل» (عند الفرنسيين والانكليز) أو مدح الصين و«الاستبداد الصيني» (في الفيزيوقراطية) ومواقف أخرى، ذهنية وفكرية، كانت جزءا من روح عدم الاكتفاء، روح الطعن والسؤال والبحث عن التحسين والتغيير. ان الشيوعية الطوباوية أو الاشتراكية الخيالية، التي ظهرت في القرن السادس عشر (توماس مور، توماس منسر، توماسو كامبانيلا) وعادت الى البروز في القرن الثامن عشر (مابلي، موريلي) ثم في القرن التاسع عشر، كانت نقدا أساسيا للشرط البرجوازي والرأسمالي، وحملت مثلا أعلى مغايرا للحاضر والواقع.

لنلاحظ أن «نفي» التقدم غير وارد في هذه الاشتراكية التي تطعن فيه. ان تصور فورييه Fourier للتاريخ قائم على ثلاثية الهمجية ثم البربرية ثم المدنية. التفاوت الطبقي يلازم الحالة الثالثة، وفورييه لا يدعو للعودة الى الحالة الأولى أو الثانية. فورييه، روسو، وكبار الطوباويين كانت نظرتهم الى الواقع والتاريخ جدلية، وكانوا يعون الى حد كبير أو بمعنى كبير أنهم طوباويون. انهم ليسوا علماء تاريخ. أن لعبتهم شيء آخر غير علم التاريخ. لذلك لعبوا دورا مهما في تأسيس الفكر الأوروبي والعالمي.

ان النفي الجدلي للشيء (هنا: التقدم) ليس نفي وجوده وحقيقته وجدواه، وليس الغاءه، أو «القفز من فوقه». انه «تجاوزه الشيء»، أي «ابقاؤه والفاؤه وتجاوزه».

8 ـ هتلر، في محاوراته الشخصية مع راوشنغ (فولهر مدينة «التاريخ سابقا»، يؤيد أسطورة «العرق» ويرفض فكرة الأمة، باعتبار ان فكرة الأمة فكرة فلوبجية ومرتبطة بالثورة الفرنسية. هذا ما يرويه راوشنغ في كتابه «صوت الدمار» The voice of destruction.

لنلاحظ، عدا ذلك، ان فكرة العرق العلمية البيولوجية (علم الأحياء) هي أيضا فكرة تشكل.. العروق الكبرى الثلاثة (الأبيض، الأسود، الأصفر) لها نشوء طويل وقديم جدا. كلمة عرق Race سقطت حظوتها، أصبحت غير مستحبة. لم تكن كذلك في القرن الماضي. ماركس يستخدمها («الأعراق البدوية» هي أول من حمل التبادل التجاري الخ). كلمة «عرق» فيها تأكيد على وجود قديم ثابت.

المفهوم، الشعب ـ الاثنوس الخ، شيء أحدث بكثير من العروق الكبرى الثلاثة. وهو نتاج تشكلي. هذه الفكرة التي يبرزها المؤرخون السوفيات (تشكل الشعب السلافي و«الفروع السلافية قبل الزمن التاريخي») غير واردة في ذهننا الذي يغلب فكرة أصل ـ جوهر ـ بطن.

9 ـ كتب البيولوجيا، وايضا كتاب الفلسفة المدرسي الجيد، تعطي مبررات كافية تماما لاستخدام هذا المصطلح: التقدم. الفقاريات، الثدييات، الرئيسيات، البشريات = سلم تقدمي. لا يمكن لهذا المصطلح (تقدم) ولا لغيره أن يحيط بكل جوانب الموضوع، لكنه مصطلح أساسي وجوهري.

«التاريخ الطبيعي» (جيولوجيا، بيولوجيا) مستوى يقع فوق مستوى «الفيزياء والكيمياء» في معرفة الواقع. وهو ضروري جدا في التعليم من أجل تكوين فكرة التقدم في وعي الشعب والأمة. هذا المستوى ـ «التاريخ الطبيعي» ـ كان مفقودا بشكل تام أو شبه

تام في برامج معهد الانتداب وما شابه، لصالح الرياضيات واللغة والأدب والفيزياء. هذه الحال لا تخدم فكرة التقدم الصحيحة، الموضوعية والعلمية، في وعي أجيال سابقة. لكن... لا فائدة الآن من «التاريخ الطبيعي» اذا كان برنامج المادة المذكورة خاليا أو تقريبا من نظرية التطور والنشوء والارتقاء. تبقى فكرة التقدم متروكة للشعر وللدائرية المتعاملة مع العالم كإرادة. ومن المؤسف، في سوريا مثلا، أن يكون برنامج الفلسفة ـ منطق العلوم قد استغنى عن البيولوجيا بحيث انها تدرس طريقة الرياضيات، طريقة الفيزياء، ثم تقفز الى طريقة العلوم الانسانية بدون المرور بالبيولوجيا وفكرة «التاريخ الطبيعي».

10 ـ رغم بعض المواقف الجيدة، الايجابية، ان ماركسية القرن العشرين لم تقدر هذه القضية حق قدرها. أحيانا، ذهب ماركسيون وشيوعيون في بلدان أوروبا الشرقية والغربية وعندنا الى الدفاع عن دين الاله الواحد ضد الداروينية. وأحسوا أو حتى أدركوا أهمية القضية التي نحن بصددها، لكنهم لم يدفعوا الأمور نحو نهايتها وأساساتها الفلسفية، وذلك تحت سلطة فلسفة مغلوطة وكرد فعل على هيبة المؤسسة الدينية الاكليريكية والشعبية.

بوجه عام، حين «الدين» متمثلا برجاله ومنظوماته يزج نفسه في معركة ضد «العلم» وبالتالي ضد العقل والوعي، تجب الرد بقوة وهدوء وجذرية. لكن الجذرية تعني بالضبط عدم الانحلال في معركة ثنائية بين «العلم» Science و«الدين»، معركة تستغني عن الأكثر أساسية: الروح Geist، الفلك Aneignung، العمل الانساني. ماركس حمل هذه المفاهيم ولم يزله العلم في يوم من الأيام. في الوقت الحاضر، العلماء السوفيات وعلماء العالم يطرحون مسألة «أخلاقيات العلم»، مسألة الغاية.

أنظر، على سبيل المثال، مقال ايفان فرولوف، «أخلاقيات التنقيب البيولوجي»، مجلة «العلوم الاجتماعية» السوفياتية، العدد الثاني، سنة 1980، الطبعة الانكليزية، ص 60-77: ليس العلم قيمة مطلقة، «موصوف بالضرورة». «حتى أطلق من القمقم»، فرولوف يدين النسبوية الأخلاقية والعدمية الأخلاقية.

11 ـ اذن مفهوم الطبيعة بحصر المعنى أو بالمعنى الضيق يجب أن يوضع مقابل كل (وكل من) هذه الكلمات ـ المفاهيم: تاريخ، اجتماع، صناعة (بالمعنى الواسع)، حضارة (ثقافة، مدنية، «عمران»)... هذا ما يعطي فكرة «الطبيعة» كيانها وحقيقتها وصفتها «الاجرائية».

المعنى الواسع هو «الطبيعة بما فيها المجتمع».

ماركس ولينين وانجلز عملا بالمعنيين. الماركسية التالية، بدلا من أن تتابع، طوت «الطبيعة».. الآن هناك عودة أساسية.. عودة قصر عنها جذريا الماركسيون المشاركون في ندوة «الماركسية والكتاب الأخضر» (جامعة باريس ـ 8، نيسان 1984) ولم يلتفت اليها الفريق المقابل أو الخاصم...

12 ـ «وسطياء»، بطبيعة الحال. هناك مساحات شاسعة خالية. وهناك مناطق تبيح البقاء لأكثر عدة مرات من الكثافة المذكورة في متن النص.

13 ـ انظر كتاب كارلو شيبولا، بالانكليزية 1962، 1964، بالفرنسية 1964، Gallimard, n.r.f. idée.

الانسان عاش خلال ألوف السنين كحيوان «آخذ» Prédateur، ومخرب، متلف Déprédateur، وقاتل مستهلك لبشر آخرين بالصيد والقطف وقتل واستهلاك بشر آخرين. هذا ما أمن بقاءه زمنا أطول بكثير من عصورنا التاريخية العلماء يجمعون على ذلك.

رغم أنف البديهيات، يمكن أن نشاهد «ماركسيين» (!!) يقولون لك: «الحرب» لم تكن موجودة في عصر الشيوعية البدائية. أليست الحرب نتاج نظام الملكية الخاصة؟! انهم يصلون فورا الى «الحرب» والى «نظام» كذا. المفاهيم الراقية والمتقدمة والعامرية تلك الفكرات الأبسط والأكثر ابتدائية: يمكن ان يتقاتل طفلان على «كعكة» أو على قلم أحمر. واضح أنه ليس للمعرفة «العلمية» شأن في ذلك!!

رجوعا الى مستوى أعلى، لنقل ان الانسان الحاضر، بعد طول تقدم، مهدد بالانتكاس وهو يتنكس الى ما قبل الثورة الزراعية واختراع الزراعة، أي الى الانسان الآخذ، الناهب والمخرب...

كتاب كارلو شيبولا، «التاريخ الاقتصادي لسكان العالم»، يروي تاريخ «نمو السكان والثروات». طالما كانت «الثروة» عطاء من الطبيعة، راوح تعداد البشر بين عشرة وعشرين مليون نسمة كحد أقصى. حين أصبحت الثروة تابعة للانتاج بحصر المعنى بدأ النمو ـ الانفجار، طويلا مديدا، ثم قصيرا، فأقصر. وراء هذا النمو الديموغرافي «ثورتان» أو «موجتان» في الانتاج. ويمكن أن نختزل القضية في المخطط التالي:

الثورة الزراعية وانتشارها

الثورة الصناعية

حوالي 15 مليون نسمة

حوالي 750 مليون نسمة

حوالي 2500 مليون نسمة

قبل عشرة آلاف سنة

سنة 1750م

سنة 1950

14 ـ فولني («Volney») جاء الى بلادنا بمهمة من حكومته (قبل الثورة الفرنسية بقليل). انه «جاسوس». ومفكر عظيم وثاقب، ينال تثمين جميع المفكرين: رودنسون، ألبرت موراني، ميشيل وقيزه الخ. والسوفياتي لوتسكي. هنالك من يعلمني أن فولني يهودي، وأن لوتسكي يهودي أيضا، وهلمجرا...

على كل حال، البديري الحلاق ليس كذلك وهو لا يحب اليهود ولا النصارى. كذلك الجبرتي، وغيره. ما يقولونه، ما يرونه، يتفق مع رؤية فولني، رجل عصر الأنوار. ان كتاب البديري الحلاق، الذي أجد فيه كثافة درامية لا أجد مكافئها الا في الأدب الكبير، يستحق أن يكون مادة لعشرين رسالة دوكتوراه منها مثلا: فنومنولوجيا البديري الحلاق، ايديولوجيا البديري الحلاق، الحب في عصر البديري الحلاق، لغة الحلاق وعصره..

15 ـ «الحرية» عكسها «العبودية» و«المملوكية». لنقل مع أدونيس (في صفحة الغلاف من كتابه الثابت والمتحول، الجزء الأول): «من حد المملوكية الى حد الحرية» يبقى السؤال: كيف؟ تاريخيا واجتماعيا / أم / فرديا وشعريا، وجوديا ونورانيا؟؟...

لنوسع مفهوم العبودية، كما فعل ماركس بخلاف الدارج عند الماركسيين. لننظر الى العائلة.

يتكلم ماركس ـ وآخرون ـ عن عبودية داخل العائلة في الحالات الأولى من تاريخ البشر: عبودية الأولاد للأهل، أو الأولاد والمرأة للزوج ـ الأب. هذه العبودية في التاريخ درجات.

وفي «المراحل الأولى الأولى»، قتل الأولاد ظاهرة عامة وكونية، على ما يبدو... العائلة حقيقة طبيعية وتاريخية (حضارية، اجتماعية، انسانية). عبودية الأولاد أفضل من قتلهم. وهنالك بيعهم. قد يكون أفضل من العبودية في العائلة أو من الجوع والملاذ... الحالات الأولى والأولى الأولى يمكن أن تكون موجودة في القرن العشرين، في صين ما قبل 1949 أو في الولايات المتحدة اليوم. في البرازيل، حسب احدى الجرائد، يبلغ عدد الأولاد الذين يعيشون في الشارع ثلاثين مليونا، بينهم عشرة ملايين نهارا وليلا.

وبالتالي، تستطيع، اذا شئت، أن تقول: اذن لا تقدم. لكني أنصحك بأن تقرأ جيدا العرض الآنف. المراحل الأولى هي ـ كأول ـ حالات عامة، كلية، طبيعية ـ سوية في «زمنها المنطقي». التاريخ يتقدم عليها وضدها. يرجعها الى الوراء، يقهرها. هذا التاريخ ليس «أخلاقا» مزعومة، صادقة أو كاذبة وان كانت الأخلاق، بما في ذلك المثل والمثل العليا ـ المفاهيم، داخلة في صلب الموضوع «بجدارة واستحقاق». التاريخ، التاريخ الفعلي، أي العامل بالمفاهيم، هو الذي يعطي الجدارة والاستحقاق.. الظاهرة المتبقية تستمر، متراجعة ومقلصة ومدحورة، تبقى في الواقع بعد عصرها «Survie»، أي تبقى بعد وفاتها. ولها عودات، يمكن أن تنبعث ولكن لتضمحل، لأن تكون حالة «كبيرة جدا»، حالة عامة: هكذا «المرأة في العالم العربي» و.. المجتمع!

عبودية الانسان شرط انساني.. هنالك عبودية للطبيعة، عبودية للحضارة.. الأولى تتراجع مع تقدم التاريخ. عبودية «المرأة والمجتمع» في الوطن العربي ليست من «النوع الأول». وهي بعيدة عن «قوامة الرجال على النساء»، المبدأ الديني، المسيحي والاسلامي... الذي يعبر عن حقيقة أساسية وواقع مديد في تاريخ وتقدم المجتمع البشري...

المغايرة، الكون والتاريخ والعقل

هذا المقال، بين نصوص عديدة للفقيد لم تنشر من قبل وكان قد أرسله إلى مجلة «الوحدة» قبل وفاته بعدة أشهر. وقد ارتأينا نشره في جزأين منفصلين. (المقال رقم 6، والمقال رقم 7).

- 1 -

يمكن عرض تاريخ الفلسفة أو تقديم حصيلة الفكر النظري تحت مقولات شتى: الشيء أو الأشياء، الواقع، الوجود أو الكون، الفكر، الفكرة والمفهوم، الشكل والصورة، الكلمة أو الكلام والعقل، الفرق أو الاختلاف أو المغايرة، الهوية أو التماثل أو التهاوي، الكون ـ المكان والزمان، الانسان والعمل والتاريخ، الطبيعة والصناعة، وغير ذلك..

يمكن عرض الفكر النظري أي المعرفة البشرية الأساسية تحت أية من المقولات الآنفة، مفردة إن صح القول، على أن نذهب منها في جميع الاتجاهات، مسترجعين جميع المقولات الاخرى.

وحين أقول مقولة فأنا أقصد فعل القول: قال يقول قولا وقولة ومقولة ومعقولة، أو مقولة معقولة.

فالفلسفة هي أولا بأول وقبل أي شيء علم القول، علم الكلام أي الكلام بما أنه علم، علم الكليات بما أنها حدود وكيفيات إدراك، مفاهيم فكِرتْ، مفردات ضبطت، مصطلحات حقّقتْ.

يقول أحد الانكليز أن ما اخترعه اليونانيون، في القرون 6 و5 و4 قبل الميلاد، إن العلم الذي اخترعه هيراقليط وبروتاغوراس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وبعض الآخرين قبلهم ومعهم وبعدهم، إن هو إلا ترمينولوجيا Terminologia أي المفردات حدوداً ومفاهيم، أي علم المفردات أو الكليات أو المصطلحات، منطق اللسان البشري بوصفه اللسان لا الأشياء مباشرة: في اللغة لا يوجد إلا الكلي، العام، الهويّات: هذا عكس الأشياء.

وهذا العلم لا يخص أحدث العلوم، ولا يخص آخر ابتكارات الطب والكيمياء والفيزياء النووية والتقنولوجيا اليابانية، بل أولا يخص أبسط وأسهل وأشهر كلمات اللغة البشرية، إنه يخص كلامنا اليومي أو الكلام اليومي في اليونان قبل 2500 سنة، الكلام والعلم والسياسة في آنية العابرة والخالدة، ولا شيء أقرب من التقنولوجيا اليابانية ومن مسألة وأزمة وقضية العرب اليوم، والعالم معهم.

إن الكلمات الأكثر سهولة هي الأكثر صعوبة. الكلمات الأكثر شعبية هي الأكثر فلسفية.

ما هي الكلمات الأكثر شعبية وعامية عندنا اليوم، الكلمات الأكثر تداولاً على ألسنتنا كشعب وكرجال فكر وثقافة، في بلادنا الآن؟

شعب، أمة، عالم، واقع، جماهير، ثورة، تقدم، عالم، أشياء، عقل، نظر، نظرية، دين، دنيا، جماعة، قانون، مجتمع، زراعة، صناعة، عيش، بقاء، تجارة، عمل، تعامل، علم، معرفة، هوية، مغايرة، وحدة، تناقض، شيء، أشياء، أرى، أنظر، أفعل علاقة، كيان، عدم، حق، أخلاق، فن، جزء، كل، صفر، جوهر، ماهية، مادة، فصحى، عامية، لغة، وطن، إنتاج، استهلاك، سبب، فكر، فهم... وهكذا دواليك.

إن خطاب الإغريق إلينا و إلى سوانا هو: خذوا حذركم! هذه أصعب الكلمات، جميع الكلمات صعبة. الحصان، الطاولة، البيت هذا، أنا الخ، كلمات صعبة. «في اللغة لا يوجد إلا الكلي»، يقول فويرباخ وهيغل والإغريق. كل الأشياء يمكن أن أقول عنها: هذا، هذا الشيء أو هذا الأمر. وكل إنسان هو «أنا»، ويقول: «أنا» وبحق!

العلم موجود قبل اليونان. بل هو علم كبير، علوم متنوعة وفعلا ما أورع الأهرامات! وما أروع ما قبل الأهرامات! صعود البشر الأول، الثورة النيوليتية، نشوء الأوطان الأولى، القرى وعوالم القرى والأرياف مع البيت ومع الزراعة والرعاية والمكاثرة، انتقال الإنسان من الافتراس إلى الانتاج، «إنتاج البشر اجتماعياً لوجودهم» ذاته (ماركس).

والكلام موجود قبل اليونان، موجود مع «الإنسان العاقل» و«الانسان العاقل للعقل».

ما ليس موجوداً هو علم الكلام أو الكلام كعلم.

وهذا الاختراع اليوناني يرتبط بالسياسة وبكل شيء، إنه في ترابط أو «علاقة معيّنة» مع التحول من القصر والمجتمع القصريّ société palatiale إلى الأغورا (الساحة) والمجتمع السياسي. في الحالة الأولى التي عرفتها وعاشتها يونان البداية، إن الملك أو الكاهن والساحر يتكلم، «يقول الحق»، الشعب أو الجمهور يستمع، وينفذ. فالقول المنطوق هو الحق، سلفاً. والقصر مادة كبيرة، كتلة مادية ملبئة ومرئية وعالية، شاهقة. الأغورا ساحة، ساحة فارغة، «جاهزة»، وهي مركز قائم وسط المدينة، حلبة سجال.

الدولة هي الشأن العام، «الجمهورية» هي شيء الناس المشترك، السياسة هي علم المدينة ومنطقها: البوليطيقا. في الأغورا، يتساجل الخطباء، السياسيون، المرافعون، الفلاسفة، رجال الأحزاب، يتساجل حزبان مثلاً، والناس يستمعون لكي يفهموا ويحكموا على الصواب والخطأ، على الحق والباطل. قلت: سياسيون، فلاسفة، مرافعون، متحزبون إلخ، هذا واحد، بالأساس وبالنهاية، مهما كانت محتويات وثورة ما بين الأساس والنهاية. ظهور السياسة تراجع الحرب. السجال تغيّر. صار معركة الكلام، مع الحياة والتعامل مع الناس والحقيقة: الفلسفة والسياسة، المنطق والسياسة.

في تاريخ البشرية خلال 2500 سنة، بل أيضا بمعنى ما خلال ستة أو سبعة آلاف سنة، في تاريخ البشرية مأخوذاً كتنويعة على الأشكال (ماركس)، كسمفونية متموجة مع طلعات وانتكاسات، مع توسعات وتقلصات، تحت سلطان تقدم عام كبير، وصولاً إلى العصر الحديث وإلى قضية العالم وقضيتنا اليوم، في هذا التاريخ، إن الدولة والمفهوم، إن فكرتي الدولة والمفهوم، فكرتي المنطق والسياسة، كمقولتين أونطولوجيتين، **تتقدمان معاً وتتراجعان معاً**. كلاهما ميدان العام. كلاهما ميدان العام، ميدان الكلي. أنت غير أنا، كل منّا أنا، كلانا أنا. عندك خاص وعندي خاص. أي خاص، خصوصي، ملك، خير. لكن بيننا **علاقة**، علاقة ما. مثلا أنت جاري في الدور الذي فوقي أو تحتي في هذه العمارة. أنت غير أنا، أنا غير أنت، وبيننا مشترك هو هذا المكان ـ المحلي، وشيء آخر أيضاً أو احتمالياً. بيننا إذن كلي. بيننا علاقة عقالة = كلي = فكر وفكريّ = معنوي، وهكذا دواليك.

ظهور السياسة تراجع الحرب. في آثينة العابرة والخالدة وغيرها وغيرها من «مدن» التاريخ، الحرب منفيّة، ومنفيّة إلى الخارج. المجتمع عائلة من نوع جديد، عائلة جديدة، هي هي جديدة، أرضية ـ مكانية، لكنها هي عائلة، وبمعنى ما عائلة أحق.

لقد خاض سقراط وأفلاطون أو أفلاطون السقراطي أو سقراط الأفلاطوني معركة واحدة متعددة الوجوه: فرض اللوغوس الفلسفي إزاء اللوغوس الهوميري، وبمعنى ما ضده، فرض الايدوس ضد الايقون، أو لنقل الفكرة ـ الشكل ـ المفهوم ضد الصورة والايقونة. بعد طاليس مخترع فلسفة الطبيعة، سقراط اخترع الفلسفة الأخلاقية، وأفلاطون اخترع الديالكتيك: هذا ما يقوله ديوجين لايرس وهيغل ولينين، وجميع الكتب الجيدة. لكن أيضا يمكن ويجب القول إن سقراط اخترع الفلسفة الأخلاقية مع الإنسان والحقيقة، واخترع هو المفهوم، في وحدة مؤكدة. هذا ما يبينه كتاب سوفياتي روسي صدر مؤخراً (بالروسية). والمفهوم، إذن سقراط وأفلاطون وأيضاً أرسطو، يرتبط «بالبوليس» polis المدينة ويرتبط بالمكان، لنقل عربياً الكون ـ المكان. ثمة شراكة في العربية بين كان ومكان!

هذا كله قلما وجدته في فكرنا العربي. بالحقيقة، لم أجده بتاتاً. وهذا مؤلم. وأكاد

أقول: إنه، في باريس مثلاً، في السوربون وحولها، وفي أماكن أوربية أخرى، أنه يركض في الشارع، كما يقال في لغتنا أو في لغة الإفرنج. إنه خبر عام، شيء صار بديهية، شيء معلوم عند آلاف المفكرين والكتاب، منهم عشرات المستعربين، عشرات المهتمين بالأدب العربي مثلاً، وبعضهم كاره جداً للعملية الأفلاطونية. هذا حقهم! أنا أؤشر فقط على وحدة التشخيص الأوربية لموضوع كبير جداً، نحن نجهله، نتجاهله، نبقى دونه وخارجه. كذلك، وأنا أؤكد ذلك، موضوع التاريخ والتاريخية والتقدم.

لكن أترك مفكرينا العلماء. وأريد أن أروي حواراً صغيراً ماديّاً، حصل مع صديق عزيز، في نزهة مسائية بين الأشجار قرب الفندق الكبير في طرابلس الغرب، أوائل 1987.

قلت للصديق: نحن لا نحبّ غيرنا، كيف نريد أن يُحبّنا الغير؟ نحن لا نحب العالم، لسنا معه، كيف يمكن أن يكون معنا؟... قلت إنه حديث عادي وتافه وليس فكراً نظريّاً ولست متأكداً من الكلمات ـ المقولات، لكن الفكرة العامة واضحة، المنحى واضح.

فقال الصديق: يا شيخ، يا أخي وأستاذي، لكن أولاً، نحن لا نحبّ أنفسنا! وهكذا...

قلت له، بعد صمت قصير جداً: أنا لم أعد أقبل هذا الكلام، في الوقت الراهن، أنا أقلب المنطق. نحن لا نحب أنفسنا لأننا لا نحب الغير! فوجىء الصديق، قليلاً. وتابعت: «نحن لا نحب أنفسنا» هذا يعني لا يحب بعضنا بعضاً، حسب اللغة الفصحى العليا، أو حسب لغتي العادية: «نحن لا نحبّ بعضنا بعضاً». وبالأصح: نحن لا نعرف ولا نريد أن نعرف أن كل واحد منا هو غير، وهو غير بالنسبة لكل واحد منا، على العموم والإطلاق. أنا غير ابني وغير زوجتي، وغير أنت، وغير ابن عمّي، وغير أبي، وغير كل واحد آخر. والخيار أمامنا هو: إمّا أن أحبّ الغير أو أن لا أحبّ الغير. إنه خيار أولي، وبمعنى ما تافه إن شئتم. لكنه في الحاصل ليس البتة تافه، خصوصاً، حين يتحول إلى مفهومية «الغير»، أي إلى علم المنطق: كل واحد هو غير. هذا أولاً. نحن؟ أنا؟ أنا لا أحبّ الغير... وهذا ينعكس على داخل نحن. نحن أنوات. أفلا نعي ذلك؟ إذن: «أنا أفكر» أولاً! أنا أتكلم! لا حب ولا كره...

أتقدم إذن إلى المغايرة أو بالأصح إلى التغاير. أقصد لست مقاتلاً من أجل المغايرة بل أنا معاين لمقولة التغاير في تاريخ الفكر. أنا لست في صيغة المتعدي بل في صيغة اللازم intransitif، المتعدي الصحيح إنما يرتكز على اللازم. العمل الثوري الهادف إنما يرتكز على معرفة الواقع الذي هو إزاءه. العمل تغيير الواقع، تحويل العالم.

المعرفة معرفة الواقع البادئة من تأكيد أن الهدف ليس الواقع وأن الواقع ليس

الهدف، وأن الهدف في هذه القضية أو هذه الحيثية هو عدم واقع وعدم وجود، وعدم، لاشيء rien، وذلك درءاً من البداية للذاتوية والإرادوية أي لهذيان الهدف. جنونه وانبهاره.

إذ قال لي أحد: تحويل، قلت له: لِنَنْظر في التحول أولا! و إذا قال لي أحد: صدقت وأحسنت في كونك ذكرت بين مقولاتك الآنفة «التعامل» فـ«الدين المعاملة»، قلت له: الدين المعاملة، لنر «الواقع: التعامل».

لننتقل إلى المعرفة، معرفة «الواقع ـ التعامل»، «المجتمع التعامل»، «تجارة»، «تبادل»، «علاقات» أي بلغة ماركس المثلثة اللغات، في رسالته إلى آنكوف وفي الصفحات الأولى من الايديولوجيا الألمانية، social intercourse "veskehr" commerce تجارة بالمعنى الكبير، الفرنسي الأعلى، علاقات أو تبادل أو حال، تواصل اجتماعي، العلاقات بين الناس، الكون الاجتماعي تعامل الناس.

و إن معرفة الواقع، علم الواقع، يشترط علم المعرفة، علم الفكر، معرفة المعرفة، فكر الفكر. هذا أولا. اليونانيون اخترعوا علم الفكر. هذه قضية يقولها عرب.

قالها الدكتور الجابري مثلا، في الفصل الأول من كتابه الكبير. ما لم يقله هو. علم الكلام، الإغريق اخترعوا علم **الكلام**، العقل فاللوغوس هو الكلام، الكلمة، الاسم، وتالياً العقل، الفكر، النسبة والتناسب، الرياضة فوق علم الحساب العادي. و إن هذا الاستغناء عند الدكتور محمد عابد الجابري عن الكلام وتوابعه من «كلمة» و«اسم» بـ«العقل» و«العقل اليوناني» و«العقل الأوربي الحديث والمعاصر» يشوّه من المنطلق موضوع الجابري. أي مسألة «تكوين العقل العربي» بدءاً من مسألة المعارضة المطلوبة بين العرب واليونان وأوربا من جهة والهند والصين والشرق الكبير والعريق والحضاري من جهة مقابلة.

إن الجابري لم ينشيء هذه المقابلة أو المعارضة إلا بشكل جزئي وملتبس وعابر في بضعة سطور (من 17-18، الطبعة الثالثة). والحال ان هذه المعارضة مطلوبة وهي تشمل بندين أساسيين:

1 ـ ثقافات الغرب، بما فيه العرب هي ثقافة اللوغوس، ثقافة اللغة، على نحو وآخر، في اتجاهين رئيسيين أو أكثر. اللوغوس هو الكلام وهو العقل. والهوية الواحدة هي الأساس المشترك للتعارض الممكن أو الواقع، وداخل الغرب أو اللوغوس، بين عقل عربي وعقل يوناني وأوروبي. إذا نسينا عند البداية أن اللوغوس = الكلام، الكلمة، يفسد كل عملنا المعرفي أو النقدي.

2 ـ دين الإله الواحد monothéisme مقابل أديان كبرى شرقية عظيمة، وليس عندي أي اعتراض عليها أو احتقار لها، عندي فقط اعتزاز ما بدين الإله الواحد وعندي مطلب فهم ومعرفة الأديان، أديان الإله الواحد، أو الله الواحد، والأديان

الأخرى: براهمانية، بوذية، أيضا مزدائية، بل وإحيائية وأرواحية وطبيعانية وشامانية وغيرها، وعندي إصرار ضد غارودي مثلاً على عدم الخلط...

بل أيضا يوجد نوع من شراكة بين البندين في تاريخ الغرب جميعاً وثقافته وفكره أو عقله. تبدأ من هيراقليط. عند هيراقليط «الله، الكلمة، اللوغوس، الإسم» شركاء، هوية واحدة. والله الهيراقليطي نافي الآلهة أو مخفض الآلهة ومحيّدها أو مبطلها. العالم لم يخلقه أي إله = العالم لم يخلقه أيٌ من الآلهة. هذا وارد حرفياً في قراءة لينين وهيغل ولاسال والأقدمين لهيراقليط.

إذا كان ستالين شطب على ذلك، جاعلاً من هيراقليط حداً وطوطماً للمادية الجدلية المزعومة، فليس ذلك سوى تزوير واحد، داخل جملة من التزويرات! و إذا كان بعض العرب لا يعرفون أن هيراقليط يطرد الآلهة، لكنه يطردهم على وجه التحديد بـ«الله، اللوغوس، الكلمة (verbe)، الاسم»، حيث الله بحرف أول Dieu فهذا جهد لا يمكن التساهل معه. انه جهل عام...

غير أن الله الهيراقليطي هو الله ـ القضاء، والقضاء فقط، وليس الله الرعاية، هيراقليط يعلن عدم وجود رعاية Providence لا للكلي ولا للمفرد. ولينين، في قراءته لكتاب لاسال عن **هيراقليط الغامض الأفسي**، سجل هذه القضية أيضاً.

الله الرعاية، الأب الذي في السموات، الرحمن الرحيم، هذا يحمله دين الإله الواحد، والفلسفة الرواقية التي بدأت من سوريا مع زينون السوري واستمرت سبعة قرون، من سوريا واليونان إلى روما، وارتبطت بالعبيد، بطبقة العبيد، وإن كان فيها امبراطور أيضاً وخلق كثيرون، أونوس قائد ثورة العبيد في صقلية سوري، كذلك كاراكالا، وأولبيان وبابينيان..، أي الامبراطور صاحب مرسوم المساواة الرعوية العامة للرجال الأحرار في امبراطورية المتوسط، والحقوقيان الأكبران في تاريخ روما. وأوغسطين مدشن الفكر الغربي الأوربي تونسي ـ جزائري...

الله القضاء، الله الحق أو «الحقيقة، العدالة» (سقراط، أفلاطون)، والله الرعاية. وهذا الأخير بشكل خاص يحمل فكرة تاريخ وتقدم.

إذن أنا أيضا أدين هذه الندوة. لا أجد بين «محاوركم» أيها الاخوة محوراً عنوانه: العقل والتاريخ، العقلانية والتاريخ.

بوجه عام، أنا أعارض فكرة المحاور الملتبسة جدا، والتي أنا شخصيا لا أفهمها، أفهمها أقل فأقل...

لا يوجد تراكم بل ركام. كل تقدم غير دائري باطل. كل تراكم ليس له مبدأ ـ مركز إنما هو في الحاصل ركام.

كم مرة تكلمنا عن المغايرة، التعدد، الوحدة، الهوية وهكذا وهكذا، وعن العقل والعقلانية؟

هنا، هنا، في تونس الخضراء، شباط فبراير 1984 [. ندوة «الغزو الثقافي»، وقف حسن حنفي، صبيحة أول يوم وكلمنا خلال عشر دقائق عن الشخصية العربية و«دين التوحيد» و«التعددية»، أبدى أسفه لكوننا كعرب وكذهن ـ تارخي لم تفسح المجال لفكرة التعدد. ثم مباشرة، تكلم محمد عابد الجابري عن المنطق البياني والمنطق البرهاني، مدة عشر دقائق أو أقل. وكان ذلك كافيا تماماً ليكون موضوع عمل الندوة مدة ستة أيام. وأنا شخصيا، تكفيني هاتان الكلمتان لأقدم تصوري المقتضب عن الأمور والمسائل جميعا في مدة ساعة او ساعتين لا أكثر، على نحو مهجي، في شكل خطاب متصل أو في شكل خطابين أو ثلاثة.. هذا لا يراد، تراد محاور. بل محاور وفروع محاور. وأنا أعاين أن لا تقدم، لا تراكم حقيقي، لا ادخار، تثمير، ترسمل. من منكم، أنتم وغيركم، يذكر الآن أن حسن حنفي هنا افتتح ندوة 1984 بإثارة المسألة التي دعاها التعدد؟ والآن: المغايرة.

فيا بعد اكتشفت المزيد على حنفي وعلى الجابري. وأنا غير موافق، أنا معترض. لا ريب أن الأخ د. الجابري فهم الآن اعتراضي عليه وعلى د. حنفي وآخرين، فهمه جزئياً، وسيفهمه أكثر كما أرجو. أنا غير موافق على فهم الجابري للعقل اليوناني والعقل الأوربي والعقل العربي، واللوغوس، والفراهيدي والخوارزمي، وهيراقليط وسبينوزا. وأنا غير موافق بتاتاً على فهم حنفي لما أسماه وما يُدعى عادة «دين التوحيد» والذي أنا دعوته «دين الإله الواحد»، ولا على فهمه لفويرباخ وخاصة لسبينوزا، وعلى مجلة «اليسار الإسلامي» العدد الأول، بدءاً بالفكرة نفسها «اليسار الإسلامي»، أنا لا يمكن أن أرتاح لحديث أو لمعرفة عن سبينوزا بدون مقولة النفي أي المبدأ الطريقي الحاكم، القائل «كل تحديد هو نفي»...

بعد ذلك، أنتقل إلى المغايرة أو التغاير.

ـ 2 ـ

المغايرة، التغاير، الاختلاف، التخالف، التباين التفاوت، الفرق. مقولة الفرق الفلسفية: هذا وغيره أشكال بل ألفاظ لمقولة واحدة، لفكرة واحدة، لمفهوم واحد. يقابله مفهوم الهوية او التماثل أو التهاوي أو ايضا التساوي.

وهو ليس مطلباً سياسياً عربياً راهناً، شعرنا مؤخرا بحاجتنا إليه فأخذ بعضنا يحاول فهمه أو فكره أو بالأصح «تنظيره» بما لهذه الكلمة من شحنة ايجابية أو (لا مؤاخذة!) سلبية.

أنا لست هنا راكضاً إلى هذا المطلب السياسي، او «منظراً» له، وقد قلت ما يكفي لأقول ان فكرتي عن «السياسي»، أو السياسة، هي خاصة جدا بالمقارنة مع أجواء سائدة سياسية، بل هي خاصة أيضاً بالمقارنة مع أجواء علمية او علموية. السياسي

عندي هو ميدان الكلي شأنه في ذلك شأن شيئين: الفكر، الحقيقة. أنا لست من حزب «العلمية» بل من حزب «الحقيقة». لست من حزب السوربون والحداثة والمعاصرة بل من حزب الكلاسيك، من حزب التأسيس.

إن فكرة الاختلاف، الفكرة التي نحن بصددها، هي الأمر الجوهري أو هي جانب ملازم ومحايث في الأمر الجوهري عند جميع الفلاسفة والعلماء، لاسيا (لاسيا وليس فقط) فلاسفة وعلماء العصر القديم والعصر الحديث.

أي أفلاطون وبارمنيد، ديموقريط و إبيقور وأريستيب كورينا مع فلاسفة برقة، وفيتاغور وسقراط وطاليس وخلفاؤه المباشرون، وهيراقليط وكراتيل وبروتاغوراس وغورجياس، وهكذا، وأرسطو بطبيعة الحال، والإسمانيون «والواقعيون - الأفلاطونيون»، والتجريبيون والعقلانيون والماديانيون والمثاليون ولايبنتس في العصر الحديث الكلاسيكي، وباسكال ونيوتن، وكونديلاك وآدم سميث وروسو وكنط، وهيغل و إنجلز وفويرباخ، وداروين ولامارك ولينه ومندل، أي علم أي علم البيولوجيا والتطور والوراثة، لا بل أي علم الجيولوجيا، لافوازييه ومندلييف وروثرفورد، هايزنبرغ ونيلس بوهر وسوسور ويوهانس فون نويمان ونوربرت فينر، أي الفيزياء والألسنية ونظرية الألعاب والسيبرنيطيقا، وصولا على سبيل المثال إلى قضية سقوط الفلسفة الماركسية السوفياتية والواقع السوفياتي و إلى عدم الفلسفة عندنا.

وذلك سواء ظهرت وهيمنت فكرة الاختلاف هذه عند المذكورين أعلاه كلائحة طويلة ولا تدعي الاستنفاد، سواء ظهرت عندهم إيجابا أو سلبا، وسنشرح ذلك، أو لم تظهر ولم تسلطن كمقولة وكلفظ. فهي الأساس دوماً، القاع المعترف به على هذا النحو أو ذاك إيجاباً وسلباً. أو هي، في العصر الحديث بعد لايبنتس وعلم تحليل اللامتناهيات أي علم حساب التفاضل والتكامل، قضية محسومة مبدئيا، قضية بتوا فيها وانتهوا، مبدئيا كما قلت. أي جوهريًا وأساسيا، في قيادة الفكر ورئاسة الواقع والعمل، في الرأس... إن الخلاف والاختلاف والصراع والصدام والتناقض في أوربا الغربية على الأقل (لكن كذلك اليابان، والاتحاد السوفياتي يلحق بهم، يسترجع المطرود) ليس على مقولة الاختلاف او المغايرة او التنوع بل هو عند نقاط أو بؤر أخرى.

أمّا نحن فإن أمرنا يبدو مختلفا. معركتنا، معركتي أنا، هي على بديهيات لكنها بالتأكيد معركة، بل معركة واحدة. وقضية المغايرة جانب منها هام جدا.

إن المقولة التي نحن بصددها، والتي أدعوها «الفرق»، برزت بقوة عند لايبنتس، إلى درجة يمكن أن أقول معها إنه هو بطلها الأكبر.

لنذكر بمنتهى الاختصار المعقول:

1 ـ ان لايبنتس له مأثرة تأكيد واقعية الفردي، أي أن الفردي واقع حقيقي فعلي.

2 ـ لكن هذه المأثرة يشترك فيها لايبنتس مع التجريبيين الماديانيين، وقبلهم مع

الاسبانيين مادبانيي العصر الوسيط الغربي.

3 ـ غير أن رجلا مثل هوبز المادياني، إذ يؤكد واقعية الفردي والأفراد والأشياء والكائنات المفردة أي المختلفة، و إذ يؤكد هذه الواقعية ضد التيار المقابل أي التيار العقلاني والأفلاطوني وضد اللغة وضد فكرة العام الخ. يذهب إلى التصريح بما يلي: «ان وجودي وحده أكيد»! هذا الاتجاه أو المسار الذهني هو على وجه الدقة عكس ونقيض مسار ديكارت. فديكارت يبدأ. منطلقا من الشك في كل الأشياء والأفكار، بتأكيد وجود أناه. أناه المفكرة أناه كنفس لا كجسد، أي الأنا والفكر معاً، ويصعد من ذلك إلى الله الخالق. ليتزل إلى الأشياء، على ركيزة الفكر والحاكمة مع اللغة أو الكلام. هذا الموقف نقيض هوبز وبركلي..

4 ـ بركلي اسباني، تجريبي، مثالي ينفي المادة والأشياء. مثاليته قائمة على تجربته، لا على قاعدة الفكر الحقيقي واللغة. إن برهنته هي ادراكية لا فكرية. كما يقول مترجمه الفرنسي بارودي.

إن ما ينقصه هو على وجه التحديد حس أو معنى أو شعور أو عاطفة «ما الفكر؟ ما عسى أن يكون الفكر؟».

5 ـ بارودي يلاحظ أيضا أن لايبنتس كاد أن يقع في المطبّ نفسه، إلا أنه عالم رياضيات وفيزياء، ولا ينقصه شعور أو عاطفة «ما الفكر؟».

6 ـ إن لايبنتس يحتل موقفاً بارزاً في كل عرض جدي لتاريخ الفلسفة، لتاريخ المنطق الشكلي والرمزي، لتاريخ علم اللغة، لتاريخ العلم الرياضي.

7 ـ لايبنتس مخترع علم تحليل اللامتناهيات، أي حساب التفاضل والتكامل. والتفاضل هو differentiel ولنقل أيها الاخوة: **الفروقيات**. هنا المغايرة أو التغاير، موضوعنا!

8 ـ هنا لم نعد مع الاعداد الايجابية، واسمحوا لي هذا المصطلح، لم نعد مع 3 و4 و15 و500 مليون وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية! ، بل نحن مع اللانهاية الحقيقية والفعلية ومع الصفر الحقيقي هو سيغما (حرف S اليوناني المغاير كشكل مرلي) التي معها إبسلون (حرف يوناني آخر، يرمز إلى «الصغير جداً»، قريب الصفر). لم نعد إذن مع الأشياء أو الموجودات. بل صرنا مع **السيرورات** أو العمليات processus لم نعد مع وجود وعدم متقابلين نقيضين متطاردين متعازلين ومتباعدين، وفارغين، بل صرنا مع **الانتقال** ذهاباً و إياباً بين أحدهما وآخره، صرنا في منطقة الوصل بين الوجود والعدم؟ أي وجود شيء أياً كان وعدم وجود الشيء المذكور عينه.

في الحاصل، أقول فوراً: العقل عقلان. عقل في قوامه الجوهري الفكرة الاحتمالية

واللامتناهيانة مع سيغما و إبسلون. وعقل بدون هاتين الفكرتين، عقل قوامه ضدهما، عقل كامل وتام من أشياء وأعداد إيجابية ومحاكيات إيجابية. وأنا أقول فوراً: هذا العقل لا عقل! أنا أشك في أنه يصلح اليوم حتى للحياة العملية اليومية!

ولقد تكلمت عن بركلي. ان الرجل له ماله وعليه ما عليه. و إن لينين بالتأكيد ظلمه في سنة 1908، أي لم يفهمه تماما، ولم يفهم كل ما كان يجب أن يفهم، ولم يعرف كل ما كان يجب آنذاك وحينئذ أن يُعرف، لكنه غيّر موقفه من بركلي بالذات ومن كنط كذلك، في سنة 1916... هذا قد لا يكون موضوعنا تماماً. لكن موضوعنا نفسه يفرض علي أن أقول: ثمة شراكة بين النوس (nous) البركليني و«العقل» العربي الإسلامي الشرقي الإشراقي وغيره. أكتفي بالتنويه... بالطبع لو كان علم باسكال وعلم لايبنتس وعلم نيوتن موجوداً قبلهم، أقصد قبل فلاسفة العرب المسلمين عدا عن النصارى قبلهم ولهم، لما ذهبوا مذهبهم كله. فهم، ولنختصر، حتى و إن كان في كل اختصار ظلم، كانوا في الحاصل مع الوجود لا مع الكون، مع الصورة لا مع الشكل، مع المثال لا مع الفكرة والمفهوم، لا مع ايدوس أفلاطون بل مع شيء معاكس تحت اسم الأفلاطونية وداخل الالتباس الطبيعي، إن صح التعبير، المحمول في المسألة الأصلية اليونانية، لكن أفلاطون وسقراط وأرسطو كانوا قد حلوها، فكوا الارتباط... وما دمنا مضطرين، من باب الواجب الأخلاقي للمعرفة الموجهة إلى الشعب إلى الاختصار والظلم، لنقل: إن الوعي الفلسفي لأسلافنا الكبار قبض على أفلاطون حقيقي، لكنه شرقي: «المعرفة تذكر والتقدم انحدار» المعرفة تذكر والتقدم انحدار: هذا أفلاطون، هذا أيضا أفلاطون الفعلي. لكنه ليس أفلاطون الخالد وصولاً إلى ساعتنا هذه، مع العلم والعلوم ومع السياسة ومصائر الإنسان. فالخالد، أي الذي نما وأنمي هو أفلاطون المفهوم، أفلاطون الايدوس مقابل الايقون، واللوغوس الفلسفي مقابل اللوغوس الهوميري. واللوغوس الهوميري بل والايقون أيضا ينحطان بدون ضدهما. إن أسلافنا العظام لم يعوا التعليم الأرسطوي الأساسي إلا على نحو وسطوي وبالتالي معقد ومشوه ومركوب بالجواهر الوجودات، ولم يعوا المبدأ الأرسطوي الذي مفاده أن «الصورة هي الشكل الأخير». وهو مبدأ أرسطو وهيغل وماركس على حد سواء. بالشكل لا الصورة نتقدم وصلا إلى الشكل الأخير: الصورة. العقل = ضد المباشر. العقل توسط.

لايبنتس سمح لنا بأن نبرز، وراءه وحسب موقفه، مقولتين متلازمتين الفردي والمغايرة الفروقية، ومعهما فكرة الانتقال من العدم إلى الوجود وبالعكس، ضد تعينهما الذي يلغي التغير والتاريخ، بإلغائه فكرة الانوجاد الحقيقية، فكرة ظهور شيء جديد حقيقي.. لايبنتس حل مسألة الظهور، بيّنها أو أبانها كـبير منطقي ورياضي في واقع الأشياء.. عاش وشارك في عصر عمل كبير، إنتاجي، إنشائي..

لنتابع..

ما الفكر وعلم الفكر؟ ما الفكر بة؟ ما هذا الذي يجب أن أدعوه الفكر أس 10 بل إن سمحتم الفكر أس واحد؟ (كل الناس عندهم فكر أسّ واحد).

بالطبع أنا لن أبارح مسألة المغايرة! هذا وعد!

ولا ريب أن سؤالي الآنف يثير عند البعض، أو ان عباراتي أو كلماتي تثير عند البعض اتهاماً بالمثالية، وعند البعض الآخر اتهاماً باللاعلمية.

وأنا أرحب بالاتهامين معاً. وان ورقتي هذه تسجل هذا الأمر (هذا الاتهام) الذي قد لا يفصح عنه أحد.

لكن لا بأس من الإشارة إلى ان الفكر أس 2 (أو أس 10) علماً بأن 2 تكفي! هو اليوم في طوكيو أكثر منه في موسكو. وهو في طوكيو وباريس ولندن أكثر منه في موسكو، التي اليوم تحقق انقلاباً لا مثيل له وفاجأ 99٪ من الناس (ولم يفاجئني) لكنه لم يبلغ بعد ميدان الفلسفة، أساسها، الميدان الغنوزيولوجي خاصة وبالتحديد. ستالين أقام فلسفة ماركسية بديلة بل نقيضة وليس من السهل التخلص منها، ولا يمكن نفيها و إزاحتها إلا بمعركة منهجية تبدأ من الجذر والأساس. الفكر أسّ في طوكيو وباريس ولندن أكثر منه في موسكو. لكن المادية أو الماديانية وما شابه هي في موسكو أكثر. وكذلك «العلمية» أو العلموية، لسوء الحظ. وعند موسكوفيّي وسوربونيّي وأزهريّي العرب...

ولا أحد يجهل أن المثالية هي الفكريّة idéalisme، مذهب الفكرة، وان شئتم الفكريّة. وهذا بالتأكيد لحن يذهب ضد المادة وضد المحسوس وضد الإدراك السليم وهكذا. وضد دوغمائية الإدراك والشيء والمباشر. وضد دوغمائية العلم والعلوم وكل علم من العلوم... فالمسألة إذن واردة دوما...

لماذا يقال: طاليس أوّلُ الفلاسفة؟ وطاليس مخترع فلسفة الطبيعة؟

الجواب: لأنه قام بعملية توحيد، ولأنه تقدم في الفكريّة، في الذهنية، في الفكرنة، أو الذهننة، ضد الموجود والمادة ضد الموجودات والمواد.

قبله: العالم (والعالم آنذاك غير مميّز عن الطبيعة، بخلاف هيغل مثلاً) مؤلف أو مكوّن من أربعة عناصر جوهرية وأصلية، هي «التراب والماء والهواء والنار». وهذه العناصر جواهر. نعلم اليوم أن أمر هذه الواقعيات الفعلية مختلف. وكان هناك شعور بان التراب جسم مركب، غنيّ ومؤلف... إذن غير صالح كأصل وكمبدأ. ان الفكرية هي بساطة.

إذن طاليس يقول: الماء. هذا أبسط من التراب. وهو جسم بسيط، ومادة خفيفة. وكلنا نعلم أن لا حياة بلا الماء!.. الماء هوية ومبدأ وأصل للطبيعة.

لكن هذا لم يرق لخلفه أناكسيمانلر. قال: الأبيرون. ما هذا الأبيرون؟ إنه المادة اللامتناهية أو اللامحدودة... و إن الصيرورة ليس لها كمبدأ أو كسبب تغيّر العنصر بل

الفصل...

أناكسيمنس يقول: الهواء. ويعزو للهواء صفة اللاانتهائية، لكن قوله «الهواء» يعتبر تقهقرا. فهو مادة معينة، محسوسة. إنه أكثر مادية من «الأبيرون». بالمقابل، ان نجد أناكسيمنس هو إدخاله فكرة «النوس» وهي فكرة ذكاء منظم، مهندس معمّر للعالم ومميّز عن مصنوعاته...

ثم نصل إلى هيراقليط، إلى النار وهو عنصر أخف بكثير ومحسوس أكثر بكثير، لكنه بالحقيقة ليس عنصرا ولا جوهرا ولا مادة، بل هو عملية الاحتراق مع الأوكسجين، غير أن هذه القضية لعصر آخر. والمهم أن النار الهيراقليطية هي بالضبط رمز، رمز التحول، الصيرورة، الفنائية، فنائية كل الأشياء. وهيراقليط يختم مساراً ويبدأ مساراً: الله القضاء، اللوغوس، انشطار الواحد إلى اثنين، «الأسماء قوانين الطبيعة»، الخ كل الأفكار اخذها هيراقليط من الشرق، ومن فارس بالذات ما عدا شيء واحد يفاخرون بان هيراقليطهم هو الذي اخترعه. ألا وهو «انشطار الواحد إلى اثنين» في الطبيعة ومعرفتها، في العالم والفكر... وأشدد على كلمة «الواحد» في صيغة «شطر الواحد إلى اثنين» ففكرة الاثنين فارسية، مزدائية، مثنوية دينية وثقافية وفلسفية، هيراقليط يؤكد الواحد. يرفع اللوغوس، مؤكدا الإسم والاسماء، اذن يذهب في الفكرية والفهمية مبارحاً الوجودية الصراعية أو التكاونيّة. ونذكر بلا توقف ان دين الاله الواحد ليس فيه بتاتاً أهورامزدا وأهريمان، بل فيه إله واحد خلق هو الوجود، بما فيه النور والظلام والمذكر والمؤنث، و إبليس مخفض، وهو مأمور، وأصله ملاك متمرّد وساقط، وله دور مع الانسان بالذات، في القصد الالهي الأعلى، وهو عند هيغل وغوته وسواهما حامل النفي أو رمز النفي ومحرك التاريخ كدراما وكمأساة وكتقدم وارتقاء.

فيثاغور يقول «العدد» ويقول «القانون»..

بارمنيد يقول الوجود واضعاً إياه ضد الصيرورة والتغير والفنائية، وهذا الوجود «الثابت نقيض العدم في المطلق هو «الواحد والكل»، ومؤلفه الشعري عنوانه «في الطبيعة»..

زينون الايلي ينفي الحركة أي يفهمها معلناً أن الحركة تناقض، وهيغل يقول إنه «أبو الديالكتيك». هل نفى الحركة أم لم ينفها، هل نفى وجودها أم لم ينف وجودها؟ هذا يتوقف على معنى الكلمات: نفي، وجود. زينون الايلي نفى الحركة بمعنى أنه مفهمها كتناقض، نفى وجودها بمعنى أنه انتقل من الوجه المرئي المشهور جدا (فالبشر والدواب وأوراق الشجر وأمواج البحر والكواكب في السماء والعربات على الأرض هذا كله يتحرك أمامنا، أما مفهوم الحركة فمسألة كبيرة جدا، معضلة طويلة ولن تنتهي)...

ديموقريط يقول: الذرات والفراغ، والحركة. اذن وجود الذرات والفراغ، اذن وجود الفراغ نفسه ووجود العدم. والذرات عناصر، عناصر قائمة ضد «العناصر

الجواهر الأربعة، مقولة «عنصر» جديدة مناهضة للعنصر الجوهر العربق. وهذا الخط الجديد يصل أخيراً إلى لافوازييه وعلم الكيمياء ومندليف مع جدول تصنيف العناصر وإلى روثر فورد الذي يخرق إلى ما بعد، ضد عناد مندلين كمفكر فيلسوف وعالم ظل مؤمنا، حتى يومه الأخير، بأن العناصر التي وصل إليها نهائية، أي هي حد أخير، جوهرا إياها، ومعلنا عدم توحيدها، أي عدم هوية واحدة لها، وذلك رغم الانقلاب الحاصل من سنة 1895 إلى سنة 1905 (بكريل، كوري، روثر فورد). وبالمقابل، هناك بين الفيزيائيين من اعتقد عند النهاية بهويّة ضد الفرق، بوحدة نافية أو منافية للتغاير، أي بجزئيات من نوع واحد، مثلا الالكترون أو مثلا النوتون (بالعربية الكهروب والضوءون): هذا أيضا ثبت بطلانه نهائيّاً. انه محال بالمطلق. العلم يتقدم في الهوية والفرق معا، على أساس الفكرية والفهمية والمفهمة...

لكن هذا الموقف نفسه هو بمعنى ما، موقف الفلسفة اليونانية البدائة على النحو المبيّن اعلاه.

لكن كيف؟ أليس عملها بالعكس؟

نعم، بالعكس. لكن لا على النحو التالي:

بالنسبة لفلاسفة الطبيعة، وكذلك هيراقليط وديموقريط، وأيضا بارمنيد وزينون، ان التحول والصير والحركة، والاختلاف والتباين والتضارب والتفاني، هذا كله هو العالم الخارجي المحسوس والمباشر، والمطلوب فهمه، أي المطلوب هو الفكر، هو المفاهيم، الثوابت، الهويات، ظهور الفلسفة هو الاستجابة الجبارة لهذا المطلب من ألفه إلى يائه.

بتعبير آخر: ثمة وجود خارج الرأس، ويريدون وينشؤون من أجله كوناً رأسيا، كون الفكر.

الماء، الهواء ما زالا بين ــ بين. الأبيرون يقترب جدا من المادة التي سوف يقول عنها هيغل وانجلز ولينين أنها «هي المجرد على وجه الامتياز» وأنها «كيادة هي محض خلق من الفكر وتجريد خالص» (انجلز) و«تبقى هي هي بلا تغيّر» (إنجلز أيضا) وبطبيعة الحال هي «مفهوم» وهي «مقولة فلسفية» (لينين 1908، ولينين يردد: مفهوم، مفهوم، مفهوم concept). والصير مجرد كبير، فكرة بسيطة جدا، إذن فارغ جدا، هوية جد فقيرة، وهنا قيمتها على أي حال! كذلك عدوتها البارمنيدية والخالدة هي أيضا **الوجود** أو **الكون** أو **الهو** (والهوية) Etre. كذلك **القانون**، (هيراقليط وفيثاغور) كذلك **العدد**، فيثاغور، كذلك **الذرة** والفراغ. كذلك **الحركة** عندنا فيها زينون ومؤكدها ديموقريط. جميعهن ثوابت، هويات مفاهيم، أسماء. المادة والحركة هما أكبر وأفرغ مجردين. لكن المادة لم تظهر بعد، ستظهر على يد أرسطو.

والعملية الفلسفية الفكرية هذه تباعد، تفصل تكبر الهوة، بين الوجود المادي

المتخالف والمتباين، والفكر الذي يريد معرفة الوجود، أي فتحه.

لا أحد منهم ينفي المغايرة أو الاختلاف كما نحن ننفيها!! أقصد على طريقة يؤسفني أن أدعوها عربية. الوجود ـ الاختلاف منطلقهم، بديهيتهم، مقابل الفكر ـ الهوية!

عن ذرية ديموقريط وخلفائه الفلاسفة الذين على خط مذهبه، يمكن أن أقول انها مع تأكيدها الهوية أي الوحدة بوصفها الفكرية والمفهومية والعقلانية والقانونية والضرورة الخ تؤكد أيضاً الفردية والاختلاف لكن بالمفهومية، أي بمفهوميتها الماديانية. وبوجه عام، ان كل الفلسفة المادیانية في التاريخ، القديم والوسيط والحديث هي نوع من ثأر للوجود المتغاير والمتفرد، أي لتغاير وتفرد الأشياء أو الكائنات ضد الفلسفة المثالية حاملة الفكر والكون والعقل والهوية، أي أكبر المجردات. لنذكر فوراً ان هذا الميل العظيم الفكري المثالي هو ثلاثة أرباع الفلسفة وتسعة أعشار العقل في تاريخ الفلسفة. علماً بأن المعسكرين الشهيرين المادیانية والمثالية نسبيّان تماماً وأساسها الفلسفة، أي هذا المشترك العام. إذا كانت المادیانية الفلسفية هي ما يظنه ستالين وآخرون كثيرون، عندئذ فلا ديموقريط ولا فيورباخ ولا هوبز ولا كوندياك أو أرستيب يجوز أن نضعهم في صفها، بل يجب أن نضعهم في الصف الآخر، المقابل. فكلهم مدركون ان الذرة أو ان الاحساس والمحسوس هن أيضا وأولا كلمة، وفكرة، حتى وان أريد لها ويحق التعبير عن «شيء مادي» أو عن «مفهوم ما» لكائن مادي. اللحن المقابل هو بالتمام ومباشرة مع فكرة واقع من نوع آخر، مع فكرة علاقة او عقالة، ومع اللغة..

ثم، دخل الإنسان بقوة، واحتل المركز تماماً، مع بروتاغوراس والسوفسطائيين. دخل الإنسان، مع النسبية والاختلاف، وأعلنوا أنه قياس كل الأشياء. السوفسطائية فكر وسياسة ومحاماة.

الكلام في صلبها. يجب أن لا ننسى ذلك. عبروا عن **الحقيقة الذاتية**. ذلك موقف عظيم يقرنه هيغل بفلسفة كنط، او الموقف الكنطي. ان السوفسطائية، والريبية القديمة العظيمة، وهيوم وكنط حالوا دوماً دون خطر تحول الدوغماطية إلى دوغمائية بالمعنى الشائع. فالفلسفة تحت مسألة **الحقيقة** تنقسم إلى معسكرين: الأول يضم تسعة أعشار الفلاسفة، من مثاليين وماديانيين، عقلانيين وتجريبيين، شكلانيين وذريين ـ عدديين وإحساسيين، وهم «أنصار الحقيقة»، ويدعون من قبل خصومهم بالدوغماطيين والنظريين والرياضيين أيضاً. هكذا مصطلح خصمهم العظيم سكستوس أمبيرهيوس، وهكذا في الكتب المدرسية. والثاني هو «خصوم الحقيقة»، الناقدون، الطاعنون: سوفسطائيون، ريبيون، هيوم وكنط. ومسألة الكلام أو اللغة تحتل مكاناً مرموقاً في كونهم الفكري!

سقراط يمثل الانتقال من الحقيقة الذاتية إلى **الحقيقة الموضوعية**، مع لحن: **«الحقيقة»**، العدالة... **الكلي**، **الفكر»** وشعار: «الانسان ككائن مفكر هو قياس كل

الأشياء»، وهو رد السقراطيين على البروتاغوراميين.

أفلاطون مع الايدوس، اذن الفكرة أو الشكل، يمكن ان تقول المثال أو الصورة. لكن على مسؤوليتك! أنت حرّ، إنها مسألة مصطلح إن شئت، أو مسألة ترجمة من الفرنسية idée ou forme إلى العربية! لكن حذار، حذار. الترجمة الحقيقية ذات الأهمية النهائية هي دوماً ترجمة الرأس، أي الفهم، فهم الأصل المترجم. إذن المضمون وبالأدق والأكثر إصابة مسألة المعنى والاتجاه، اتجاه الضربة! على ضربة أفلاطون أولا ثم أرسطو ثانيا ثم العقل الاوربي كله إنما هي موجهة بالضبط ضد ترجمتك! ضد فهمك! وهنا أيضا على قضية العقل. ما ينقص هذه الندوة هو محور يكون «مقولة الشكل ومسألتها ومجاوراتها المقولية في العقل العربي بالأمس البعيد واليوم». أما مسألة المصطلح والاصطلاح، فأنا لا أفهم بتاتا، هذا الاصطلاح العربي! ! من أين جاء هذا اللفظ «مصطلح» ومتى ومن وكيف؟ وما معناه وما إيحاؤه؟ ما اتجاهه وقصده؟ هل نصطلح على كيفنا؟ أنا اجد في هذا اللفظ سلطة بشعة لتيارات اوربية معاصرة أو حديثة، نصف ـ فلسفية، شيئا بروتاغورسياً مبتذلا جدا مضمونه الفعلي الشيء تماما: هكذا اصطلح العلماء، هكذا اصطلح الفلاسفة، هكذا اتفق الغربيون، على هذا اتفقوا أو كما يقال «تواضعوا» الحقيقة اصطلاح، اتفاق بين جنتلمن gentlemen هم العلماء.. لكن أنتم اصطلحتم هذه الكلمة العربية، وليس هم، فالكلمة عربية. أما الاوربيون فيقولون terme أي حد، نهاية، ومفردة لغوية، وهي وثيقة الارتباط بكلمة «مفهوم»، وليس فيها ما يشير إلى فكرة اصطلاح أو اتفاق. ! ان هذه «الاصطلاحية» طريقة لإجلاء الحقيقة والعقل جلاءً تامًا كجلاء الاستعمار عن أراضينا.

أفلاطون مع النكرات ـ الاشكال، أي كليات مفردة يرفعها إلى السماء ويجوهرها روحيا. إذن هو أشهر من نفى الوجود المادي المتخالف والفاني. لكن هنا أيضا يجب أن نفهم معنى «نفي» هذه. أفلاطون يتكلم ضد هذا الوجود عن واقع، واقع حق، مع أنه بطبيعة الحال، يعيش في هذا الوجود المادي، يأكل ويشرب ويعمل في السياسة، أي في قضية المدينة، مصير الناس.. حصان أفلاطون مثلث افلاطون وبيت لينين. لينين يجابه قضية النكرات او المثل الافلاطونية في صفحة لعلها اهم كتاباته الفلسفية، سنة 1916، عبر ميتافيزيقا أرسطو في ترجمة شفيغلر. لنذكر أنه لا يمكن لأحد أن يصنع بيتا أو طاولة بدون فكرة البيت أو فكرة الطاولة. ولا يجوز لحزب الثورة ان يفكر بصنع عالم أو تحويل العالم، بدون فكرة العالم، أي مثلاً بنصف فكرة العالم هذا محال، فهي بالضبط فكرة، فكرة العالم، وهي بوصفها «فكرة» مع اسمها (اذن هي عام) لذا فلا يدرك نصفها ولا ثلاثة أرباعها.. ولنذكر ان الحصان نفسه هو إلى حد ما من صنع الإنسان، فهو «أنبل فتوحاته»، تاريخ الحصان والحمار والثور جزء هام من تاريخ الشغل الذي هو حتى اليوم الشغل العبدي.

ولنذكر أن المثلث أقام علم المثلثات الذي فتح سماء الفلك (قياس المسافات بين الأجرام السماوية ومع الأرض). أخيراً لنذكر أن مدرسة من أهم مدارس الرياضيات في عصرنا هذا تدعو نفسها المدرسة الواقعية الجديدة، لكن الواقعية بمعنى أفلاطون وواقعيي العصر الوسيط.. بالطبع إن جميع رجالها العلماء يعرفون أن الأشياء المادية موجودة، وان الأقلام في أيديهم موجودة جداً، لكنهم يرسلون الينا رسالة! اعرفوا ما الفكر واعرفوا ان الفكر هو الاختراع وان الفكر هو مفتاح الوجود وباني العالم!

أرسطو، استناداً إلى كل السلف الصالح يحول الفكر كفكر وكمحض فكر محاكم إلى الاجرائية المباشرة والعامة، إلى عالم وجود جميع الأشياء ومختلف الأنواع والألوان، في جدوى الفراغ المطلق والجاهز للمنطق الشكلي أو الصوري. وهذه العملية، هذا الاختراع الجبار الذي هو المنطق الشكلي يرتكز على فلسفة أولى، على ميتافيزيقا عظيمة: مذهب المادة والشكل ضد فكرة الاوسية أو substance (جوهر، ماهية). الكائنات المفردة ليست أوسية بل هي مؤلف من مادة وشكل الخ. اترك ذلك، أترك أيضا أخطاء ترجمة شفيغلر التي قرأها لينين (لكن، عملياً، لينين فهم جيداً القضية الجوهرية)، أمّا عن مسألة الأوسية، فنلقل ان مذهب أرسطو هو مذهب أوسية، لكن حصراً ضد عقيدة وجود الفكر أو المثل الأفلاطونية، فأرسطو تلميذ أفلاطون، يتابع عمله، وان الثورة الممثلة بفكرة المفهوم سقراطية وافلاطونية أكثر مما هي ارسطوية، وان الاوسية الارسطوية تابعة وخاضعة تماما لفكرة «المادة والشكل» (والصورة هي شكل، الشكل الأخير، اي ان الشكل هو المفتاح والاداة، وهو ابسط وأفرغ من الصورة)، وهي، ضد أفلاطون، تعلن عن قوامية مادية، وأرسطو يستعمل «المصطلح» اليوناني بمعنى جوهر وبمعنى ماهية، وايضا بمعنى كائن (كائن مفرد)، بل وبمعاني أخرى، واضحة ومحددة ومحكومة بالسياق الأرسطوي نفسه.

أرسطو تبنى «الحقيقة» وعلمن الحقيقة، دهرنها.. الوجود مادة ومشكل، مواد وأشكال. كل مادة هي مادة معينة، اذن هي مادة وشكل. أما المادة «الأخيرة» فهي نوع من عدم. مقولة المادة تعبير عن الخارجية، العالم موجود خارج رأسنا. الوجود مادة وشكل، اذن المادة بلا شكل هي عدم وجود. العالم مادة وشكل، والفكر شكل العالم. والمنطق، علم الفكر، شكل هذا الشكل... المادة كمقولة أرسطوية وهيغلية وماركسية، هي في شراكة حميمة مع المحسوسية والحركية والعددية او الكمية. انها مقولة فيزيقية ـ رياضية بعد الذرة والفراغ والحركة، وبعد الطبيعة والوجود والصبر، ارسطو دشن مقولة المادة، على نحو نهائي! الوجود وجود بالفعل ووجود بالإمكان أو الاستطاعة. وبتعبير آخر: الواقع واقع وممكن.

إن علمنة الحقيقة على النحو المذكور، الفكري ـ الكلي، تعني في جملة ما تعني رد الاعتبار كاملاً للاختلاف، للتغاير، للتباين.. المنطق اعراب للواقع نفسه، الواقع المادي

الدنيوي. و إنه رد الاعتبار هذا قد صار ممكنا وواجبا لان الفكر قد تأسس. المعرفة العليا بيان الواقع المتباين. الفكر اعراب الواقع.

يروى عن افلاطون ان الشعب بما فيه الرؤساء كان مجتمعا في قاعة. وأفلاطون صامت، والناس في انتظار خطابه... أخيرا دخل أرسطو. فقال أفلاطون: العالم يتقدم..

انتهت قصة العقل اليوناني.

– 4 –

نتقدم نيفاً وعشرين قرناً.

إلى لايبنتس مع الفرق، و إلى فويرباخ، و إلى منطق هيغل.

كل الاشياء مختلفة. هذا أولا. لا يوجد ولا يمكن ان يوجد على الارض وفي السماء شيئان اثنان متهاويان اي متماثلان أو متساويان. هذا محال. إنه مناقض ومناف لفكرة الوجود، لفكرة يوجد.

إن حبتين من الرمل اثنين متجاورتين متلاصقتين في المكان – الكون أو المادة – الامتداد مختلفتان، متباينتان، متغايرتان. كذلك قطرتان من الماء النقي «H20» في الوجود. قصدت بوضعي H20 بين مزدوجين، أن H20 هذه هي مفهوم، هي واقع بين أفلاطوني – أرسطوي، فكرة فائقة الواقعية، فاتحة لكل ماء موجود، لكنها هي نفسها ليست وجودا موجودا. وكذلك، تختلف بصمة ابهام ايمن لرجل وبصمة ابهام أيمن لرجل آخر. هذا مشهور. وبفضله يقبض على الجناة. أو يستطيع من لا يعرف الكتابة ان «يوقع». البصمة تعرف على الهوية الفردية.

ان هذه الهوية الفردية ذات دلالة فلسفية كبيرة. انها ليست البتة خصوصية من الخصوصيات تقع بين الكلي والمفرد! انها ليست جوهراً أو نوعا أو جماعة أو فصيلة، إنها ليست أمة ولا طبقة ولا طائفة دينية أو مذهبية. ولا أي شيء من هذا الذي جعله بعضنا حصان حرب دعاوية وتجارية فتاكة تحت اسم الهوية، الذي صار حماقة مطلقة، اي منفلت من العقل، مخيلة قوى حصان الخيال الجامح. انها الوثنية. وهي أيضا العقيدة الشيئية – الرمزية المتنافية مطلقا مع المذهب المفهومي – الواقعي حامل فكرة العقل وفكرة القانون وفكرة مجتمع الناس، المجتمع السياسي الحق. لكن لا بد لي من التأشير بإصبع الاتهام على الوضعانية، على أوغست كونت وجواره وخلفائه...

إن الهوية التي نحن بصددها هي هوية فردية، وان هذا المفرد يحيل مباشرة على الكلي. ان مثال البصمة جيّد لأنه يستحضر حقيقة ان الاغريق قالوا: سقراط انسان، وحقيقة ان فويرباخ قال بالانسان كائن نوعه العام، وبالانسان الفرد ممثلا للنوع العام للجنس البشري، وقال عن فكر الانسان ان الانسان يعرف نوعه و يعرف الأنواع.

الانسان لا الحيوان. مرة أخرى: اللوغوس لا علم إلا بالكلي. أنا لا أعرف هل الترجمة التي قالت لا علم إلا بالكليات «صحيحة أم لا». في اللغة الفرنسية، المعتمد في ترجمة المبدأ الارسطي هو صيغة المفرد: الكلي لا الكليات.

المنطق يعمل اما بالثنائي «عام وخاص»، ومن أجل أن يقول الخاص هو عام، سقراط انسان، أو العرب ناس، وفي الحالة الأولى يكون الخاص رجلا مفردا، وفي الثانية يكون الخاص جماعة من البشر، واما بالثلاثي الشكلي الجبار «كلي وخصوصي ومفرد» هكذا القياس syllogisme، إنه فارغ، عقيم، الخ، كما يقول هيغل، وان العمل الانساني كله هو قياس، فهو سير من الكلي بواسطة الخصوصي إلى مفرد. كل عمل انساني يصب على مفرد. فهو عمل مفرد. والخصوصي وسيط مجبور ومشكور.. الوضعانية مذهب قائم بالخصوصي، ضد الكلي وضد المفرد، ضد الفلسفة، مع خصوصيات ـ جواهر. وهي عاجزة عن فتح أي خصوصي.

إن ورقة على غصن شجرة وورقة غيرها على الغصن نفسه إنما تختلفان. ولو لم يكن الأمر كذلك لما قلنا غيرها أو سواها ولما كانتا تكونان ورقتين اثنتين. لكن هذه ليست مسألة عددية. لقد قصدنا ملايين الأوراق، ما لا يحصى من الاوراق، ما لا نهاية له، في الحاضر والماضي والمستقبل، على الأرض وفي المريخ وأينما كان في عالم الوجود الموجود وعالم الامكان غير الموجود، لكن بوصفه وجودا لا فكرا ومحض فكر، اذن في الكونية. الكلية كونية. وما أجمل وأدق العبارة العربية «غيرها أو سواها». غيرها مؤلفة من طرفين إنها «غير هي». وفي «سواها» ثمة تأثير على المساواة واللامساواة والانفراد أو الانعزال. الورقة الثانية هي مثل وغير. وكل انسان بالنسبة لكل انسان هو مثل وغير. وهكذا كل الوجود الموجود: انه مثل وغير.

قضية أوراق الشجرة، اختلافها، كانت قضية نزهة لايبنتس مع سيدات البلاط في حديقة القصر في ضوء القمر. لم تصدق النساء كلامه، لكن كانت النساء تقطف له ورقتين وتعاين الفروق معه! هذا الرجل، لايبنتس، لم يخدم أية ثورة، خدم ملوكاً لكن خدم التقدم البشري، وخدم فكرة السلام وفكرة حق الناس، وقدم مشروعا لبطرس الأكبر من أجل أوربة روسيا. وربما كان عنده مشروع في شق قناة في برزخ السويس. ولعله رجل «استعماري».

فويرباخ يقول: في بداية «علم الظاهرات» (الفينومينولوجيا) ليس لدينا سوى تناقض «الوجود الذي هو الاختلاف» و«الفكر الذي هو الهوية» فويرباخ يتكلم، في حملته التي لا تلين على المثالية والنظران الهيغلي عن الفرق الذي لا يمحى بين الفكر والوجود» لكن لنقل ان فويرباخ يصيب الكثيرين، ألا أنه لا يصيب هيغل. وان فويرباخ فقير بالمقارنة مع هيغل. يقول إنجلز ولينين.. المبدأ الطبيعاني والإنسانولوجي (الانتروبولوجي) ناقص تماما.. ان مقولة العمل او الفعل او الفاعلية العملية النقدية

والمنتجة قد جعلتها المثالية : فيشته، هيغل، وآخرون.. هيغل فيلسوف التاريخ والتقدم والانسان إزاء الطبيعة.. مع ذلك، لنذكر أن فويرباخ قد ميز «العالم المدني» و«العالم الطبيعي» عندنا من لا يميز، عندنا من يعتقد أن العالم هو الطبيعة او ايضا هو المادة..

ومن أهم أقواله في ما يخص مسألة المغايرة بمختلف أبعادها قوله الذي يختصره ان سبينوزا تلسكوب ولايبنتس ميكروسكوب. لنذكر ان فويرباخ الشاب، المثالي كما يقال، الذي ما زال تلميذا لهيغل، ولم يتحول إلى الحرب من أجل اعادة الماديانية إلى سدة العرش ألف كتابا مهما جدا عن لايبنتس، نال قراءة لينين وحماسه. جورج لوكاش ثمن لايبنتس وكتاب فويرباخ وملاحظات لينين. أعتقد أن قضية المغايرة هي في صلب هذا العمل الثلاثي أو الرباعي..

ومن أهم اقوال فويرباخ أيضا ان شيلنغ العظيم هو فيلسوف الشرق مع الهوية ومع الطبيعة. وهيغل فيلسوف الغرب مع الاختلاف ومع التاريخ.

إيانا أن نتصور ان الشرق المعنى هو نحن، خاصة الآن. نحن لا مع الهوية ولا مع الطبيعة. ربما نحن مع «المادة»، مع «العمل»، بالاصح مع العدم والملاعبة. الهوية الشيلنغية مبدأ فكري طريقي يدعوه ايضا مبدأ اللافرق أو اللامبالاة (indifferance).

هيغل صاحب مذهب هوية أو تهاوي الفكر والوجود.

آتيا من هيغل ومن فورباخ ومثبتا هيغل، انجلز يعلن مبدأ المقاربة اللامتناهية، اقتراب الفكر إلى الوجود، والفرق بين مفهوم الشيء (شيء ما) وواقع الشيء.. الفكر يستطيع أن ينشيء صورة أمنية عن العالم.

المعرفة إعادة إنتاج للواقع بالفكر، إنشاء وبناء لصورته بعملية المفاهيم، أي بتحويل مادة الحدس والتمثيل إلى مفاهيم. المقصود بالمعرفة، المعرفة النظرية، الفكر النظري، العلم، أي الفلسفة أو العلم، وان هذا الفكر بحصر المعنى هو أحد تملك الإنسان للعالم، عالمه، الشكل النوعي المميز عن أشكال اخرى للتملك هي الفن والدين والروح العملية. أما الواقع فهو باق خارج الرأس على حاله كما كان قبل عملية فكره ومعرفته، ما دام الرأس يفعل فعلا نظريا. الفكر في المعرفة حركة، حركة الفكر هي انفكار الحركة الواقعية في رأس الإنسان، العياني المفكور، صورة الواقع الأخيرة. الأمنية، المترابطة والحية، هي حاصل بناء فكري، نهاية وغاية عملية صعود الفكر إلى الواقع، الذي هو العالم المادي.. هذا ما يقوله ماركس في أهم ما كتبه عن الطريقة. هيغل وأفلاطون ينالان حقهما، والتجريبية تنال حقها. يمكن القول، إن قمة النظر القديم أفلاطون وأرسطو وقمة النظر الحديث هيغل وماركس.

وفي هذه الحال، ان المغايرة، أقصد اختلاف وتباين الواقع، هي، في المعرفة نفسها، غاية ونهاية، الصورة، الصورة الأخيرة، اللوحة التامة، هي وحدة اختلاف. يمكن أن أقول إنها «جسم فكري»، بدلا من صورة ولوحة، ما دامت الفكرة «جسم»

تحيل على عمق، على ثلاثة ابعاد، والزمانية بعد رابع. هذا الجسم الفكري إدراك لحركة الواقع، للواقع المتغير. الإدراك، الفهم الفكر، العقل، عملية تثبيت. هذا كان درس زينون الابلي والفلسفة القديمة.

والعلم الحديث يضيف ويبرز ان لا تغير بلا تغاير. لا يمكن ولا بأي شكل من الأشكال. فهم او تصور او تخيل تغير أو تطور او تحول او تقدم بلا مغايرة، تباين، اختلاف. لا يمكن تخيل ذلك، قصدت لا يمكن تخيله في العقل. اما في الخيال، في التخزين، فكل شيء ممكن. العفاريت ممكنة، وموجودة، في رأس الانسان...

لا تغير بدون التغاير. ان اللغة العربية تقول القضية على نحو رائع، وبفضل المقولة «غير»، الجذر، الواحد، أقصد الاسم «غير»، أما الجذر والأصل الفصيح الذي هو ربما فعل ثلاثي يكون «غير»، فهذا لا شأن لي به إطلاقاً، إنه لا يهمني بتاتاً، على الأقل هنا! لكن لنحي أيضا اللغة الفرنسية اللغات الأجنبية : Pas de changement sans différence ولنجمع دائما في رأسنا، في عملنا الفكري لغتين مختلفتين أو ثلاثاً أو أكثر. هذا ليس مفيدا فقط. بل هو ضروري ولا غنى عنه إطلاقا اذا اردنا فكرا. لا تغير بلا اختلاف وخلاف.

لا تحول بلا تغاير. الا أنني الآن أبقى مع التغاير وأريد تقديم نوع من حاصل مقتضب وشعبي للفلسفة كطريقة نظر، على موضوع الهوية والاختلاف. النظر هو النظر إلى الواقع إلى الاشياء. هذا فعل صعب، اصعب الافعال. يمكن أن أدعوه فعل الرؤية المثلث:

1 ـ «أرى إلى» الشيء»، انظر اليه لكي أراه.

2 ـ أرى الشيء»، فعل متعد مباشر.

3 ـ أرى، ارتئي، فعل القرار والحسم فعل العمل الانساني.

إذن للنظر إلى الأشياء.

ـ 5 ـ

كل الأشياء مختلفة... وكل الأشياء متهاوية، متماثلة...

لا يوجد شيئان لهما تماثلا إلا وبينهما اختلاف. حبة رمل وحبة رمل، «ذرتان» من شيء واحد خارج الرأس، نجمان في السماء. ولا يوجد شيئان مهما اختلفا أي تباعدا في الهوية التامة لكل منهما إلا وبينهما مشترك، عام، هوية. الطاولة والكرسي والبيت والحصان والقمر والمربع أجسام، بل أجسام صلبة. هي والماء والهواء وغاز الميثان في أسطوانة الغاز أجسام، وذلك سواء بسواء. الجسم مفهوم فيزيقي فيزيائي، مفتاح في علم الفيزياء، بدءاً بأرخميدس مخترع الميكانيك العلمي، العقل الرياضي، ضد فيزياء أرسطو، الحيوية والغائية.

غاليليو وكيبلر وباسكال ونيوتن يواصلون العلم المذكور. مبدأ ارخميدس ، الرافعة ، اختراعات مادية ، فكرية ـ رياضية ، متنوعة : ان ارخميدس أحد بناة أوروبا «اعطوني رافعة ومسنداً أرفع الكرة الأرضية!». ارخميدس رفع العالم في التاريخ . في الزمانية التي هي منطق. و«الجسم» مفهوم ، عامّ ، كلي : «كل جسم مغطس في سائل يتلقى دفعا من تحت إلى فوق يعادل وزن السائل المزاح» ، كل مقولة هنا هي مفهومية فائقة ، فكرية فائقة ، فائقة البساطة ، فائقة التجرد والتجريد..

الاجسام المذكورة أعلاه هي ، على حد سواء ، أجسام. المفهوم تسوية الجسم ، هذا الإدراك المعظم للأشياء ، مفهوم ، بل هو مفهوم لا مجرد فكرة بالمعنى العادي للكلمة ، انه ليس صورة قلقة وتقريبية ونسبية واصطلاحية أو شخصية أو أمر اتفق عليه عدد من الناس أو جميع الناس ، انها مفهوم مضبوط جدا ، علمي فيزيائي. وهو مفهوم غني. إن مادية أو ماديانية هذا المفهوم الفكري (إنه مفهوم فكري كجميع المفاهيم أيّا كانت) قائمة في هذا الغنى : جسم إذن ذرات ، كتيلات ، كتلة ، جاذبية (تجاذب). وزن أو ثقل.

و«الجسم» أعطى «الجُسَيْم» ، وان هذه الفكرة الأخيرة الهامة جدا في الفيزياء ملتبسة ، شديدة الاتصال بالأصل المادي الحسي ، «الجسيم» تصغير «الجسم» ، إذن فكرة «الجسيم» هي تعميم خطر ، توسيع خارج القطبين eseirapolation لمفهوم قائم في مستوى آخر ، مشتق من الحياة اليومية «الجزي» أفضل من «جسيم» لكن علماء الفيزياء المعاصرة يعرفون عمّاذا هم يتكلمون ، سواء قالوا جزئيات او جسيمات. انها الجزيئات العنصرية élémentaires أو الابتدائية ، تاريخ العلم قسم فكرة الذرة ـ العنصر إلى ثلاث مستويات هي في الفيزياء : كتيلة molécule ذرة atome وجزئيات فائقة الاختلاف والنوع particules ومقسومة اليوم قسمة أو قسمات إضافية في العمق ، نحو الأصغر فالأصغر. و إن الأصغر فالأصغر لا ينقلنا بقفزات من 10 إلى 5 إلى 2 إلى 1 ، أي لنقل بمعدل $\times \frac{1}{2}$ أو $\times \frac{1}{3}$ بل لنقل بمعدل $\times \frac{1}{1000}$ وذلك في عالم الدقائق او الصغائر. هكذا ، وفي الانجاهين ، الطاقة النووية والأسلحة الذرية..

ديموقريط قال بوجود الفراغ ، الفيثاغوريون قالوا بفكرة أو نظرية الأثير. فكرة «الحقل» في القرن العشرين تركيب ، توحيد.

الفراغ أكبر بكثير من المليء. المادة مليئة بالفراغ. والفراغ مادي. الكون هو المكان ، والمكان ـ الزمان. «الحركة هي الوحدة المباشرة للمكان والزمان» (انجلز). هيغل ناقدا كنط هو على خط يقود إلى آينشتاين. حسب الترجمة العربية ، ان espace هي المكان والفضاء («غزو الفضاء») والفراغ («الهندسة الفراغية») والخلاء والفناء والمجال («المجال الحيوي») الكون هو المكان ، مباشرة.

وما قلناه عن حجم الفارغ وقلة المادة ليس فقط حقيقة الذرة أو الميكروكوسم

الفيزيقي بل هو أيضا حقيقة الكون الفلكي الكبير، الماكروكوسم. ان الكثافة المتوسطة للكرة المادية التي تشمل الشمس والمنظومة الشمسية الكوكبية حولها هي 2×10 أس ناقص 9 أي 2× $\frac{1}{10}$ مضروبة بنفسها 9 مرات. و إذا وصلنا بالكرة المادية بادئين من «عندنا» أي من المنظومة الشمسية حتى أقرب نجم إليها ألا وهو النجم «الفاسنتوره» عندئذ تنحدر الكثافة المتوسطة إلى 2×10 أسّ ناقص 20! وهكذا وهكذا..

لا يكفي أن نقول، ان نصل إلى مئة ألف سنة ضوئية، لا يكفي أن نتكلم بلغة المسافة، بل الأفضل ان نتكلم بلغة المادة، «المادة = الفراغ»، قلة المادة، صفرية المادة. الانطلاق اليوناني صحيح. بالحقيقة ان هذا الذي نحن بصدده اصحّ أيضا وبكثير إن شئتم في حضارات سابقة، في الهند والشرق، مع فكرة العدم وفكرة الصفر والانقسام اللامتناهي للذرة الفينيقية والهندية. ان الصواب اليوناني هو في انهم أرادوا ان ينكروا القضية وأن يقيموا الفكر إيجابيا، لكن بعمق، وعلى أساس نفي المادة و إن بشكل جديد، قابل لبسط صاعد. عدم الدنيا قاعدة ومبدأ ومنطلق من أجل معرفة الدنيا، وليس غاية ونهاية بتاتاً. إذ في الحاصل، ليس همّي أن أعرف الوجود والطبيعة في العام والمجرد الوجودي او الوجدي والجداني، بل أن أعرف المواد والأشياء، ان نصنع قلما وطاولة وبيتا، وان اعرف ان الوجود والطبيعة والكون هي مجردات، وان اعرف ان العالم غير الطبيعة بحاجة إلى تعينات كثيرة اضافية لكي تصير عالما، ولكي أعرف ان عالم الانسان نتاج الانسان وعمله، ولكي اعرف وأؤكد أن كل موجود في العالمين الطبيعي والاجتماعي على حد سواء إنما هو منتَج وناتج ونتيجة..

الطاولة والقمر والحيوان والماء والهواء اجسام، على حد سواء. والطاولة والقمر والهواء والعفريت والعدد والمادة والقيمة والانتاج والدائرة والخط والعدد 24,89 والملاك والشيطان والفراغ والأثير والطبقة والامة والجن والحزب والشعب والجماهير الخ هن جميعا، على حد سواء، ماذا؟

أممكن؟ أمعقول؟

جواب الفلسفة أي الفكر، أي المنطق: ليس فقط هو ممكن بل هو ضروري مطلقا. بدونه أنت خارج اللوغوس، خارج اللغة. والاجابة على سؤالنا الآنف هي: جميعهن، كلهن، على حد سواء، كلمات. كلمات، اذن وبالتالي صور، فكرات.

هذا أولا. ومن يقفز من فوقه إلى ما بعده، من يتصور أن ثانية أيا كان هو الأول وهو المبدأ والبداية إنما يقع دون الفكر ـ العقل ـ علم الكلام الحقيقي! وليس المهم أن «اكتشف» ان الطاولة والقمر والضوء موجود بينما العفريت غير موجود، بل المهم أن أتبين كيان العدد والمادة والقيمة والدائرة والخط والجن والطبقة والأمة والشعب والجماهير الخ.. ومن لا يعرف ذلك ساقط تحت إغواء ان يعتبر الطبقة والامة والحزب والجماهير موجودات كالطاولة والقمر، فيحولها بذلك إلى عفاريت! ان عفاريت الفلاح الايطالي

(حديث غرامشي) والفلاح الروسي (حديث لينين) والفلاح عندنا وفي العالم الخ لا يجعلها الفلاح بتاتا ستراتيجية فلع وزرع وكدح. أما عفاريت الثوار فقد صارت استراتيجية عمل سياسي، ملاعبة مادية خيالية بمصائر الشعوب.

كل الأشياء مختلفة ومتهاوية.

يمكن توحيد الوجهين باللغة العربية كما يلي:

كل الأشياء متشابهة، متشاكلة. هكذا البداية، بداية النظر! وان مهمة العلم أي المنطق هي فك التشابه و إعراب الأشكال بيان الهويات والاختلافات. على أساس العلاقة أو الفعالة الكونية ضد كل جوهرية ماهوية، في مذهب فكري ـ فكري، قوامه العقل. ان مهمة الفكر إقامة فصلات فكرية؛ «بعكس» الفصلات المادية في المادة ـ الامتداد، والكون المكان. إن مهمة المعرفة إقامة منطق الأشياء.

إن فك التشابه معناه شطر معنى التشابه إلى اثنين، إلى ضدين مفهوميين، نقيضين فكريين. من التشابه ننتقل إلى الهوية والفرق، إلى التهاوي والإختلاف، إلى مثل وغير وذلك عن كل الاشياء.

بتعبير آخر: إن استقراء الواقع هو استنطاق الواقع. الاستقراء استنطاق، هذا أقوله بالعربية. لا يمكن قوله بالفرنسية مثلا، ولا بالانكليزية، ولا ربما باللغات الهندوأوربية عموما.

اللغة العربية فلسفية جداً. ليت هيغل كان يعرفها! اللغة العربية تتجاوب بقوة مع فلسفة هيغل واليونان كمنطق.

الاستقراء استنطاق. وهذا أجعله على سبيل المثال حاكما على حكاياتنا المدرسية الملتبسة حول الاستقراء والاستنتاج. المحاكمة هي حكماً الاستنتاج. والاستقراء بحصر المعنى أو بمعنى induction الشهير ليس الإنتقال من الخاص إلى العام (ناهيك عن أن يكون انتقالا من الجزئي؟ ومن الجزء!!! إلى...)، بل هو رؤية العام في الخاص!

إنه حدس، حدس هو رؤية العام في الخاص، ومصادرة جبارة على تفرق الدنيا وتباينها. لن أدخل هنا في نقد بعض كتبنا المدرسية، لاسيا بعض كتب تعليم نحو اللغة العربية، لكن أشير إلى ان العواقب، عواقب حكاية الاستقراء المزعوم، وخيمة تماما، وليس من باب الصدفة أن يكون المردود قليلا جدا ولا يتناسب بتاتا مع المجهود المرعب!!! ان ارخميدس لم يعمل عشر تجارب، ولم يلملم دنيا الأجسام والسوائل. وان ميكلسون ومورلي لم يكررا تجربتهما مرتين أو ثلاثة. مرة تكفي ونيف. واذا جاز أن نقسم عمل العلم في يومنا هذا وفي ماض غير بعيد، إلى فكر ـ عقل و إلى تجربة، قسمة حسابية، وجب علينا القول، إن الفكر ـ العقل هو 95٪ والتجربة 5٪، وفي الماضي لم يكن الجانب الأول دون الـ60٪. لكن الحسابية هذه مغلوطة بوصفها حسابية، والمهم أيضا أن التجربة المخبرية مثلا ليست هي تجربة التجريبيين أو خبرة الخبريين، بل هي

امتداد نوعي مرئي للفكر النظري الفاعل، الفاعل نظريا وعمليا. ان مليون مخبر علمي لن يفيدنا في حالة غياب فكرة الفكر وعلم الفكر الذي أساسه علم الكلام..

ننتقل إلى موقع ثان.

كل الاشياء مختلفة. لكن: لو كانت كل الاشياء مختلفة على نحو واحد، لعدنا وسقطنا في هوّة الهوية. لا فرق كبيراً بين أن أقول «كلو مثل بعضو» (كل بعضه مثل بعضه) و«كلو ضد بعضو» أي كله في تخالف وتضارب وتناقض، كله متخالف ومتغاير ومتفان.

ولتغفر لي المصطلحات: هذا موقف شرقي، هندوكسي، بوذي تصوفي بمعنى ما. انه نيرفانا، سكينة، إنه العدم.

المصطلحات، الحدود، ومنطق الحدود، فكرة السياق وفكرة القضاء (كل تحديد هو نفي) العبارات ذات قصد، ذات معنى محدد، الطلقة طلقة لا أكثر ولها هدف هو (نقطة مادية). ان المنطق (أرسطو) هو (عربيا) محاولة عظيمة تأخذ العالم تحت الجملة الاسمية. لكن في كل «جملة اسمية»، لا المبتدأ مستغرق في الخبر ولا الخبر مستغرق في المبتدأ...

البوذية بوجه خاص موقف عظيم، بل عظيم معرفيا. وليس من باب الصدفة أو الجهل ان حيي إنجلز، تحت فكرة العقل الهيغلية Vernunft مقابل فكرة الفهم الهيغلية Verstand اذن تحت «الفكر الجدلي» الذي هو «الفكر العقلي» الاغريق والبوذيين، كمثالين خاصين عاليين وبارزين للديالكتيك، ربما لديالكتيكين إثنين كلاهما فكري وعقلي... اترك هذا الامر هنا.

لكن ربما يجب أن أقول: إن البوذية غير الغرب دينا وفلسفة وثقافة. الغرب: الله «إله واحد» عالٍ وأشياء و إنسان وتاريخ.

البوذية: ألوهة وطاقة (بدلا من إله ومادة).

اليابان استوعبت الغرب (اقليدس وارخميدس وفيثاغور وديكارت..).

والبوذية موقف متسامح ورحب، البوذية والكونفوشية تخدمان مجتمعات الشرق الاقصى كمجتمعات بشر..، لكن هل للبوذية كمعرفية (ألوهة وطاقة) دور في نهوض اليابان، في العلم والتقنولوجيا؟ بالطبع قصدت بالمعرفية «نظرية المعرفة» أي «الغنوزيولوجية». وقد أكون مخطئا في سؤالي وفهمي. لكن لا ضرر من طرح السؤال. فهل من مجيب؟ هل البوذية هي روحيا ومعرفيا كما وصفتها؟ وهل يمكن فهم اليابان والصين والهند الصينية وكوريا بدون البوذية والكونفوشية؟ وبدون اقامة المعارضة معنا: مع «الغرب» قاطبة؟ وهل نفهم ذاتنا العربية بدون المعارضة المذكورة؟ لاسيا وان العرب هم في «اللوغوس أي الكلام» وهذا ما يعطي الفراهيدية والخوارزمية وغير ذلك من ابداعات عظيمة...

إذن، لابد من الانتقال إلى موقع ثان يمكن أن أدعوه، بعد «مبدأ الهوية أو الاختلاف» العام الكلي الذي لا استثناء فيه، مبدأ «اختلاف الاختلاف».

كل الاشياء مختلفة، لكنها ليست مختلفة على نحو واحد. إن اختلافها مختلف أو متخالف، متباين، غير متساو. وهذا المبدأ هو مبدأ «الهويات» بصيغة الجمع، الأنواع، المجموعات، الأصناف، الفصائل، طبقات الكائن المترابة عمودياً (عمق الكون، وعمق الكائن المفرد على حد سواء،) مبدأ المقولات أو المقولية. الطاولة طاولة والكرسي كرسي، والذرة ذرة..

وقد يحتج القارىء. اتعبتنا، صعّبت الأمور، تمخض الجبل فولد فأراً. نحن نعرف أن الكرسي كرسي والذرة ذرة والطبقة طبقة والعدم عدم ـ لا! أنت لا تعرف شيئا. لا تعرف، في فلسفتك على الأقل، ان الكرسي كلمة وعام وكلي وفكرة، ولا تعرف ان الكرسي وان الاشياء من حولك وان العالم الموجود حولك (المدينة والحقل والانواع النباتية والحيوانية). هو نتاج الإنسان وليس «موضوع طبيعية» أو شيء طبيعة وأنت تتصور أن الطبقة موجودة مثل الكرسي، وتعتقد ان فكرة المجتمع وحقيقة المجتمع مستنفدة في طبقات المجتمع، اذن هي نفسها لا كيان ولا حقيقة لها. اخيرا لا تعرف ان الفلسفة كانت ومازالت رسالتها وعملها تصعيب الكلمات، وان جبل اليونان تمخض فولد مفتاحا كبيرا، شيئا عظيما نعلمه لاولادنا: طاليس، فيثاغور اقليدس، ارخميدس، اضف ديكارت وباسكال ونيوتن الخ: هكذا البرنامج والكتب! لكن الناقص هو افلاطون وارسطو.

إن المنطق هو فكرة طابع عمودي للكون والكائن. في المنطق الشكلي الارسطوطيلي للعصور الوسطى كان التراتب محصورا في مرتبتين هما الجنس والنوع، اللذين هما عندهم الكلي والخصوصي، وتحت الخصوصي يقع المفرد. على أي حال كان تراتبا! وكانت هي القرون الوسطى مع عالم الأصناف أو الطوائف».. كون طوائفي وطائفي. ولقد لعبت المعرفة البيولوجية عند أرسطو نفسه دوراً كبيرا في صوغ و إنشاء علم المنطق الارسطوي (وعلم أرسطو البيولوجي أكثر علمية بكثير من علمه الفيزيائي وذلك بفضل مقولة الشكل الجبارة. ثمة خط من أرسطو إلى البيولوجيا العلمية في القرن التاسع عشر، مع داروين) لكن، عند أرسطو، السائد هو المعقولية الحرة، الغالب والحاكم في فكرة «الحد» هو التضمن (أي السمات، الكيفيات، خصائص الشيء) وهو حاكم على شمول الحد او اتساعه (موجوداته من كائنات وجماعات ـ كائنات) منطق السكولاستيك الوسطوي. قلب العلاقة، غلب الشمول على التضمن، وفعل ذلك تحت سلطة ونفوذ الاسميين، اي ماديانيين العصر الوسيط، لا الواقعيين الافلاطونيين، ولنذكر بوحي من اللغة الفرنسية (من كلمة compréhension و comprendre، بأن فهم الشيء هو فك تضمنه) التفهم إفصاح التضمن..

إذن المغايرة. هذا يعني، عقلانيا، العقل عقالة في الكونية ضد جوهرية الصنف. الحرية تبني عقلا وقانونا وضرورة في عالم الانسان.

أجل الحرية هي الضرورة المفهومة جيدا، كما يقول انجلز وبليخانوف ولينين. أجل الحرية هي وعي الضرورة.. لكن لا يمكن أن أخلط الحرية مع الارادة والهدف. الحرية تفترض وتتضمن حتما فكرة الخيار، فكرة خيار ما في عالم احتمالي أو محال. والحرية تبني المجتمع والعقل.. القيمة هي كذا وكذا، القيمة هي بالضبط علاقة مساواة بين المنتوجات الأكثر اختلافا (مثلا بين علب الدهان وقصر جميل في شارع أوكسفورد ستريت بمدينة لندن: كما يقول ماركس، المقدمة 1859، وبالضبط ضد الذين لا يريدون هذه المجردة الكبيرة جداً والخالصة تماماً)، لكن التبادل الفعلي هو الذي يحقق القيمة ويظهرها ويجعلها واقعاً. القيمة المحض أو القيمة التبادلية ترتكز على القيمة الإستعمالية أو الانتفاعية، المنتوجات سلع (بضائع) commoditées, marchandises... الاتحاد السوفياتي، بعد ابتعاد طويل، أدرك ذلك، لينين أدركه إلى حد كبير جدا منذ سنة 1921، عقب الحرب الأهلية ونظام شيوعية الحرب. بتعبير آخر: يوجد فعلاً واقع، هو الواقع، لا الهدف يجب الاستمرار في استكشافه واكتشافه...

إن المقولية الصحيحة حرة. اما العقل مع فكرة الشكل والحد والكيف المستندة على فكرة العلاقة (العالم مأخوذ تحت الجملة الاسمية: أ هي ب، وكل شيء يمكن أن يكون أ المعنية، بلا أي استنفاد من أي طرف للآخر، في كل مرة) و إما شيء عميق هو «جوهر - مادة - ماهية» ان فكرة الجوهر الصحيحة تابعة وخاضعة لفكرة العلاقة / و / أو النسبة.. بلغة الرياضيات الحديثة في التعليم المدرسي، لنقل: إن «المجموعات» حرة. هكذا الفكر في المعرفة.

الماركسية السوفياتية تجاهلت السوسيولوجيا بوصفها علما غربيا وبرجوازيا. الآن ثمة انقلاب. الماركسية السوفياتية استغنت عن فكرة «الزمرة الاجتماعية» groupe بفكرة «الطبقة». ضحت بالزمرة أو الفئة على مذبح الطبقة التي صارت عدما وغولا.. والحال، ان الانسان ينتسب إلى زمر متعددة. الطبقة لا يمكن أن ترقى إلى كلية الزمرة أو الفئة. في المجتمع الاشتراكي المحقق، تختفي الطبقات closses بالمعنى الماركسي الحصري، ناهيك عما دونها، لا الزمر أو الفئات. لاشك ان الزمر تتعدد وتتنوع وتتكثر. وهذا جزء لا يتجزأ من عملية صير الانسان الفرد ممثلا للنوع! كثرة (تنوع) العلاقات هو الكلية. حين تعددت وتكثرت وتخالفت الأعمال وصار انتقال الانسان من عمل إلى آخر ممكنا وفعليا في المجتمع (في المجتمع المدني البرجوازي الحديث، والولايات المتحدة بشكل أخص)، أعلن آدم سميث مقولة الشغل، كليا عاما مجردا هو محض فاعلية الانسان الذاتية، مجردة عن موضوعات الشغل، ومن فوق الانواع (زراعة، صناعة، تجارة)، يقول ماركس (المدخل، 1857) والزراعة تصير أكثر فأكثر صناعة، والمجتمع المدني تجارة بين

الناس.. هذا وارد في النص المذكور وسواه. و«التاريخ تنويعة على الاشكال» (أيضا في النص). وأنا، قبل عرض التاريخ العربي مثلا كتعاقب زمني معلوم، أهتم بالمنطق في التاريخ، كتنويعة على الأشكال، كسمفونية متموجة، وأضع المدينة المنورة ومدينة أثينة وكومونات العصر الوسيط الأخير في الغرب والمجتمع البورجوازي الحديث ومدينة أوغاريت الخ في صف وأضع مجتمع المماليك والعثمانيين وغيره في صف مقابل.

□ □ □

المغايرة، التاريخ والسياسة

- I -

الهنود أو الفرس اخترعوا لعبة الشطرنج ولعبة الزهر، الاولى تعني أن الحياة جد وتعب وكد. والثانية الحياة عبث ولهو. طاولة النرد مؤلفة من أربعة صفوف تمثل الطبائع الاربعة، والثلاثون حجرا هم بعدد أيام الشهر، والاسود والابيض هما الليل والنهار في قسمة عدل، «وأما فصا النرد فهما القضاء!». هكذا العصر العباسي (ترف وعبث، العرب أسياد العالم والتجارة، يوجد شعر خمريات ويوجد شعر كثير في الباذنجان من فارس الى الاندلس...)، حسب كتاب شوقي ضيف.. ونحن اليوم (وأنا يوميا) نلعب طاولة الزهر...

علينا أن نرى القضية عند الافرنج او الفرنسيين، عند العالم الجديد أو الأخير...

قبل ذلك، لنتذكر بأن مقولة القضاء مقولة عظيمة متلازمة مع العقل ومع الفكر. أمام عشوائية الدنيا وعبثيتها، العقل يحمل مطلب الضرورة، الفكر في المعرفة يأتي الى الواقع المتخالف جدا حاملا فكرة العقل والضرورة والقانون والهوية. وكذلك الاديان الكبرى. وكذلك العقل الشعبي.. والقضاء هو «القضاء – الحظ»... لكن الفلسفة أو العلم تتقدم مع عمل البشر، مع نمو سيطرتهم على المصادفات والاعراض والطوارىء بمختلف أنواعها. عندئذ تبرز وتنمو فكرة «الضرورة» العلمية فكرة التعيُّنية أو الحتمية وما شابه. الانسان يكتشف قوانين الطبيعة ويسخرها، التقنية توسيط الطبيعة ضد الطبيعة، بتوسط الفكر... غير ان فريقا من العلماء الفلاسفة، اذ يريدون «نظرياً» الانتهاء من الحظ ومن الصدفة والعرض والطارىء، دفعة واحدة، يعلنون أنه لا توجد مصادفة أو ما شابه، أليس كل شيء ضروريا (بالأصح لنقل من جهتنا: أليس كل ما وقع وقع)؟، إنهم يرفعون العرضي الى مرتبة الضروري في ليل تصير فيه كل البقرات سوداوات. إنهم

يساوون بين كون هذا الجسم سقط على الأرض وسيسقط حتما هو وغيره إذا تركته من بدي، أو كون الحديد يتمدد بقدر معين أو نسبة معينة، بدرجة الحرارة وبكونه حديدا لا خشبا أو نحاسا، وكون بعوضة لسعتني في الساعة الثالثة والربع صباحا عند كتفي الايمن... هكذا يقول إنجلز.

الا أن خط العلم والجدوى، الخط الكبير والصاعد نموا، كان غير تلك المادبانية التي وصفها إنجلز بالميكانيكية والميتافيزية، والتي، لنقل ذلك، لا تتعامل مع المقولات كمفاهيم، لا تأخذ وعي المفهومية والفكرية والكلام، لقد ذكرنا سابقا ان المادبانية كانت في جملة ما كانت حربا على اللغة، على العام، على أشباح اللغة وأصنامها وخداعها، حربا لها ما لها وعليها ما عليها بيكون، هوبز؟.. ديدرو وماديانبو القرن الثامن عشر بل أخيرا فويرباخ، لكنه فيلسوف أكبر شأنا بكثير وأكثر إنصافا و إصابة في موضوع اللغة. المسافة من بيكون وهوبز أو من الاسميانيين... الى فويرباخ كبيرة جدا، إنه هو القائل «في اللغة لا يوجد سوى الكلي» وقائل أطروحات أخرى فائقة الإصابة، بل يمكن القول إنه جامع ملف اللغة أو الفلسفة. واللغة هي الكلام لا لغة معينة من لغات بني آدم القومية!

إذن يقسمون (مقولية) الضرورة الى ضرورة وعرض أو الضرورة تضع ضدها المفهومي: عرض، مصادفة، الخ. الواقع الموجود كله أعراض، مليء بالاعراض والطوارىء هذا أولا!!

لعبة الزهر وصلت الى الافرنج. أخذوها. الشرق أمة معطاء، العرب أمة أخاذة. آلاف الاشياء، آلاف الامور، أخذها الغرب من الشرق. والأخذ الأعظم، لكنه لا يبدو لي أنه من الشرق، هو أخذ الوعي prise de conscience، الوعي ليس بدهية البتة. وأنا لا أوافق الذين يقولون «الوعي بالشيء» ولا حتى «وعي الشيء»، «واستيعاء» أفضل، لكن الافضل تأكيد فكرة الاخذ. إن apprendre (التعلم والاكتساب والتدرب) وcomprendre (الفهم، تفهم شيء ما) من prendre فعل الأخذ والإدراك، أخذ أو تناول. ثمة انفصال أصلي، مشدد، ثمة ذات وموضوع هو «مشلوح أمام» objet وGegenstand (منتصب ضدّ)، يجب أخذه قطعة قطعة، جانبا جانبا بدون مد اليد، أي باليد الفكرية وحدها. إني آخذه فيصير معي comprendre والوعي conscience يتضمن فكرة العلم science. و إن خصوصية الوعي، الذي هو الفكر الانساني، ازاء فكر الحيوان، هو انه حامل فكرة مستقبل وماضي وحاضر، فكرة ديمومة، فكرة الحاضر الحقيقي، صيغة المضارع العربية (لا الماضي الحدثي، بل ضد الماضي الحدثي شقيق أو شريك كون الأشياء المتعازلة أوحل الواقع في وقائع - حوادث، و إن الحادثة هي فكرة عرضي!!)...

لعبة الزهر أخذها الافرنج. ألغوا الطاولة واستبقوا الزهر (النرد). إن الزعم القائل إن

الشرق يبدع والغرب يركب (كلام الدكتور ياسين عربي) فيه تمجيد مبالغ للغربيين، فيه تقصير عن نقدهم ولومهم. إن الغرب حاذف، فقير، مثلا باخ ألغى معظم الأنغام واستبقى نغمين فقط هما العجم والنهاوند، الماجور والمينور، فأفقر الموسيقى الاوروبية. بينما نحن موسيقانا غنية جدا. كم من الموسيقيين والشعراء الموسيقيين والاذاعيين الموسيقيين، العرب، قالوا هذا الكلام في السنوات العشر الأخيرة؟ (لن أقدم لائحة، ولن أذكر أسماء!) بالنسبة لهم، الثروة هي عدد الانغام، الثروة هي عدد شيء ما!! إن فكرة الفكر والفكرية ملغاة. فهي، «على سبيل المثال»، وهذا أمر لا يخطر في بالهم، فكرة شيء بسيط جدا، عنصر صغير، يجرد ويصير مبدأ قابلا للبسط والانماء. (أترك مسألة: اذا كان الشرق يبدع إبداعا بلا تركيب اذن فالشرق هو الله، الله حلول في الشرق!)...

ألغوا الطاولة واستبقوا الزهر. استولت عليهم الدهشة، الدهشة الحقيقية أم العلم والاختراع والاكتشاف. وكلمة «الزهر» العربية صارت le hasard: المصادفة المقولة الفلسفية والعلمية، المفهوم الكلي المطلق في الكون، في جميع الميادين أو المناطق بوصفه منطقا من الزهر (انظر قاموس لاروس الصغير!).

هيغل يقول: كل علم إنما هو منطق، منطق تطبيقي أو منطق مطبق Toute science est logique appliquée.

ولنقل إذن بالعربية: المنطق يقيم مناطق، مناطق هي ميادين، حقول، علوم انضباطات disciplines. المنطق يقيم مناطق، ومناطق جمع لمنطق ولمنطقة، بآن معا. الاستقراء استنطاق. المناطق التي نحن بصددها (أي العلوم) هي مناطق فكرية ـ مفهومية لا مناطق مكانية مادية في الكون ـ الامتداد. إنها مناطق الكون ـ العقل. فالكون عقل، صار عقلا، أخذ ويؤخذ بالفكر، في الفكر والذهن والروح.

ونحن الآن مع هذا المنطق، هذه المنطقة المنطقية: «علم الزهر» علم القضاء، بدلا من أدب النرد والقضاء. كله أعراض، تصادفات، طوارىء. والفكر يحمل الى «كله». العقل والضرورة والقانون، يكتشف قانونية النرد والزهر وكل عشوائية الدنيا!

الشفالييه دو ميريه يلعب النرد يوميا، ساعات وساعات، يوما تلو يوم، أسبوعا تلو أسبوع، وهكذا، وحده بلا أحد سواه، وبلا طاولة، ليس بفصين، بل بفص واحد ثم فصين، ثم ثلاثة، ثم أربعة، ويسجل النتيجة: شيش بيش يك (6، 5، 1)... ويعد ويجمع ويحصي، ويقارن ثم يكتب الى باسكال صديقه: ان التشكيل 5، 4، 2 ظهر 1321 مرة، بينما التشكيل 5، 4، 4 (التشكيل بمعنى لعبتنا، بمعنى اللعبة الفعلية، أي بتساوي الزهرات، وعدم تمييزها، أي بعكس ورق اليانصيب) جاء 1235 مرة فقط. أفلستُ مُخطئا؟ ألا يجب أن تكون النتيجة واحدة؟ باسكال أجابه: لا! العقل يقول ويقرر أن النتيجة المادية الفعلية صحيحة، ولو حصلت على ما يقرب من المساواة

لكانت تكون تجربتك «باطلة»، زهرك مغشوش مثلا، احتمال التساوي ضئيل جداً، يمكن حسابه، فأنت لعبت عدداً كبيرا من المرات وليس عشرين أو مئة أو ألف مرة، بل لعبت عشرات الالوف وهكذا. إن القارىء يعرف أن احتمال 5، 4 في لعبتنا نحن (زهرتين فقط) هو 2 من 36 بينا احتمال 4، 4 هو 1 من 36. ونرجوه من جهة أخرى أن لا يدقق روايتنا، فقد أردنا عرض القضية بأسهل ما يمكن... إنها قضية الفكر ـ العقل.

اذن باسكال (اللغوي، الاديب، الفيلسوف، العالم الرياضي والعالم الفيزيائي، الاوغسطيني «الجبري» حليف وصديق ديربور رويايال، ضد اليسوعيين وضد فكرة «التحكيم الحر» وضد التحييلات) أسس علم الزهر، «نظرية الحظوظ» حساب الاحتمالات. معه وقبله غاليليو وآخرون، ثم في القرن الثامن عشر: الرياضيون الفرنسيون في بطرسبرج وباريس (وسويسرة) يلعبون الاحمر والابيض (الطرة والنقش) في رؤوسهم، يخترعون المعادلة المعروفة باسم «مفارقة بطرسبرج»...

وهكذا يقوم علم جبار علم غاوس ولابلاس وكيتليه وبرنولي وأولير: حساب الاحتمالات والستاتستطيقا، التي ترجمناها «علم الاحصاء» و«الطريقة الاحصائية»، وهي ترجمة لا تفي بتاتا بالمطلوب. لنقل إن الستاتسطيقا statistique هي علم الحالة état، منطق الحالة ضد فكرة الشيء وفكرة الجامد وفكرة الكتلة وفكرة الجوهر. الكتلة كتيلات molécules، هكذا الفيزياء! و إن الكتيلات في جسم متحركة جدا، الجسم هو، هامد! حركة «العناصر» الصغيرة تلتقي كمجموع، إنها عشوائية، يبطل بعضها بعضا.

لنقل! كثرة حركة الافراد، صمود أو عطالة الجماعة العشوائية هي فعلا شيء ضد العقل.

لكن العلم يكتشف عقلها، على صعيد المجاميع الاعداد الكبيرة. إن كل اتجاه المعرفة العلمية في عصرنا ليس «نفي» العشوائية، إنكارها، القول بأنها غير «موجودة»، بل هو بالعكس: 1) الاعتراف بالعشوائية. 2) قوننة العشوائية. إقول «قوننة» ولا «أقول تقنين».

العلم الستاتسطيقي فيه «قانون الاعداد الكبيرة مع التابع العشوائي (منحنى غاوس أو في مشكل الجزس) والمتوسط (الذي هو متوسطات مختلفة (moyennes) والانحراف، ولا سيما «الانحراف التربيعي الوسطي» (وهو صيغة «معقدة» نسبيا) و«معامل ترابط بيرسون»... جميعها قوانين، مفاهيم، مصطلحات، «أسماء»، لوغوس هذا اللوغوس هو لغة الحالة. فالحالة ناطقة تماما. وهذه المنطقية العلمية غزت جميع المناطق، علوما وتقنيات مثلا اذا كان الباحث الزراعي العلمي زرع عينة منتقاة من فصيلة فاصولياء في مربع من تربة متجانسة (بقصد تحقيق التحسين والوصول الى فصيلة جديدة) واذا

حصل على توزع أو انتشار للمحصول في شكل منحنى غاوس لكن مع ذروتين (وسطيين) بدلا من ذروة واحدة، عندئذ تكون العينة مؤلفة من فصيلتين بالتأكيد بالمطلق!

اذا صمم معمل للسجائر وأنتج السجائر طول 12 سم مثلا وأخذ عينة من 10 آلاف سيجارة، فإنه لا توجد سيجارة تحقق أو يمكن أن تحقق الطول المذكور 12 سم بالتمام. 12 سم هي «المفهوم» على قضية الطول منفردة ومجردة، والاطوال الفعلية (1، 12 سم، 2، 12 سم، 11,095...) هي واقع أطوال السجائر الحقيقية. اذا ابتعد المتوسط الفعلي قليلا نحو اليسار أو نحو اليمين، يمكن للمصمم ان يحسن، أن يتقدم في الدقة، في مطابقة واقع الشيء ومفهومه.

هكذا فقد تقدمت الميكانيقا، علم أرخميدس وغاليليو ونيوتن، وتجاوزت نفسها. الى ميكانيقا ستانسطيقية الى «آلية حالية».

وبفعل هذا التحول، تردم الهوة بين الميكانيكي والحي في علم عصرنا!

إن المذهبين السابقين، الآلي والحيوي، في قضية الحياة، باطلان، جرى تخطيهما الآن، نهائيا.

وبالحقيقة، إن الفلسفة العظمى لم تقع في المذهبين الآنفين. ولنذكر موقفا مأثورا لكانط وهيغل: في الكائن الحي، إن كل الامور هي بعضها لبعض وسيلة وغاية بآن. كنط وهيغل والماركسية الصحيحة حملوا دوما فكرة الغائية، فكرة «غائية داخلية»؛ كانت موضع رفض وسخرية من جانب الوضعانية... وإن ألتوسير مثلا، في الستينات من هذا القرن، يطرد الغائية وفكرة الهدف البسيطة حتى من العمل الانساني، يتكلم عن ممارسة هي انتاج لمنتوج، بلا هدف، وعن «ممارسة سياسية» تحط المجتمع موضوع الممارسة المذكورة الى «مادة أولية» لا أقل!...

وكما يعرف تلاميذ الثانوي، لا توجد غازات كاملة أو غازات مثالية pasfaits، وبالانكليزية ideal هذا ينضم الى قضية المفهومية، الى جانب مثال طول السجائر.. وجميع الامور.

- 7 -

إن قضية المغايرة تحتل موقعا مركزيا في مسألة الوراثة وتطور الانواع.

إن فكرة التطور قديمة على نحو أو آخر. إنها ترتبط بفكرة الشكل، بالمورفولوجيا (الاشكال، الاقسام) بالتشريح المقارن / مرة أخرى الاشكال، الاقسام أو الاجزاء (anatomie)، بفكرة ما عن صعود على درجات في الزمان... في العصر الحديث لدينا بوفون Buffin، ديدرو، غوته خاصة، ولدينا العالم «لامارك».

قبله، لينه أنشأ فكرة النوع العلمية، وقام بعملية جرد أول للانواع الموجودة. أيد

الثبات ونظرية الخلق الالهي. ولامارك« أيد التطور وخفض النوع والجنس... جوفروا دوسانت ايلير أنشأ علم التشريح المقارن مع قانون «ترابط» الاشكال (تمالقها المعي توازيها أو تضارعها بين الانواع المختلفة والمتباعدة جدا...) وأيد بقوة فكرة تطور الانواع. عارضه العالم الكبير كوفيه، رغم اكتشافاته المستحاثية وعلمه الكبير (بدافع من إيمانه الديني مع فكرة الخلق فسر اختفاء كثير من الانواع بكوارث الطبيعة أي بالنظرية الانهيارية في الجيولوجيا، التي «نفاها» لايل مؤسس علم الجيولوجيا على ركيزة «التدريج»...) هيغل أيد كوفيه الثباتي. عند هيغل، الطبيعة لا تعرف سوى بسط في المكان (أو هكذا قول مأثور له)، وذلك بعكس الانسان وتاريخه: إنه صعود، صعود نحو الحرية الطبيعة دورية ودائرية، مع فكرة غاية داخلية ومقولة التني...

وجاء داروين، 1859، أصل الأنواع.. فالأنواع لها أصل هو أصلها، مثلما المنظومة الشمسية لها أصل حسب كنط ولابلاس. و«لها أصل» هنا يعني: لها نشوء، تكون، تاريخ صاعد، الاصل غير الهوية، أصل الشيء غير هويته. أصل المنظومة الشمسية سحابة كبيرة كتلة غازية. أما المنظومة الشمسية فهي شمس وكواكب متمايزة جدا، أجسام سماوية كثيفة صلبة، هويات بينة متباينة مفردة. التاريخ بيان بهذا المعنى صعود من العجمة والخواء والهيولي الى شكل معرب... هناك من يريدون إرجاع الدنيا الى السديم، الى الغاز وذراته المشددة، ويريدون إقامة وحدة هذا البحر الغازي بفضل جزر ـ صوالب، توحيد الرمال ببضعة صخور صلبة جدا هذا محال، لا معنى، ضد العقل.

داروين ينطلق من قاعدة الاعراض الاكثر كلية ويكتشف الضرورة، يبني بالفكر والملاحظة (رؤية الواقع: أنواعا وفصائل وأفرادا) عقلا وضرورة وفكرة التطور. يعطي برهانا (بيانا) عظيما عن وحدة الفكرتين: المنطق والتطور.

إن أفراد فصيلة أو نوع أو «تحت ـ نوع»، ولنقل نهائيا: «نوع» (= جماعة، هوية جماعة، مقولة)، يتوزعون في كل خاصة من خصائصهم، حسب التابع العشوائي على منحنى غاوس حول وسط معين. مثلا لتكن خاصة وجود غشاء صغير بين أصابع أفراد نوع من الطيور. في أحد الطرفين من خط التوزع، هذا الغشاء صغير جدا ومائل الى الاختفاء. وفي الطرف المقابل، الامر بالعكس الغشاء تام، ومتجاوز المتوسط العام بدرجات متفاوتة، هذه قاعدة عامة ومطلقة. كل الكائنات مختلفة، لكن بات معنا هنا هذه «القانونية العشوائية» للاختلاف... اذا كانت البيئة المحيطة آخذة في التغير نحو المزيد من الماء والمساحات المائية، فإن هذا التغير يلائم الافراد ذوي الغشاء النامي، اي أحد الطرفين المتباعدين، على حساب سائر النوع. وهكذا دواليك، تواليا: الاجيال تتوالى الاصطفاء البقائي يعمل لصالح الطرف المعني، التغيرات الصغيرة تتراكم، مئات وألوف الاجيال تتوالى، ينشأ (يتشكل، يتكون) نوع جديد كائن هو في مثالنا «ذوات

الغشاء»...

ثلاث «مراحل» أو درجات: 1) نوع، هوية، 2) الافرادية = الاختلاف = نفي النوع 3) نوع جديد = نفي النفي.

هذا في الفكرية النظرية المنطقية، ليس عرضا لتاريخ الانواع. إنه منطق تطور الانواع وأصلها، منطق المنشأ والنشوء والظهور.

المهم: لسنا، عند داروين وصراع البقاء واصطفاء الاصلح، مع صراع بين حيوانين مخيفين في الغابة، ولا مع مطاردة ذئب لقطيع من الغزلان وفوزه بواحد منهن وافتراسه أمامنا على شاشة التلفزيون، ولا مع وجودية بوذية أو براهمية أو غيرها مأساوية متشائمة تضع الشر في الكون الكوسمي لا في الانسان سيد الكون المادي المخلوق، ولا مع تصارع أهورا مزدا وأهريمان وواجب الانسان في نصرة الاول على الثاني والخير على الشر، النور على الظلام، ولا في تشاؤمية ـ تفاؤلية عربية مبتكرة (نوعا ما) حلولية ومثنوية ووثنية، الخ، بل نحن مع: ضرورة وأعراض، لعب ضرورة وتصادفات، وتغير حقيقي لبيئة محددة، وأنواع حقيقية مع أفراد حقيقيين، هويات ومغايرات في كون عقل مفتوح مع المنطق والحساب والهندسة والجبر، مع الاحتمالية ورياضيات المقادير المتغيرة والفروق الصغيرة أو دقائق الاشياء.. إن «صراع البقاء» موسط تماما، ثمة عقل. من جهة أخرى، وبعد ذلك، إن صراع البقاء ليس البتة مثلا أعلى للبشرية: لكن بشكل خاص إن داروين لم يقل ان الطيور تتصارع من أجل البقاء، كما يتصارع البشر في حالات تاريخية كثيرة كثيرة، ولم يقل إن هذا التصارع والافتراس المتبادل يخلق تطورا أو أنواعا جديدة!!

ماذا فهم شبلي شميل من داروين؟ لاشيء! إن المؤرخ المصري صاحب تاريخ «الحركات اليسارية» وتاريخ «الصحافة اليسارية في مصر» اكتشف عن نفسه أنه ليس مؤرخا ماركسيا فقط بل هو فيلسوف ماركسي أيضا. إنه لا «يعرف» ان شبلي شميل وراء بوشنر وان بوشنر ممثل «الماديانية المبتذلة»، اي أشد أنواع المادیانية تفاهة وسخافة في نظر ماركس و إنجلز ولينين. ويكفي ان يكون رجل من أنصار المادة الازلية والتطور مع داروين حتى يصبح في نظر المؤرخ المعني ماديانيا جدليا! مرة أخرى: إن أحدا من رجالات عصر النهضة لم يعرف داروين فعلا، لم يقرأ كتابه، ولاسيما الصفحات الأولى من كتابه!!، ولم يهتم جويا بالعلم الطبيعي ولا بالعلم الرياضي ولا بعلم المنطق ولا بهيغل بطبيعة الحال. وبطبيعة الحال أنا لست في صدد تقييمهم. وانا أعتقد أن كثيرا من المسائل الهامة التي طرحها عصر النهضوي أهملت أو حذفت فيما بعد أحيي بشكل خاص محمد عبده، البستاني واليازجي، قاسم أمين وطه حسين، وعبد الرحمن الكواكبي وعلي عبد الرازق وأحمد لطفي السيد، وجبران وزيدان والريحاني، ورشيد رضا والافغاني الخ عدا عن الطهطاوي والتونسي، وعدا عن مجهولين كثيرين..

بعد داروين، جاء مندل مؤسس او مخترع علم الوراثة.

فكرة الوراثة مضمونة ومفهومة داخل فكرة النوع مع الهوية عند داروين. إنها فكرة ثبات. ثبات كبير جدا جدا. ابن الذئب والذئبة ذئب صغير أو ذئبة صغيرة.. ليس هذا «عجيبة» بل «العجيبة» إن صح التعبير خلافه «العجيبة» هي التغير والتطور والارتقاء في سلم الطبيعة وأحيائها... لكن العادي هو أيضا يثير دهشة العالم العادي ملغوز، يجب فك اللغز. الوراثة والتطور ضدان شريكان، متنافيان لكن شريكان. داروين ومندل فكا اللغز والعلم تابع ويتابع: دوفريس، مورغان ووايزمان مرورا بالكرموزومات والجينات والـ A.D.N. وصولا الى مقولة الـ integron...

ولعل أهم كتابين في الربع الثاني من القرن العشرين هما على وجه التحديد: نظرية الالعاب تأليف بوهانس ـ جون فون نويمان والسيبرنيطيقا تأليف نوربيرت فينر...

في أوائل هذا القرن قال فرديناند دو سوسور صيغته المشهورة: اللغة ليست جوهرا أو ماهية أو مادة substance بل هي بنية structure. حسب الالسنية، اللغة هي حالة لغة، حالة لغوية état de langue وهي بنية. يوجد عندنا من يؤلف كتابا ومقالات وخطابات عن اللغة بدون البنية، بدون «الصرف والنحو»، بدون فكرة الحالة، بالمفردات، أقصد ببعض المفردات... عدا عن هذا البعض، عندي اعتقاد بأن العلماء أو الباحثين العرب لم يفهموا سوسور و«المنطقة» الجديدة... من أين لنا أن ندخل هذه المنطقة الجديدة اذا لم ندخل علم الكلام ومقولة الشكل؟

وأخيرا، يبدو أن اليابانيين حولوا ويحولون كازيين الحليب الى حرير، كوبان من الحليب فستان من الحرير. أنا لم أسمع من قبل بالكازيين لكن من يعرف أرسطو، من يعرف فكرته العبقرية مصادرته العسكرية من الرأس ضد «المادة» أو الجوهر الماهي الخاص، لا يفاجأ من حيث المبدأ... لنذكر بأن شوقي ضيف مثلا قال: إن العلم زائل، حقائقه عابرة، كل جيل يجب ما قبله، ولا يبقى سوى الشعور والاحساس والشعر، فحذار أيها الشاعر أن تبارح هذه المنطقة الخالدة الى العلم والعلوم، أي لا يمكن أن تغادرها الا الى الفيزياء والفلك والطبيعيات أما منطقة المجتمع نفسها فهي عدم أو تقريبا... ليس ما ينقص فلسفة آدابنا وفنوننا الجمال ولا الواقعية بل الاثنان معا وبالتلازم، ثلاثي الحق والخير والجمال وثلاثي الكون والمجتمع والعمل، معا بآن...

عندنا، عند التيار السائد، إن مقولة الجماعة أو مقولة الشعب، أو الامة أو مقولة الجماهير الخ قائمة كهوية نابذة للافرادية، أقصد لاختلاف الافراد الحقيقي، للمغايرة والتعددية، حسب قاموسنا الاخير أو مطلبنا السياسي المستيقظ للحرية والديمقراطية ضمن أجواء تجارية عامة. طرف يصرخ الشعب، الجماهير الامة وقد يقول أيضا بفرد يجسد هذا الجوهر أو يكون رمزا لهذا الشيء. وطرف يناهض ويرتكس بدافع من شعوره الصادق وبدافع من ضرورة واقعية عامة فهمت الى حد ما، إنه اذن بدافع عن

الحرية والديمقراطية والمغايرة والتعدد. وطرف ثالث يسعى الى التوفيق بين الموقفين: بين الهوية وحرية الافراد. قد يكون هو الابعد عن «التوفيق»، فالاستبداد والتوتاليتارية تذرّران المجتمعات، تتركان حريات كثيرة للافراد تطلقان شريعة الغاب وشريعة الحظ... هذا كله يفرض إعادة النظر في المقولات لكي تفحص نقديا ومنهجيا.

إن مقولات الشعب، والجماهير، والوطن، والامة الوطنية القومية، والديمقراطية، والحرية (الاسم الموصوف)، دخيلة علينا ومستوردة. بالنسبة لنا، قبل قرن من الزمن مثلاً، لم يكن لها أي مدلول. إنها لا تسمي أي واقع فعلي. كان عندنا العامة والخاصة (والعامية والفصحى) لا الشعب، والامم هي الامم الدينية.. وحتى الآن بالذات، ما زالت الحرية أسيرة مصدرها الحسي الطائر الحر. لو كنا إنكليزا أو ألمانا لقلت: فرْ فري، فرايهايت Free Freiheit. فالكلمات مثلا المقولات الفلسفية أو كثير منها على الاقل (وليست Hasard الا مثالا كذلك Matiene، كذلك Staff)، لها مصدرها الحسي، لكنها تتحول الى فلسفة، الى علم كلام، تصير مقولات نظرية جدا.

والجماهير Masses تعني كتلة، كتل. وهي مصطلح من علم الفيزياء أصلا. ولا ريب ان الجماهير كتلة أولا، كتل كبيرة. لكن، أريد أن أقول، في ضوء نيف وثلاثين من تاريخنا نحن، إن الجماهير هي بالامم «الكتل الكبرى + فكرة التقدم»... الجماهير في تاريخنا هي بشكل خاص جماهير أيام معلومة السنوات 1955، 1956، 1958، 1961، 1962، 1963، 1967، 1970. بل هي الجماهير على نطاق أمة العرب جميعا المتعددة البلدان والعوالم...

عندنا من يريد الجماعة أو الشعب، في الماضي البعيد أو في الحاضر، بدون الافرادية، بدون الاختلاف أو الفرقة. ما كيان الافراد عند الماوردي؟، هل للفرد كيان وحقوق، حقيقية؟ هل مقولة الجماعة عند الماوردي تستقيم في الرأس المفكر والمشرع بدون ضد مفهومي لها كالافراد، كالفرد، ككائن فعلي فردي، كأنا مغاير لكل أنا آخر؟ أم ان الجماعة قائمة فقط مقابل السلطة أو السلطان أو الحاكم الذي يجب أن يكون عادلا وان تتوفر فيه شروط معينة يجب «شمولها»؟ الى أي حد يمكن أن نتكلم هنا عن فكرة «مجتمع سياسي»، عن دولة هي الشأن العام أو الشيء العام، عن دولة هي stat (حالة، كون مستقر) لا عن دولة دال، يدول؟ أنا لا أقاضي ذلك التاريخ لا كواقع ولا كفكر يعكس وينظر ويقود! أنا أقاضي الفكر الحاضر والواقع الحاضر ما زالت الدولة في «الخارج»...

«علم الحالة» إختزع بدعة مرعبة، خسيسة جدا، على صعيد المصطلح.

نحن حين نريد ان نترجم population مفرد، اذن كلي نقول «السكان». لا بأس. بل أجد في كتب مدرسية (علم اجتماع، موضوع الديموغرافيا أو السكان والولادات والوفيات والكثافة) مصطلح «شعب»، شعب بالمعنى الديموغرافي، والسكاني. لا بأس،

هذا جيد المصطلح الفرنسي أو الانكليزي آت من اللاتينية حيث هو مرادف لـPeuple أي شعب. ثمة للكلمة بطبيعة الحال معان مختلفة، منها المعنى الديموغرافي (وصف الشعب) والسكاني.

لكن بدعة علم الاحصاء أو الستاتسطيقا أنه وسع وعمم مقولة «الشعب» هذه، جعلها مقولة «حالية» تعبر عن الحالة، عن الوضعية، والمواقعية الخ. فقال مثلاً: شعب من السجائر، وشعب من ذبابات الخل دروزوفيلا!

ثم؟

ثم: إن هذا الشعب هو شعب اختلاف! إنه شعب تغاير وتباين وتمايز... والا، سقطت المقولة العلمية في هوة الهوية، تهاوت بهذا المعنى، أي بالمعنيين. إن التماهي العربي الحاضر هو فعلاً تهاو، تهاو في هوة الهوية، ارتكاس قبيح، تعويض لا معنى له عن الفرقة والانقسام والتشتت والتقاتل والتبرد وهو موضوعيا قتال ضد الفكر وضد التقدم، ضد العقل واجتماع الناس، ضد الشعب والامة.

إن العلم الذي يدرس في المخبر «شعباً» من ذبابات النحْل (تكاثر عينة لا على التعيين داخل قفص من زجاج...) يخدم علم الديموغرافيا البشرية، بكشفه لجانب ما، لقانون طبيعي مجرد... أما منطق الهوية المزعومة، اية هوية كانت، فهو لا يقدم خدمة إيجابية لاي علم ولا لأي عمل. انه باسم فكرة المجتمع يذهب ضد فكرة «الاجتماع»، فكرة التشارك، فكرة التشكل، فكرة أن البشر ينتجون يوميا وجودهم ومجتمعهم. من جهة يكون لدينا مجتمع، وفي الجهة المقابلة لدينا أفراد، ولا شيء من هنا الى هناك، لا حركة، لا انتقال، لا عملية «اجتماع»... الافراد المختلفون يجتمعون فيصير معنا مجتمع، أو جماعة، أو شعب: هكذا العملية أو السيرورة.

هذا بالطبع غائب من تراثنا بوجه عام، لكن ستالين مثلا شطب عليه هو أيضا في أحدث حركة وأحدث نظام في تاريخ البشرية، أقام ماديانيته التاريخية بل ماديانياته الجدلية أيضا ضده. مع أنه قاعدة وركيزة بدهية عند ماركس وفي الماركسية وفي الحزب الماركسي الروسي وحزب البلاشفة الروس مع لينين... الافراد يجتمعون، توجد حرية، ولذلك يوجد عقل و يوجد تطور ونمو.

وأسمح لنفسي بمضارعة لغوية، لعلها أكثر من «تشبيه».

قلت: افراد يجتمعون في مجتمع. والمشطوب هو الفعل المضارع، الحاضر الديمومي الصيروري.

كذلك: شربت الشراب (أو المشروب).

عندنا، تصريف الافعال، الماضي (أي الماضي الحدثي) يتصدرا يسمى الماضي والمضارع والامر «وأزمنة» الأمر أيضا «زمن». والازمنة على خط أحادي: ماضي (شرب)، حاضر (يشرب) يضاف اليه سين أو سوف من أجل مستقبل قريب أو بعيد،

على الخط. هكذا التعلم وهكذا المدونة القواعدية البسيطة التي لا تمس مع أن الانماط والازمنة الفرنسية الكثيرة موجودة عندنا تماما، فيما عدا ما يسقط منها بسبب قلة فائدته... (صفته التكرارية لغيره، إمكانية الاستغناء عنه. ضرورات التيسير خدمة للفكر والتيسير غير المسح و«السطح» والتسوية!). وعنوان الفعل نفسه. اي اسمه هو «شرب» (الفعل الماضي المصرّف بضمير الغائب وهذه موضوعية حيادية فائقة الالتباس). لا يوجد في لغتنا، بحكم طبيعتها، نحو الـ Infinitif، الذي هو اسم الفعل أو «الاسم - الفعل» أو «الفعل - الاسم»، وهو في هذه الحقيقة أقرب إلى فكرة «المضارع».. اذن نحن لا نقول كعنوان لجدول تصريف شرب «فعل الشرب» مثلا وكل تعليمنا للصرف والنحو يبدأ من إعلان أن الكلام عند العرب، ينقسم إلى فعل واسم وحرف. ننسى اذن ان الاسم والفعل والحرف هن جميعا كلمات، تسميات لاشياء (أو أشياء وعلاقات وعمليات) نبدأ بقسم الكلام، بدون تعريف حقيقي للكلام وللكلمة ازاء الاشياء والواقع وعقل الواقع. هذه بداية متسرعة. ولا نضع اذن أي حد ضد تصنيم وجوهرة مقولات الصرف والنحو، اي الفصائل القواعدية. لا ندرأ احتمالا ما او إيحاء ما عند التلاميذ والشعب مفاده ان الحجر والشرب والرجل والمشي والمشروب والشجرة هم من نوع واحد (الاسم) كجوهر يتجمد ويتشيأ (وراء الحجر والمشروب والشجرة والرجل) ازاء الجوهرين الأخرين في النهاية العليا، يصبح «المعنى الحقيقي» كأنه «جامد ذات» و«المعنى المجازي» كأنه عسف وخيال وشعر وشعور... وهذا، في أحسن حال، يخفض فكرة العملية وفكرة العلاقة تخفيضا ينعكس على تفكيرنا عموما، على طريقة التفكير، لا سيما في غياب أو شبه غياب الفلسفة، المنطق، تاريخ العالم، تاريخنا نحن بلا حذف معظم «المناطق» والحقب، اللغات الاجنبية، الرياضيات كعمق عام، تاريخ أساسات الفكر ولا أقول تاريخ كذرى وضاءة ربع مفهومة... إن الكون الفعلي، إن الواقع الحي ليس عند الجوامد ولا عند المجاز... الجسم نفسه صار فكرة ومفهوما، وحلٌ!

«شربت شرابا» قائمة بدون «الشرب». هذا صحيح وطبيعي، لغويا، عندنا وعند غيرنا. الجملة تامة. الفكرة تامة. فكرة الشرب موجودة في فعل شربت. لكن هذا اللغة. بل هكذا الوجود وهكذا العمل الانساني اليومي: الناس يأكلون طعاما، يشربون ماء، يدرسون دروسهم، يصنعون طاولات وأحذية، يحصدون القمح. هذا أفضل (صيغة المضارع) وأقرب إلى الفكرية والمحاكمة (إنه الجملة الاسمية والفعل في وسطها). «المضارع يضارع الاسم»، إنه يرفع وينصب ويجزم (ليس «مبنيا» كالماضي والامر)، وهو يحمل ثباتا واستمرارا إنه زمن ونمط القانون، ويتشارك جيدا مع الجملة الاسمية: الارض تدور حول الشمس، ع تتناسب عكسا مع س، الناس يذهبون إلى أعمالهم كل يوم عدا يوم العطلة، الله نور السماوات والارض، هو الحي الباقي....

عمليا، إن موقف ستالين يتلخص في: الافراد موجودون في مجتمع لا شك في ذلك. لكن ليس الامر هكذا الا لان «الافراد يجتمعون». كل موجود إنما هو ناتج ونتاج ونتيجة. «الاستنتاج» قائم في الواقع (الطبيعي والبشري على حد سواء) ولأنه قائم في الواقع لذلك يقوم في الفكر. و «الاستنتاج» هو المنطق. بدل الاستنتاج كان يمكن ان أقول التوجة حيث الفرنسية تحيلنا على جذور مختلفة لكلمات متنوعة، تحيلنا العربية على جذر واحد «نتج» مع مزبداته المتداولة أنتج واستنتج، اذن إنتاج متوج، منتج، نتاج، ناتج، ونتيجة. مقولة الانتاج ومقولة السببية ومقولة الاستنتاج أو المحاكمة يتشاركن بشكل ممتاز!

وهذا التشارك هو مذهب هيغل الفلسفي: فكرة المنطق الواصلة أخيرا إلى العالم كذات حية مع الفكرة المطلقة ومع العمل الانساني، وهو على الاقل القاعدة الاولى والمحور الجوهري:

العالم غير الطبيعة. الطبيعة تحتاج بعد إلى تعينات كثيرة لكي تصير عالما.

لكل شيء «علة كافية»، مبدأ لايبنتس. هذا صحيح. لكن «كافية» نافلة، زائدة عن اللزوم. إن علة غير كافية، إن علة ناقصة ليست علة، ليست عقلا raison, raison ! = علة أو عقل.

حين تكتمل شروط شيء من الاشياء، يوجد الشيء. ولينين «يدهش» لهذا الاستنتاج للوجود.

ما لم تكتمل الشروط فهو، الشيء المعني لا غيره فهو ليس. قد يكون النقص واحدا بالمئة أو واحدا بالمليون، لكن الشيء عينه تماما ليس بعد. إن هذا الواحد بالمئة، حين يكون الـ99٪ متوفرا، يكون هو الحاسم. وقد يكون هو مسؤوليتنا أنا وأنت أو أي شخص آخر! فالواقع أمامنا في الراهن النزوعي حمال أو احتمالي ثمة خيارات، ثمة مفترق، ثمة قضية وعي وحسم.

حتمية؟ وحده الواقع «محتوم». بالأصح: إنه أكثر من محتوم، إنه واقع! اكتملت تعيناته فوقع، صار واقعا. صيغة سقط tomber، سقط في الواقع، نجدها مرارا في كتابات هيغل، إنها فكرة أفلاطونية ـ هيغلية، أي منطقية واقعية. بالعربية، الواقع من وقع. باللاتينية والفرنسية والالمانية Realite من res (شيء chose).

اكتملت تعيناته فوقع. ومن تعيناته عمل البشر السياسي، وعيهم وحسمهم... إن سؤال «لو...» مسوغ ولابد منه إطلاقا، من أجل فهم ما وقع، معرفة كيف جاء إلى الوجود، آلية ومسارات انوجاده، منطق حصوله Geschehen. إن هذا الحصول عالم حقيقي ليس «باطنا» جوهرا وغير مفهوم ولا هو ظاهر سطحي يحيل الباطن ويخفي الواقع...

الجملة، الكل le tout، هو ناتج جامع لكليات. ثمة كل عياني وثمة كلي عياني.

العياني هو المعين إلى النهاية. لانه ثمة منطق لذلك ثمة تاريخ.

مسيرة توفر الشروط هي مجيء الشيء إلى الوجود العالم الموجود نتاج ونتيجة. إنتاج البشر لعالمهم يقيم المنطق في ذهن الانسان. وبالعمل الانتاج يكتشف الانسان السببية والعلية والقانون والمنطق في الطبيعة ذاتها، يقيم علم الطبيعة وعلومها. وهذه العلوم تعزز العقلانية والموضوعية والاجتماعية في ذهن الانسان وحياته وواقعه الاجتماعي. الفاعليات الفكرية والعلمية جزء من براكيس المجتمعات البشرية...

اذن إن المغايرة، الاختلاف أس في الواقع الموضوعي، قوام في الدنيا المخلوقة. أرضا وسماوات هكذا هيغل. ولنقل إن هذا القوام ذو درجات ومستويات وأشكال (تنوع الاختلاف!).

اختلاف حبات الرمل ليس بين صحرائنا الكبيرة وصحراء كالاصاري بل في نقطة مكانية، في محل صغير جدا! فالمحلي الصغير جدا حامل للكلي.. اختلاف قطرات الماء الصافي... واختلاف ذبابات النحل.. وتنوع الجزئيات العنصرية أو الابتدائية في الذرة...

واختلاف الأفراد في مجتمعات الحيوان société: النمل والنحل والغزلان وبعض أنواع الطيور...

واختلاف افراد قطيع الاغنام أو قطيع الماشية البقرية واختلاف افراد قطيع من البشر «الاوائل» hordes وأي مجتمع بشري لاحق، اختلاف الافراد الجماعات أو المتحدات الطبيعية ما قبل التاريخية أو اللاتاريخية...

أخيرا، بشكل خصوصي أو نوعي spécifique: تغاير مجتمع الانسان، المجتمع السياسي، مجتمع الحيوان «السياسي» zoon polititkon، ابن التاريخ.

قلت: بشكل خصوصي أو نوعي spécifiquement هنا، وربما هنا فقط، يتخذ هذا المصطلح معناه الشرعي، الذي لا لبس فيه.

يمكن اذن، تحت مقولة الاختلاف ان نميز ثلاثة مستويات في المنطق بوصفه علم الكون. المعنى الابسط والاوسع والاشمل هو الاختلاف أو التغاير أو التمايز في الكون نفسه، فكرة الكون البسيطة، الوجود، الكائن، الموجود، الهو، الأيس، être بالمعنى الاوسع، الابسط، الادنى والاعم. الاختلاف كملازم للايس. أنا أعتقد أن هذه الكلمة، أو هذا الصوت اللغوي إس، أيس إسو، esse اللاتينية وres اللاتينية، is الانكليزية، الخ كلمة قديمة، بدأت عندنا، في الشرق الادنى، في بلاد كنعان وآرام السامية. لست في علم اللغة واللغات، وقد أكون مخطئا فيما ذهبت اليه. المهم أنني أطرح سؤالا، أخطأت أو أصبت: أنا طرحت سؤالا، أنا أسأل. ويعززني في السؤال كون العائلات اللغوية الثلاث التي هي الهندو ـ أوروبي والسامي ـ الحامي والبانتو وربما الاورالي أيضا يجمعن اليوم ومنذ نصف قرن في «عائلة عائلات» تدعى نوستراتوم

nostratum (أي خيرنا أو ملكنا أو لغتنا شيء لنا)، مقابل العائلة الصينو ـ أوسترية مثلا وسواها (الالطائية؟ بما فيها التركية، وجميع اللغات التي لم تجمع بعد في عائلات، ويتكلمها 16٪ من البشر، وأشهرها اليابانية)... أذكر بأن esse اللاتينية «هي» être الفرنسية (واضعاً المزدوجين حول «هي»، منوّها مرة أخرى بأن (المبتدأ والخبر لا يتغارقان لا يتنافدان، بل يتقاطعان، أو بالاهم إنهما يتفارقان ويتنافذان ويتآخذان جزئيا)، ومنها essence الفرنسية (ماهية أو جوهر؟) وWesen الالمانية (كائن، كون être أم جوهر essence؟ وأذكّر بـ«أوسيّة» anssia أرسطو (essence وsubstance وêtre) وغير ذلك أيضا). وهكذا «دواليك»...

هذه ليست مسألة ترجمة بتاتا، ترجمة كما يتصورها البعض، الترجمة هي ترجمة الرأس، الترجمة هي الفكر، استقرار واستنطاق الكون خارج الرأس والذي الرأس فيه بوصفه الكون. الفلسفة الغربية في ميتافيزيقا الـêtre، يقول هايدغر، إيانا ان نظن اننا خارج هذه الفلسفة الغربية أو هذه «اللغة الغربية»! نحن فيها ومنها، لسنا الصين واليابان ولا الهند، الهند وأوروبية لغة. ولا أحد خارجها، على الاقل اليوم. esse وres شيء، وهايدغر صاحب مؤلف عنوانه «ما الشيء؟» أو «ما شيء؟». فعلا، الفلسفة سمفونية الـêtre، من بارمنيد العظيم إلى sum أوغسطين مدشن الغرب «si Faller sum» (لئن أنا مخطيء، فأنا موجود!) إلى sum ديكارت مدشن العصر الحديث cogito, ergo sum (أنا أشك، أنا أفكر أنا اتفاكر، أنا أحاكم، إذن أنا موجود) إلى منطلق برهنة بركلي، وهو esse مزدوج، أو بالأصح مكرر مرتين!، فاصل نهائيا، قائم ضد اللوغوس واللغة، مع فعل الادارك الحسي والصورة و«النوس» الذي صار أقرب إلى الشرقية والبرغسونية...

وأخيرا، وهذا مباشرة في موضوعنا، في قضية الانسان، والمغايرة في قضية مجتمع الناس، قضية الفرد الانساني والجوهر الانساني، إنها مسألة الـwesen البشري في الاطروحة السادسة عن فويرباخ، لكارل ماركس: «الـwesen البشري ليس تجريدا ملازماً للفرد المعزول، في واقعه أو حقيقته، إنه مجموع أو جملة العلاقات الاجتماعية». être أم essence؟ كون، كائن، جوهر (ماهية)؟ كل الترجمات ممكنة! والقضية خلافية، في وسط الشراح والمترجمين، كل الترجمات صالحة. المهم هو المضمون، أي الاتجاه والقصد، المعنى واتجاه الضرب. كلام ماركس موجه ضد فويرباخ. إنها ضربة محددة ومحدودة، محدّدة ومحدّدة للمعنى، انها ضربة ضيقة أي وثيقة، إنها بؤرة انطلاق، نقطة مصب لانهار ونقطة انطلاق لانهار أيضا. (ماركس يتوجه نحو «جملة العلاقات الاجتماعية» التي ليست طبيعية نوعية وليست فرداً وحباً). التضييق توثيق! أو أيضا وبالمقابل، ان الاكثر شمولا هو الاكثر عمقا. لكنه لم يعد هو الشمول بالمعنى التقليدي والسكولاستيكي، إنه تجاوز هذا المعنى بعد استيعابه. ثمة ماركسية، كما هو معلوم، ألغت فردية الفرد. وثمة اتهام برجوازي لماركس بأنه في هذه الاطروحة خلق التباسا...

وثمة ماركسية ألغت «العلاقات الاجتماعية» باستيعابها واحتوائها واستغراقها «مجموع العلاقات الاجتماعية» في «علاقات الانتاج» التي هي هي المقولة الملتبسة وبأسوأ معنى، فهي بين جملة أمور مقولة قامت لتلغي كلية فكرة العلاقة التي هي فكرة المقالة أو العقلي والتي هي فكرة الاجتماع البشري أو المجتمع البشري، أي لتلغي سلطان مقولة العلاقة: الشغل علاقة، الانتاج علاقة، أداة الانتاج علاقة، قوى الانتاج علاقة، أو، وهذا شكل آخر: الانتاج علاقة «انسان ـ شغل» مع طبيعة و«انسان شغل» هو ناس مع علاقات، شغل مع طابعه الاجتماعي كشغل،.. أداة الانتاج وسيلة شغل، الكينونة الاجتماعية أي وجود البشر الاجتماعي هو تبادل وتبادلات تعامل، تواصل بين الناس في العام الاعم. والانتاجية productivité هي علاقة ونسبة وقسمة. والقيمة علاقة، القيمة تناسبات، انتسابات متبادلة.

مستوانا الأول في قضية الإختلاف هو اذن عند الابس والشيء. «هو»؟ الـ«هو» رابطة صريحة أو مضمورة في كل جملة اسمية. مجردا، إنه «هو» بارمنيد وافلاطون الخ، «هو» الفلسفة، و«هو» الدين، دين الاله الواحد، الله الواحد، الـ هو بلا غير، العالي، المتعالي (الله تعالى)، باهو يهوه، ال El ، الازلي الذي ليس له إسم مع موسى، فيلو الاسكندراني، الاسلام، المسيحية، التصوف، الباطنية العظمى، ديكارت، سبينوزا، نيوتن، كنط، هيغل، لوثر، باخ،... الذي هو الحق، الذي «لا إله إلا هو»، الذي «ليس كمثله شيء»، الذي «لا يمكن أن يفهم» و«لا يمكن أن يعرف»، والذي «يحكم العالم» أو «يسير العالم» gouverne العقل و«مكر العقل»، الذي «لا تسبر أغواره وسبله»، لكنها مع ذلك تسبر في التاريخ به. لحن كبير، سمفونية متنوعة، التاريخ الفكري أيضا تنويعة عظيمة على الاشكال. يوجد اسلام وتوجد مسيحية، بل بما اننا عدنا إلى فكرة الوجود العادية، وجود الدنيا، توجد مسيحيات وتوجد اسلامات وإسلاميات. يوجد كون ويوجد تاريخ ثمة اذن هو مقابل وجود، لكن الـ هو في الوجود أيضا.

هو عال متعالٍ مفارق، ومحايث، ملازم، الـ هو رابطة الجملة الاسمية، الرابطة الصريحة أو الضمنية، المضمورة، الضميرية. الـ هو ضمير. والوجدان conscience يقابل الوجود، وهو الضمير والوعي، وجدان الاخلاق ووجدان العلم، والعقل العملي و«العقل المحض» (مصطلح كنط). بارمنيد وسقراط وأفلاطون جردوا الـ«هو». أرسطو على هذا الاساس الحرز بعيده على الأرض، أرض محاكمة الدنيا: معرفتها كليا، كأشياء في تعاقل الـ«هو»، رابطة الحكم.

المطلق فوق النسبي أولا، والمطلق في النسبي ثانيا.

المطلق حد على النسبي، ومن ليس عنده المطلق يحول نسبيه إلى مطلق، وهذا هو الاستبداد والارهاب، وهذه هي قصة البشرية في القرن العشرين، الله ناف للآلهة،

خافض لآلهة البشر في التاريخ والسياسة: الله فوق الاصنام، وبالنسبة لنا نحن، شأننا شأن كل نحن، الله فوق أصنامنا.

الله ناف للعالم، لكنه خالق العالم أولا.

والمعنى: الله خالق العالم، خالع العالم، إنه السلوب، هكذا العلم أكهارت، وهكذا هيغل، وهكذا غوته، وهكذا سبينوزا، وكوزا، وبرونو، وبوهم، ومسلسل متنوع من رجال وأفكار في الفكر العربي الاسلامي وفي الفكر المسيحي الغربي، على حد سواء، وفي غيرهما أيضا... وحين أقول: في الفكر المسيحي الغربي، فأنا أقول في جملة ما أقول انه يوجد شيء قبل «العقل الاوروبي الحديث والمعاصر، شيء قلما يكون لميشيل فوكو صلة به «شأن معه»، لكن شأن غيره كبير، وأحيانا كبير جدا في الصراحة المعلنة: ارنست بلوخ، البرت اينشتاين، ماركس وهيغل وكنط ونيوتن وباسكال وسبينوزا وديكارت...

إذا سألتموني ألم يكن بلوخ واينشتاين وماركس ملحدين، والعياذ بالله، أم هل كانوا مؤمنين، والعياذ بالله من جهة مقابلة أو من الجهتين معا (جهة الشتيمة وجهة السخرية أو التهكم المتعالم الذي لا شأن له بسقراط وتهكم سقراط)، فأنا جوابي: لا أعلم، لكنني أعرف أفكارهم جيدا، وجيدا جدا في الحيثية المعنية! وحين يقال لي ان سبينوزا وهيغل وماركس هم «حلولية»، مذهب «وحدة الوجود»، فأنا أقول: لا ! لا! لا! بل، من أجل السهولة على الاقل، قولوا: حلولية لكن مع النفي! وهذا المذهب، مذهبهم، ليس عقيدة فوقية، معزولة، ليست تصورا للعالم وجوديا وشرقيا، بل هو مذهب، هو طريقة ذهاب إلى الواقع، طريقة معرفة واكتشاف طريقة محاكمة حقة، طريقة فكر، هي هي العقل.

مرة أخرى، أنا اعارض حسن حنفي ومحمد عابد الجابري وندوتكم *، ليس فيها العقل والتاريخ. فيها قطع من العقل والتاريخ، قليلة، متناثرة، متبددة. انا مثلا يهمني كرجل مفكر اذن كرجل طالب للمعرفة، ان أدرك في تراثنا العربي، في ميراث الحضارة العربية الاسلامية، عناصر وبذور قضية العقل والمغايرة والتاريخ، مسألة الكون والتغاير والتغير مع الانسان وصناعته، إذن بالتالي، فكرة التقدم والتطور والصعود أقرأ مرة اخرى، أوراق الدعوة، برنامج الندوة، لاسيما الجلسة الثالثة «العقلانية العربية والتاريخ والتراث والدين»، لكن، وتحت هذا العنوان ذاته الذي يقول «تاريخ» «ودين»، لا أجد ذلك، لا أجد طلبي وعطشي، أجد ربما شيئا أكاديميا، لكنني أشك أنه من نوع «الاكاديمي» المقبول في عوالم أخرى. حين المعرفة تريد ان تبقى في المعرفة لا غير، والعلم لا غير، فهي حتما تقصر كمعرفة وكعلم، وتقصر لا في النتيجة والمآل بل في المبدأ. ثمة روح، للانسان، والنظر النظري الحق شكله المغرب القادر على توجيه الناس، اثارة المسائل الروحية والفكرية، وتأسيس الوعي البشري في الراهن، تأسيس مجتمع سياسي

* يشير هنا إلى ندوة «العقلانية» التي نظمها المجلس القومي للثقافة العربية بتونس سنة 1984.

وجاهير مكافحة. ان الموضوع، ان القضية، في هذه الندوة، هي كحاصل في الراهن، هي العقل والمغايرة والتاريخ. يجب مواصلة عمل هذه الندوة بعد انتهائها في اتجاه اقامة «العقل والمغايرة والتاريخ»، كنظرية، كطريقة تفكير، كمذهب روحي وفكري. لامة العرب الآن. وإنني بكل تأكيد لست إزاءكم سوى أخ لكم، يتعلم منكم. ويتعلم الكثير من علومكم واهتماماتكم، ويكن لكم الاحترام والحب...

ولما يؤسفني بالتأكيد انني اضطررت وأنا مضطر على ترك مسائل كثيرة. ولاسيما مسائل اللاهوت مع السياسة، إذن الكون والانسان والتاريخ، بما في ذلك الاختلاف والخلاف بين الاسلام والمسيحية واليهودية أيضا، او لنقل أيضا بين عدة اتجاهات في «إسلام ابراهيم» عبر التاريخ كروح وكطريقة تفكير عند البشر. الهوية الفرقية، عند الانسان الهوية الاختلافية والخلافية. ثمة فرق بين الاحد الازلي الذي لا يسمي اليهودي الموسوي، والله الواحد الاحد الاسلامي مع الكتاب وخاتم النبوة وعيسى بن مريم المسيح كلمة الله، والثالوث المسيحي.

الاحظ أو ألحظ بلا أي توقف ان يوحنا فيلوبونوس أي يحيى النحوي عند الاسلاميين لم يكن في الثالوثية بل جنح نحو الثلاثية، نحو مذهب ثلاثة آلهة يدعى في تاريخ المسيحية بالفرنسية tritheisme بخلاف «trinité» (ثالوث) التي تؤشر في نهاية اللفظ على الوحدة (unité)، مثلما أبيلار وآخرون كثيرون جنحوا بالعكس نحو الواحدية اللاثالوثية Unitarisme أي الواحدية نافية الثالوث، فاتهموا او اتهم بعضهم بالاسلامية (ولا ريب ان بعضهم تعاطف فعلا مع الاسلام وموقفه وعقيدته. ولا أقصد فريدبريك هو هنشتوفن أو نابليون، رغم صواب ذلك على الاقل بمعنى ما، بل أقصد فلاسفة). أمّا سبينوزا المتهم بالزندقة وبالالحاد، فقد أخذ عليه عند إخراجه من الكنيس (الجماعة اليهودية) تعاطفه مع مسيح المسيحيين، وفي وقت لاحق، حدث ان ألقى بعض الناس عليه شبهة اسلامية (أوروبا اطلعت على مكانة وتميز المسيح في القرآن وعلى حضوره في تاريخ الاسلام عند صاحب «الفتوحات المكية» أو عند الحلاج المصلوب وفي الوسط الشعبي عموما).

هذا كله يحتاج إلى تدقيق وتصحيح وإلى إنماء وبسط. فهو ليس في الحاصل، سوى شذرات. وهو لا يفي بالمطلوب. تركت مسألة «عقيدة الخطيئة الاصلية» وفكرة «النفس الامارة بالسوء»، مسألة الشر في الدنيا، مسألة الحرام والحلال، والخطيئة، مسألة القضاء والقدر أو الجبرية والخيار والعقل، مسألة أوغسطين وبيلاج، اللاتينية واليونانية، الغربية والشرقية، في الكنيسة ككنيستين وكنائس، والمعاودة الاسلامية للقضية ذاتها، رغم الفرق الذي يجب ان يعرف،... وصولا إلى الارثوذكسية الروسية والادب الروسي (دوستويفسكي، فكرة الشر كمركز، والمبدأ الشخصي «ضد» خلية «النحل»، دوستويفسكي ضد تولستوي). أذكر فقط تثمين هيغل لعقيدة «الخطيئة

الاصلية» المسيحية، (فهي حسب رأيه، أساس الجهاد وأساس الحرية) بخلاف وبعكس تهكم ديدرو ورجال عصر الانوار الفرنسي أو بعضهم... من الهام ان يكون محمد اقبال قد ثمن هذه العقيدة. لكن لعله موقف نادر في عالم المسلمين لاسيما العرب، ولاسيما إسلام عصر النهضة العربي، المأخوذ في مناخ الوضعانية والعلموية تحت أسماء الايجابية والواقعية والعلم مع العمل ـ الفتح، في موقف يختلط فيه الصواب والخطأ الحق والباطل، طلعات رائعة طلعات فكرية مذهلة أحيانا، وعدم متابعة رجل من الرجال لشيء حاسم اهتدى إليه في لحظة نور وبداهة، في لحظة ضمير وذكاء. قصدت على سبيل المثال: رشيد رضا، محمد عبده، الافغاني... أنا اعتقد ان المناخ الوضعاني أو الايجابوي، الاوروبي المتفائل، أساء بشكل خاص لاسلاميي النهضة (اللذين هم الأهم! وهم البؤرة، البؤرة الكبيرة، المشعة، المركز والدائرة نفسها بمركزها)، ثمة هنا مفارقات ومفارقات. هي أمور فائقة الجدوى إذا نظرنا إليها جديا...

ـ 2 ـ

هناك ثلاثة مواقف ممكنة للانسان ازاء الوجود او العالم أو الحياة. مواقف روحية، فكرية، ذهنية، نظرية، وعملية جدا بالنسبة للجماعات، للامم!.

حسب كثير من الناس (بعضهم في الشعب العام، وبعضهم في العلم الاكاديمي الناظر إلى الدنيا والشعوب)، يوجد موقفان فقط:

إما القبول و إما الرفض. والرفض هو النفي. والقبول ايجاب. إيجابية، واقعية، معرفة، علم، جدوى الخ.

بالحقيقة، هذا ملتبس، خالط، وقاصر بالمبدأ.

لا يمكن ان أضم هيغل أو آدم سميت أو كارل ماركس أو لينين أو توماس مور أو جان جاك روسو أو باسكال لا للقبول ولا للرفض، كذلك جميع الرواد بلا استثناء، جميع الفاتحين، جميع الذين هم، في ميادينهم المختلفة، ميادين الروح والفكر والعمل، إذن التاريخ بسط للرمز الكبير: آدم والفتح.

توجد ثلاثة مواقف ممكنة وموجودة فعلا:

1 ـ نفي العالم وحسب، نفيه السلبي. العالم شرٌّ ولا يمكن اصلاحه أو تحسينه. الكون شر وعنف. الشر حقيقة كوسمية. لنقل: الموقف البوذي ولنحي البوذية مرة أخرى...

2 ـ قبول الدنيا، قبول العالم، متابعة الناس لحياتهم مع انتاجهم للرزق، بلا سؤال ولا «تليك» او إرباك ولا فلسفة. والناس يمكن أن تأخذ وهي تأخذ الموقف السابق أيضا. نقبل الدنيا مع معرفتنا ان الدنيا فانية، كل ما عليها فان، الدنيا وادي الدموع، الحياة يوم... توجد آخرة، ويوجد دين، واخلاق وتقوى

وفضيلة. لكن الدنيا دنيا، ونحن قابلون لها، حتى وإن لم نكن راضين تماما وبالضرورة، نحن نقبل الدنيا والعمل وانتاج الرزق، ولا ريب ان هذا الموقف هو موقف تسعة اعشار البشر في تاريخ جميع الحضارات بلا استثناء. وإن الاديان المختلفة الصائرة ايديولوجيات للشعوب إنما تضفي ألوانا وظلالا مختلفة ومتنوعة حسب اختلاف الحالات على هذا القاع العام. البشرية بشرية، سواء كانت فوقها وداخلها طاوية او بوذية او براهمانية أو كونفوشية أو مزدائية أو مسيحية وإسلام ويهودية... ان الموقف الثاني هو الايجابية مهما تكن الاضافات.

ـ النفي الايجابي للعالم.

وفي رأيي، ان هذا الموقف حمله «دين الاله الواحد»، وهو الذي يحمل فكرة التاريخ والتقدم. صحيح ان المزدائية مذهب متفائل ودعوة عملية واخلاقية عامة و«فتحاوية» بخلاف البوذية والشرق الكبير، لكن المنوية تلغم وتنسف ذلك من المبدأ. والفضيلة تصير نسكا هو «نسك العجم» كما لاحظ فقهاء المسلمين. لكنهم لم يلاحظوا ان هذه الدعوة الطهرانية (الحنبلية كما يقال) التي لا تهادن، والتي حملها كهنة أهورا مزدا (سدنة النار والطهر)، كانت تمنع وتحبط اي اصلاح (والاصلاح يأتي من فوق)... وبالتالي، فان الهم التاريخي، بما فيه الشغل التأريخي وصولا إلى التاريخ كعلم، لم يميز بتاتا ثقافة الصين مثلا، رغم الطابع الاجتماعي والاخلاقي للكونفوشية بالذات والطابع الاخلاقي العام للبوذية (ثمة اذن فرق في المنشأ الذهني والروحي بين فكرة «الاجتماعي» وفكرة «التاريخي»). ميز اليونان، لكن التصور اليوناني للتاريخ لم يخرج عن التصور الدوراني، شأنه شأن جميع التصورات الشرقية من قبله... واضح بما فيه الكفاية ان التاريخية الصعودية والتطورية لها مصدر آخر غير الفلسفة اليونانية وغير العقل اليوناني. هذا المصدر هو دين الاله الواحد...

لكن الثقافة اليهودية هي ايضا لم تلمع بالتاريخ وكتابته وعلمه، رغم لمعانها بالفلسفة والتصوف، ورغم التوراة ويوسيفوس، وذلك بسبب العزلة، العزل والانعزال، وبسبب فكرة «شعب الله المختار» المفوتة، القومية ـ النسابية.

التاريخية تلمع وتبرز عند المسلمين، أي في عملهم الفكري والثقافي كهم حقيقي، يرتبط بالنبي والسيرة وسيرة البداية، وبسيرة البداية عند آدم مع التسلسل النسلي، البشري، مع هم قومي عربي وقرشي الخ، وهذا كله طبيعي تماما، وهو حامل للتاريخية، بوصفها تعاقبا وتواليا وزمانية بالمعنى العادي... وصولا إلى عملية ابن خلدون.

هنا، مع ابن خلدون، نتخطى الخطية السابقة باعتبارها متوالية نسلية وسردا لحقب سياسية حكومية، لدول دالت وتعاقبت، لأسر مالكة... بهذا المعنى يمكن القول إن ابن خلدون يدشن فكرة تشكل وتكون لواقع اجتماعي، يدشن معقولية تاريخ، هو

عمران وطبائع عمران ونحلة من المعاش، هو جغرافية وانتاج واقتصاد. لكنه، تحت سلطة دولان الدول وعبورها، يبقى في آخر تحليل أو نوعا ما يعود إلى التصور الدوراني للتاريخ. مع ان همه السياسي بالمعنى الكبير هو بالعكس: همه هو بلوغ دولة استقرار تكون قاعدة ثابتة لنمو يتراكم بلا انتكاس جوهري، وذلك ضد حالة المغرب التي يشخصها، أي يحللها ويَفْهَمُها ويُمَفْهِمها...

في الغرب، في اوروبا الغربية، ان التاريخية الصعودية لها أعلام متنوعة، عناصر كثيرة: التصوف وكوزا (مع فكرة «التقدم اللامتناهي» والعلم الرياضي، وفكرة وحدة الإستقامية والاغنائية...)، ديكارت وبيكون (فكرة الفتح وفكرة التقنية)، باسكال وقابلية الانسان للتحسُن (علم النحلة كامل، علم الانسان ناقص، وهذا هو تفوق الانسان على النحلة!). سبينوزا ولايبنتس (سبينوزا النفي وسبينوزا الفعل الانساني)،... كوندورسيه وهيغل... بل هيغل وكونت، كخيارين متعارضين مذهب أوغست كونت خطية بلا دائرية إيجابية ضد النفي، كره للمجردات، علمية بلا الفلسفة...

ومما لا شك فيه ان التصوف الالماني كان هو التمهيد الكبير للديالكتيك الالماني الحديث!

ومما لاشك فيه ان المدشن لهذا الخط الغربي جدا، البعيد عن المسيحية الشرقية، هو اوغسطين البربري الذي حمل الأنا والايدوس الافلاطوني وفكرة الخلاص المسيحية والذي أعلن بقوة عن زمانية خطية غير دورانية، قوامها قبل وبعد، بعد هو غير القبل...

وهذه مسألة كبيرة تذهب إلى هيغل وآينشتاين باعتبار انهما أيضا حد على هذه القضية، بل حد يرد الاعتبار بمعنى ما لفلسفة الهند والشرق. هيغل يأخذ الزمانية في الكون. نافيا الثنائية الكنطية للمكان والزمان، موسعا معنى السببية الجديد خارج التعاقبية الزمانية المحض جاعلا السببية او العقل او العقل او الضرورة قواما للكون المكاني الذي الزمان بُعدٌ له. ونظرية النسبية (آينشتاين) هي عملية توحيد جبارة للكون ـ الفيزياء، عملية تعلن انه ثمة حد تسقط بعده فكرة «القبل والبعد»، ثمة حد وراءه لا يصح أن نقول أولاً معنى لان نقول «قبل» و«بعد» لامعنى للزمانية المعلومة. هكذا الفيزياء، علم الكون ـ الشيء ـ الفيزيس ـ الطبيعة ان شئتم، لكن بالمعنى لا أقول الأكبر بل فقط الاكثر أساسية، الاكثر مادية ـ رياضية، او الاكثر هندسة وميكانيكا وان العلم الاكثر عصرية في الفيزياء يحيي ويثمن بعض فلسفات الهند القديمة. وقد يكون الشيخ الهندي أقدر مني ومنك على فهم آينشتاين.

ولاريب ان لينين لم يفهمه بتاتا، ولم يجمع، في سنة 1922 مثلا (سنة المقال الهام والعظيم: «عن دورة المادية المُكافحة»، علماء فيزياء وفلاسفة، ليقول لهم: عالجوا موضوع هذه النظرية النسبية، ثم قولوا لي ما رأيكم، ما المعنى، ما الحقيقة؟ هل المكان

والزمان واحد أيضا، مع أنهما اثنان، كما نعرف ونعيش، كما نعلم ونعمل؟ اذ ان لينين اثنى على آينشتاين، أي وصفه بأنه عالم طبيعيات كبير، وامتنع عن ابداء أي رأي في الموضوع (القضية، المسألة: نظرية النسبية)، بل أشار إلى ان الرجعية والمثالية تحاولان استغلال العالم...

يبقى، رجوعا إلى الانسان والتاريخ، يبقى ان لا تاريخ بدون الزمانية الخطية، التي هي بمعنى ما تقليد لعملية الخلق الالهي التوراتية، العملية القائمة على الفصل وعلى التعاقب والتوالي والصعود بلا انتكاس وبلا آلهة وسيطة (بخلاف نظرية الخلق البابلية مثلا ـ في إطار الشرق الادنى. الواحد، مع المغاير والتاريخ) ومع استحسان الخالق للكون المخلوق في كل دفعة او يوم، مع عملية التزيين بعد عملية الفصل، وصولا إلى الانسان مع استحسان مضاعف... لا تاريخ بدون فكرة ان البعد غير القبل، اذن لا تاريخية في العقل والوجود البشريين بدون فكرة «الجديد». يوجد جديد هو غير القديم، المادة واحدة. لكن الكون غير المادة. والمادة المادة عدم. قيام الوجود، تراجع العدم: جهاد الانسان، سعيه وعمله وفتحه. الله خلق العالم من العدم. الله يخلق الانسان، يصنع، يشكل مواد. وفويرباخ يقلب العلاقة: الانسان يصنع شيئا من شيء، الله يخلق شيئا من العدم، أو الله خلق كونا من العدم. ولا أدري ما اذا كان فويرباخ مطلعا على تخريجة مسيحية وسطوية (هل هي قبل ذلك شرقية واسلامية؟) فائقة الذكاء والجدوى: «الله خلق العالم من العدم» = العدم مادة في الكون، جزء من مواده. و إذا توقف جهاد البشر ضد العدم، نما العدم وانتصر العدم: عدم وجود، عدم زراعة، عدم قانون، عدم مجتمع سياسي، عدم كرامة. فالعدم عدم معين، انه في الوجود عدم شيء ما، يقول هيغل. يبقى أن فويرباخ واحزاب اوروبا متفقة ومجمعة مبدئيا في قيادة المجتمع (المجتمع له قيادة، واوروبا تطيع «اولي الأمر») على أن: «كنْ فكان» هكذا الخالق، لا انتم ونحن وهم وهن. «كن فيكون» هكذا الله أي ليس نحن البشر واحزابهم. وأي هي اذن. اذن الرياضية. ولن أعود هنا إلى سيرة الثورة الروسية والبلاشفة الروس، ولا إلى «الثوار» العرب المتنوعين.

المطلق حد على النسبي. والمطلق حد في النسبي. المطلق عنصر الفلسفة، يقول هيغل، العنصر الذي فيه ومنه وبه تعيش الفلسفة، مثلما الماء عنصر السمك. لكن الشيء (الفلسفة، أو السمك) غير عنصره أيضا، و«أكبر» من عنصره. المطلق عنصر فلسفة هيغل بشكل خاص. وهي أعظم فلسفة «في» التاريخ. العقل تاريخ، مع الانسان والكون. العالم عقل وذات وحياة.

«إما المطلق و إما النسبي، ونحن مع النسبي، نحن مع الواقع ومع العلم» بل ومع «الفكر والعقل واللوغوس» ومع العقل الاوروبي الحديث والمعاصر... إن بعضنا أيها الاخوة يضيف عمله وعلمه إلى الموقف الثاني الذي تكلمت عنه: موقف قبول الدنيا مع

سعي إلى تحديثها، عفوا! مع سعي إلى تحديث الامة، إلى تحديث دنيا العرب وثقافة العرب، مع سعي إلى التحسين لكن في شكل تحديث، بلا مسألة التأسيس.

لنكن أكثر جدية أو أقل تواضعاً ان شئتم! ثمة تواضع وتواضع، وثمة كبرياء وكبرياء، بصرف النظر عن التنويعات اللغوية اللفظية... ان حامل الفكر اليوناني كعقل، والفكر الاوروبي الحديث كعقل هو الفلسفة، فلسفة الفكر أو العقل أو الكلام النافية للرأي (الحقيقة ضد الرأي، ديموقراط والفلسفة اليونانية، جميعاً) والمفروزة عن الدنيوي والعملي، والمنفعة وما شابه من أجل المعرفة والعمل والجدوى...

وان هذه الفلسفة درأت، بجهادها الدائم، مطلب «إما المطلق و إما النسبي» في شكليه النقيضين: 1) المطلق طاردا للنسبي، ماسحاً له. 2) والنسبي مكتفيا بذاته، طاردا المطلق. الشكل الاول محال وبما أنه محال فهو عمليا وموضوعيا يحيّل الدنيا، ويكمل الشكل الثاني. من حين إلى حين، قد يتظاهر خالصا نقيا في انفجار ثورة. تسعة اعشار الثورات في تاريخ الشرق والغرب والجنوب والشمال، بدءاً من امبراطورية السماء (الصين) ومن مصر القديمة، انتهت إلى الفشل. قيامها طبيعي ومحتوم، وفشلها طبيعي ومحتوم...

ان الفلسفة كمنشأ وكنسغ أقامت موقف «المطلق أساسا للنسبي» و«الله أساسا للعالم» بلغة الدين، لكن نجدها عند هيغل مثلا، نجدها في الفلسفة، وان كانت الفلسفة بحكم طبيعتها وبحكم لغتها، لغة المفاهيم، تحجم مبدئيا عن لغة الدين. و إذا فتحنا كتاب كوفيليه المدرسي لصف الباكالوريا الفرنسية (الكتاب الذي في حوزتي عمره ربع قرن) وجدنا فيه، الله ومسألة وجود الله، بل كفصل ختامي، يختم مجموع مسألة المعرفة أو مفصلة المعرفة. الله لا نجده في كتاب علم الفيزياء ولا البيولوجيا بل ولا في كتاب علم الفلك، حتى اذا كان من تأليف رجال دين كاثوليك للمدارس الكاثوليكية، وعندي كتاب من هذا النوع عمره سبعون عاما، بالحقيقة انه ينتهي بطريق من مزمور: «لننقل صاحب المزامير...» لكن القول باللاتينية ومعناه: كل في فلكه يسبحون أو النجوم والافلاك تسبّحه وتغني مجده... وكل الذي سبق: أي الفصول والفصل الختامي والمقدمة، عقلانية رياضية انضباطية صارمة ودقيقة، وتعليمية جدا! ذهننا بالعكس. لن نجد «الله» في ندواتنا الفكرية والعلمية العالية (بخلاف ندوات مع بلوخ وغيره)، نجده في الحياة على الطالع والنازل كاسم بلا معنى حقيقي، كنوع من شيء، نجده في الخطاب التعليمي المدرسي. وفي التعليم العالي لصف الباكالوريا طردنا الميتافيزيقا، في بعض البلدان على الاقل أو في معظم البلدان...

المطلق أساسا للنسبي! هكذا بدأت الفلسفة، في اليونان، والنسبي يكون أرسطو مثلا (الكون، الصير، الحقيقة وأرسطو يمثل على هذه الركيزة علمنة الحقيقة). وهكذا بدأت الفلسفة ثانية في أوروبا. والبداية قرون والبداية الحقة راهن دائم. هذا أول شيء

وأكبر شيء يجب أن ندركه، ان ندرسه، أن نفهمه، بالنسبة لليونان ولأوروبا الحديثة على حد سواء، من أجل ذاتنا وراهننا. نحن في اللوغوس، في اللغة شئنا أو أبينا و إن الأحدث هو الاقرب إلى البداية. الشيخ الهندي ذو اللحية الطويلة قد يفهم آينشتاين أكثر منا. لكن أيضاً ان شعب العلم والتصميم في اليابان قد (!) يكون أقدر منا على استعاب هايزنبرغ ونيلس بوهر وعلى فهم معنى العملية أو العمليات الفيثاغورية والطاليسية والديمقريطية والاقليدية والبروتوغراسية والسقراطية... وهم بالتأكيد أكثر منا في الوجود! فالوجود هو هذا القلم وهذه الورقة مثلا! ووجودنا نحن منتج نتاج. ليس نتاج فعل حب وجودي وبيلوجي فقط بل نتاج كل ما نستهلكه يوميا من طعام..

ليس من جوهر أخير. الاختلاف قوام الوجود. الفكر، فكرنا، ازاءه من أجل معرفته، معرفة الوجود ـ الاختلاف. باعتبار ان الوجود بلا الاختلاف هو فكر وليس سوى فكر. هوية كاملة مطلقة. هوة هوية. الوجود واكثر من ذلك. هويته، وحدته، مضمونه في الكلمة نفسها، المصطلح المفرد: وجود.

الاختلاف قوام الوجود. حرب الهوية ضد الاختلاف حرب ضد الوجود. حرب نوع من المثالية ساقط ضد الواقع، موقف استبداد و إرهاب وعدم...

ان انتصار ستالين على «بوخارين وريكوف وتوتسكي... وفودجاييف و إكراموف» هو انتصار «الفكر على الواقع»، «الدولة» على المجتمع، الهوية على الاختلاف، القيادة على الحزب والدولة، الفرد على الناس، والسماء على الأرض. الذين سقطوا في سنة 1928 هم رموز ذات دلالات على الواقع المتنوع: روسيا والفلاح والانسانية، الاقتصاد وفكرة الدولة، الطبقة العاملة والنقابات، والشرق المغاير لعالم الماركسية الكلاسيكي.

كذلك في فيتنام بعد رحيل هوشي منه واختفاء جيله المناضل العاقل والعارف لاحوال الناس والدنيا الخارجية «جياب»، (فام فان دونغ)، بدءا من سنة 1977، كذلك اليمن الجنوبي وافغانستان وغير ذلك...

وسواء قالوا: «الهوية»، أو لم يقولوا! لافرق في ذلك، ولا مبالاة، سيان. هكذا يقول الفكر، هكذا تقول اللغة، هكذا يقول لوغوس الهوية الصحيح، الواعي لمقولة الهوية. لم يقولوا الهوية؟ ماذا قالوا: الحزب، الثورة، اليسار، علم الثورة، الطبقة الطبقية؟ إذن بالضبط قالوا: الهوية، الهوية طاردة الاختلاف، الوحدة طاردة الكثرة، إلهاً في الارض، ماديا يحذف المواد والاشكال، يحيل المجتمع إلى مادة. لن أذهب في تقدي إلى بلاد عربية تقدمية وثورية، غير ماركسية. ما قلته عن «الهوية» هذه كاف ونيف. وهي ـ البلاد المذكورة ـ دون «اليمن الديمقراطي» في تجربة «الهوية» هذه او مأساتها. و«الهوية» الكلمة الصائتة صائتة اكثر خارج دائرة الماركسية ومآسي الماركسيين، كما هو معلوم!.

والقاسم المشترك الذي هو «هوية» معلوم: فهي جميعا ثورات، على حد سواء. كلها تقول «ثورة»، وبعض الفاظ أخرى مشتركة هي أيضا وبالتالي هويات! «لا يوجد في اللغة سوى الكلي»، يقول فويرباخ ولينين جامع الملف. كل الكلمات الخارجة من فم بني آدم هويات: ثورة، جماهير نضال ضد الامبريالية، شيء، وجود، بل أيضا اختلاف. اختلاف، المقولة اختلاف هي هوية الاختلافات، تهاوي الاختلافات المختلفة، كلمة أولية تؤشر على الوجود الذي خارج الرأس والمميز عن الفكر ولغته بوصفه هو اختلاف. ودرءاً لهذا التهاوي ولهذا الخلط والالتباس، قلنا بمبدأ دعوناه اختلاف الاختلاف، كتأسيس واجب للعمل المقولي، العادي والعلمي...

إن مقولة الاختلاف، أي تأكيد اختلاف الوجود هي جزء أولي وبسيط و«عادي» في التصور الديمقراطي للعالم والسياسة، ميدان مصائر الناس مع التاريخ. ثمة تصور ديمقراطي، الديمقراطية فلسفة، مذهب نظر، طريقة فكر، احترام للواقع، للمجتمع، للناس، لفهم الناس وعقلهم ولمذاهبهم. هذا الاحترام شرط المعرفة، والمعرفة شرط النقد والتغيير. بالنسبة لي، كل الواقع، العالم كله، يجب تغييره. نفي العالم ليس معناه ان هذا العالم غير مستحق، وانتهى الأمر، بل معناه ان العالم مستحق، مستحق كله أن يغير كله: انه النفي الايجابي للعالم. العالم يجب ان يعرف لكي يغير.

والعالم اختلاف بدءاً من الوجود الادنى.

شيء أمامي، اذن هو مختلف عن كل شيء آخر. كل الاشياء متخالفة.

جماعة، حبات الرمل، جماعة السجائر، كتلة كتيلات خارج الرأس، صخرة مفردة بوصفها كلاً من «ذرات» أمامنا. العلم يخضع «شعب السجائر» للمعرفة القانونية، ويحلل الجسم، ويحلل الذرة.

والعلم يدرك الانواع الحية، يدرك الحياة كأحياء كائنة، ذات نظام وذات تطور. فكرة الانواع والفصائل والمراتب والممالك هي فكرة نظام متراتب، وفكرة النظام المتراتب هذه متوائمة مع فكرة تطور الانواع وأصل الانواع ونشوئها وارتقائها على سلم صاعد ومتعدد. الفكرة الأولى أسبق (أرسطو) لكن «ارهاص» الثانية يلازمها. الديالكتيك مذهب عقل وتطور. وهو موقف قديم، نوع من خط له محطات معروفة أو مجهولة، ويعارضه موقف آخر، هو موقف «التقدم انحدار والمعرفة تذكر» (أفلاطون) وثنائي. «الكون والفساد». وهذا الكلام ليس باطلا بالمطلق. الكائن يهرم، الانواع تضمحل وتنقرض، الدول والامم والشعوب ترحل... لكن الموقف الآخر، الحديث، يُبرز أن كون الكائن آتٍ من تكون، ويبرز خصوصية الانسان وانتاجه لعالمه وترقيه. يجب ان لا ننسى ان المغايرة انفساد، فساد شيء ما، وانتهائه وانتقاله أو نفيه الفعلي. وكلمة altération تفيد جيدا هذا المعنى: تغير، تزيف، فساد، مصدرها alter, autre أي غير، آخر. ان التاريخ كتغير وتحول وكتقدم وارتقاء لا تحمله فكرة التناقض ولا فكرة

التعارض، بل على وجه التحديد فكرة النفي: ثمة شيء يُنفى ويبنى... هكذا تاريخ الانسان وتاريخ الطبيعة (الحياة والارض)، في عرض إنجلز لموضوعة نفي النفي. «ونفي النفي» تحمل من الجهة الاخرى فكرة «تركيب». لا تاريخ تقدمي بلا تركيب. بلا التركيب، نحن نبقى عند الين واليانغ أو عند أهورا مزدا واهريمان، في حركة نواس مع الازلية... الثنائيات المفهومية تتحول إلى مثنوية وجودية، صراعية كوسمية فنائية.

اذن نظام وتطور. هكذا عالم الحياة والانواع الحية. لكن الحياة هي بالضبط، بوصفها سيرورة أو عملية، أي بوصفها تاريخ نشوء وتكون وتشكل، عملية فردنة وجملنة، individuation و globalisation لنقل نحو لطابع «الكائن» في حيثية أنه كل ومفرد، جملة فردية. هذا ما يميز «الكائن الحي» عن «الكائن الشيء».

إذا قطعت هذا القلم في منتصفه بصير معي قلمان اثنان، إذا قطعت حطبة كبيرة بصير معي ثلاث حطبات صغيرة. بل أستطيع ان أقطع أغصانا من الشجرة الحية.. الامر يختلف اذا قطعتها عند جذعها. وهناك كائنات حيوانية دنيا تقبل القسمة. الحياة عملية تجملن وتفردن متزايدة، متنامية. اذا قطعت النملة لن أحصل على نملتين ولا على نصفي - نملة بل فقط على قطعتين من اللحم والمواد المختلفة. والانسان ذروة العملية المذكورة...

والذكاء عملية «تجملن»، بالنسبة للتعلم والتربية والتدريس والمدرسة. هذه الفكرة غائبة عندنا، أو ضعيفة. آباء ميسورون من خارج ميدان التعلم أرسلوا أولادا لهم إلى مدرسة أجنبية في الخارج، بعد سنوات هنا، او لهم أولاد هنا وهناك قالوا لي ببساطة فورية: الذكاء جملنة globalisation، وان ابني لا يشكو بتاتا من الصعوبة، بالعكس، الصعوبة هي التناثر، هي الجهد غير المنتج، هي التفاهات... لنقل أيضا: الصعوبة للتلميذ ولكل الامور آتية من موقف خال من الكلي ومن الكل لكنه بعد ذلك يريد ملاحقة المواد وشمول الاشياء بالمفرق. تقام ضد تجارة الجملة تجارة المفرق أو حجارة «التجزئة» كما يقال الآن... هذا الذكاء الملاحق لاحدث الاشياء والمواد والتقنيات، بالمفرق، على خط «اللانهاية السيئة» (1. 2. 3. 4. 5، ...) ليس ذكاء الحياة، ولا ذكاء الانسان! انه ذكاء ساقط. انه لا يتعامل مع فكرة الكون والعقل.

الحياة تفردن. والانسان ذروة التفردن بوصفه جملة.

ان قضية المغايرة في مستوى البشر ترتكز على ذلك. فكرة الفرد البشري الكائن تاما. الانسان، كل انسان، ينتمي إلى فئات عديدة من انواع مختلفة. احيانا ينتمي إلى فئتين من نوع واحد او كيف واحد. إلى مهنتين، إلى ثلاث لغات، إلى دينين أو ثلاثة او أربعة، إلى عرقين او لونين او ثلاثة عروق... وهكذا تتعدد «الطوائف»، تتشكل الفئات أو الزمر الاجتماعية، في الحرية والعقل.

في أمريكا يوجد رجال ونساء تجري في «عروقهم» دماء الابيض والاسود والاصفر

(الهنود الحمر) بنسب معلومة، متفاوتة، وتوجد في اللغة الاسبانية الامريكية تسميات ـ مصطلحات لهذه «الطوائف الدموية» المختلفة، ربما ستة عشر مقولة عرقية نسلية أو نسبية، «أعلاها كقيمة عند بعض شعوب جبال الانديس والمكسيك المقولة التي تدل على القسمة العادلة $\frac{1}{2}$ و $\frac{1}{2}$ و $\frac{1}{2}$! هكذا النسب هناك، والفخر.

و إذا كان الالمان والبولونيون وخاصة اليابانيون يمكن ان يعتزوا بنقائهم العرقي او السلالي، فنحن لحسن حظنا لسنا تحت هذا الاغواء. اعتقد اننا في هذه الحيثية نعرف تنوعنا واختلافنا من الخليج إلى المحيط ومن طوروس إلى السودان وموريتانيا. علما بان الامم والقوميات تختلف فعلا في درجة التخالس. ثمة فرق اكيد، هنا، بين الالماني والبولوني من جهة والايطالي والفرنسي والامريكي والانكليزي والبلغاري والعربي والبرازيلي الخ من جهة ثانية. ومن المعروف ان الأفغان مثلا «شعوب» قلما تتخالط. كذلك شعوب شرقية وجنوبية كثيرة ومنغلقة داخليا في التجزؤ الداخلي، لاسباب ليست بالضرورة من مملكة المذهب الديني. لنقل انها شعوب متقطعة داخليا. انها نتاج التاريخ لكن التاريخ الطويل حجرّها، وهجرها، فتصورت نفسها طبيعة طبيعية !! ونحن لسنا تحت اغواء العراقة العرقية النسلية، لكننا تحت إغواء نوع من عراقة روحية مفوتة تماما، ولا أتكلم عن العراقة العائلية الذكورية، وعن تضافر العراقتين...

اليابان شنتوئية ـ بوذية، وانفتحت بقوة للمسيحية والاسلام، وكأنها تطلبُ وتنشد المغايرة والتعدد. اليابان شنتوئية ـ بوذية وفيها الآن 320 طائفة دينية. كان العدد الذي وجدته في كتاب صادر قبل عشر سنوات لا يزيد كثيرا عن المئة. لكن صديقا لي عائدا من اليابان صحح لي الرقم. حركة تشكل المذاهب حركة يومية. في بيت واحد تجد بوذيا ومسيحيا ومسلما ودين لي، أربعة اخوة تحت سقف واحد اذا لم يكونوا متزوجين... إحدى الطوائف انتحرت «22 شخصا» مع رئيسها احتجاجا على كذا أو ايمانا بكذا... اذن، لنتحول عن اليابان فنحن ضد الانتحار، لكن لنأخذ (!) التقنولوجيا والعلم التقنولوجي، ولنأخذه بدون أي شيء حقيقي في اليابان، ومثلا بدون تعليم السولفيج والموسيقى لكل الناس في المدرسة، لكل شعب اليابان، وبدون الانفتاح على الدنيا التي هي غير اليابان، بدون الحرية والعقل، بدون الفكر والرياضة الفكرية... هذا هو المحال.

من جبال الآنديس إلى اليابان مرورا بالعالم الاوروبي والعالم السوفياتي، هكذا الدنيا، وهكذا الحاضر. هكذا المغايرة مع الديمقراطية والتاريخ.

ان اجتماعية الانسان ليست طبيعة أصلية في الانسان. بل هي فتح تاريخي جهادي على الذات. ليست اجتماع الانسان امتدادا لمجتمع انساني أصلي طبيعي لاوجود له. بخلاف وبعكس مجتمعات النحل والنمل وبعض أنواع الحيوان، إن مجتمع الانسان صناعة تاريخية.

البشرية الاولى تميزت بقتل الانسان للانسان وأكله. هذه ظاهرة عامة على حقيقتها يجمع العلماء. وان الانتقال من افتراس الانسان للانسان إلى أسره وتشغيله واستعباده كان انطلاق التاريخ... والتاريخ تاريخ الشغل مع العبودية. تاريخ الشغل العبدي، الرق والقنانة، وصولا إلى العمل الحر المأجور أو «العبودية الاجيرة» حسب مصطلح ماركس المبرر تماما وغير المجازي بتاتاً. لذلك، عند ماركس، ان التاريخ مع التقدم والارتقاء، لم يكن إلى الآن سوى «ما قبل تاريخ»...

التاريخ، اذن التقدم، هو تاريخ التفاوت والطبقات وصراع الطبقات. تاريخ الملكية مع اللاملكية، وصولا إلى الملكية الخاصة، ذروة التاريخ (أو ما قبل التاريخ بمعنى ماركس). التفاوت (مع الملكية الخاصة والطبقات). والتقدم متوائمان، في التاريخ كما حصل، أي في التاريخ ـ الواقع، التاريخ الواحد والوحيد: لا يوجد تاريخ غيره. على هذه القضية الاساسية، يتفق ماركس وروسو وتوماس مور ولينين، وآدم سميث وريكاردو وهيغل (وذلك بخلاف ما يتصوره أناس كثيرون عندنا)، يتفق رجال الشيوعية الطوباوية والاشتراكية العلمية وعلم الاقتصاد السياسي وجمهرة من رجال الفلسفة والتاريخ والآداب والفنون والعلوم الانسانية. لولا التفاوت، لولا اللامساواة، لولا الطبقات بمعنى واسع وحصري، لولا بطر الاغنياء وتجارة الترف العالمية، لما كان يكون معنا هذا المشهد الكبير: تقدم البشرية خلال 2500 سنة، خلال 6000 سنة. إن روسو وماركس، توماس مور ولينين، متفقون في انحيازهم الأساسي: مع التقدم ونقد التقدم ومطلب التغيير...

ارتقاء الانسان، خروجه من حيوانيته الشرسة، صعوده في الاجتماعية والانسانية، ارتكز على قاعدتين هما الكدح والكبح. المحرمات الدينية حققت الوظيفة الثانية، لاسيما الكبح الجنسي...

هل الصراع دافع التقدم والتطور؟ هذا ما قالته الستالينية. جعلت الديالكتيك مذهب صراع وقفز، في الطبيعة والمجتمع الانساني على حد سواء. الديالكتيك مذهب العقل والتطور، لا مذهب الصراع والقفز ليست كل صراعات البشر مع البشر، ولا حتى كل الصراعات الطبقية، كانت دافعا للتقدم أو مرافقا للتطور، ولا حتى في الغرب. ان صراع الطبقات المتنافية يمكن أن ينتهي إما إلى تحويل المجتمع وأما إلى فناء وهلاك الطرفين معاً. هذا ورد في نهاية الصفحة الأولى من «البيان الشيوعي»! أما صراعات الطبقات والثورات الكبرى في تاريخ الصين حتى القرن التاسع عشر، فلم تنته إلى أي تغيير يذكر. ان تاريخ البشر هو تاريخ انتاجهم لوجودهم. هذا أولاً هو القاعدة التي يرتكز عليها أي شيء آخر، من نوع الصراع والثورات والحروب، ان معرفة (وفرز وتقييم) الدور التقدمي لهذه الحرب أو تلك الثورة وهذا الصراع بين البشر أو ذاك الخ. هي عملية فصل فكرية، عملية فهم وعقل وعلم حقيقي.

ان كلمة «ثورة» يجب ان تفحص جيداً. هناك، في تاريخ البشرية وتطورها بما فيه تعاقب الأنظمة الاجتماعية، صعودا، هناك الثورة ـ التحول وهناك الثورة ـ الانتفاضة الشعبية. تلك لم تنجم عن هذه شتان ما بين هذه وتلك. ان التاريخ البشري هو تاريخ إنتاج الوجود البشري!!

لا الثورة النيوليتية مع ظهور الأرياف (القرى، الزراعة، تدجين الحيوان)، ولا ثورة ظهور الحضارات (الحضارة بحصر المعنى أو المدنية: المدن والدول والطبقات، مصر وسومر الخ) انتهاء إلى اليونان وروما والمجتمع الرقي مع شعب الأحرار، ولا ثورة ظهور اوروبا عالم الاقطاعية الجديد (الذي انضاف إلى العوالم الحضارية السابقة في الجنوب)، هي ثورة بشر طبقية، ثورة كادحين، انتفاضة جماهير كادحة أو أي شيء من هذا النوع.

إن أول ثورات اجتماعية طبقية منتصرة في التاريخ هي الثورات البرجوازية. وهي ذات طابع شعبي دوما، لكنها الثورة البرجوازية قطعا.. وهنا، وهنا فقط، الثورات ـ الانتفاضات كانت جزءا حيويا وناجما في «الثورة ـ التحول»، في ثورة نمو وتقدم دائمة بدأت منذ قرون...

ولا ريب ان ظهور الأديان الكبرى، البوذية والمسيحية والاسلام، هو ثورة كبيرة جدا، جذرية، لكن من الخطأ ان نطلق عليها اسماء من نوع «ثورة اجتماعية» ما دامت الصفة «إجتماعية» ملتبسة وتحيل على الثورة الاجتماعية في العرف الماركسي العام، على فكرة «النظام الاجتماعي» و«أسلوب الانتاج». الثورات الدينية فعلت فعلا مديدا في التاريخ يجب ان يعرف وان ينقد، فعلا روحيا في صعود الانسان وواقعه.

ان فكرة التفاوت اكثر التصاقا بفكرة التاريخ كتقدم من فكرة الصراع والتصارع. ان البشر الاوائل كانوا اكثر صراعا بكثير! هذا ما تعبر عنه عبارات «شريعة الغاب»، «الانسان ذئب للانسان». وان ظهور السياسة كان معناه تراجع الحرب. آثينا اقامت السجال الجديد: الجدل والسياسة، السياسة والديالكتيك، ضد «حالة البشرية الأولى»، كون السجال القديم: الحرب...

ولقد بينا حقيقة «الصراع» في نظرية تطور الانواع عند داروين... لو كان «صراع البقاء» الداروبي هو واقع ان حيوانات تفترس حيوانات، وان السمكة الكبيرة تأكل الصغيرة، لما كان بكون داروين فسر أي شيء، أعطى أي جديد ينضاف إلى معرفة البشر منذ آلاف السنين. ان الصراع المذكور لا يعطي أي نوع جديد، أي تطور... تستطيع الأسماك الكبيرة أن تأكل الصغيرة مليون سنة قادمة أو مليار سنة، ليس هذا من شأنه أن ينتج نوعا جديدا من الاسماك.

إن فكرة الاختلاف والمغايرة، بما فيها أخيراً فكرة التفاوت الاجتماعي مع الطبقات ومع الملكية، هي إذن جزء من معركة العقل والتطور ضد العقيدة الصراعية والفنائية التي

هي نوع من عقيدة كوسمية مغلوطة ومسحوبة على تاريخ البشر. في عصور انحدارنا وانحطاطنا كم كانت الصراعات كثيرة! كانت الحالة «صراع بقاء»، صراعا من أجل البقاء وان هذه الصيغة الداروينية الصق بالحالة المذكورة منها بنظرية داروين: غزو البدو للحضر ولقافلة الحج، غزو القرى العليا للقرى السفلى (قتل، سبي، تهجير نحو الاسفل أو نحو جهة أخرى)، تعارك الجيوش المختلفة داخل المدن، الخ، الخ.

ان الثورة الروحية المتمثلة في دين الاله الواحد هي بين جملة أمور تأكيدها على فردية الانسان. ليس فقط شرع الحدود (القاتل يقتل وليس إبن عمه أو اخوه الخ)، بل بوجه خاص هو العام: النفس الخالدة! ان النفس الراجعة إلى ربها راضية مرضية هي نفس فلان، وليست نفس أخيه أو عائلته و... ليست نفس الامة والجماعة وما شابه!

ليس اختلاف شعب الناس وأمة آدم وكل أمة آدمية كاختلاف «شعب السجائر» أو «شعب الذباب» أو جماعة من حبات الرمل ولا هي كاختلاف «ذرات» صخرة من الصخور.

ان «الوحدة الصخرية» كانت شعار ستالين... وبطرس الرسول كان الصخرة التي بنى عليه المسيح كنيسته التي لن تقوى عليها أبواب الجحيم...، لكنها أيضا تصخرت... الصخرة المتلاحمة المتكاتلة الخ، قتل أعلى عند الشعوب، لكنه كمثال هو رمز حي، صورة، وليس فكرة ـ مفهوما ـ ايدوس ـ شكلا. هذه الصورة ترمز إلى الوحدة، والوحدة تتطلب العقل، المجتمع عقالة...

إن الصخرة لا تتطور، إنها تتغير، تتفصد على المدى الطويل... وهي لا تصمد بتاتا أمام الانسان وعمله وعلمه. إنها شيء من الاشياء. العلم يحل أكبر وأصغر كتلة. لو ان منظري الجماعة أو الامة عاشوا اليوم، لاختلفت نظرياتهم بالتأكيد وبالتمام. يوجد تاريخ... ـ انتهى ـ.

إشكالية العمل الثوري

مجلة الوحدة العدد 5 ـ 1985

1 ـ التاريخ ليس المادة والحركة

في مقال سابق(*)، فرقتُ فكرة الواقع وفكرة المادة: إن فكرة الواقع تُضمّن أموراً لا يمكن أن تحيط بها أو أن تشير اليها فكرة المادة مهما وسّعناها وحوّلناها و«أنضجناها مفهومياً». ولا حاجة لنا أو فائدة في هذا التوسيع أو التحويل أو الانضاج الذي هو لعب لا طائل تحته.

إن فكرة الواقع تؤشّر على منطق بخلاف مفهوم المادة، وتؤشر بالتالي على تاريخ ليس هو فكرة «الحركة».

لا حركة بلا مادة ولا مادة بلا حركة، هذا ما يقوله الماركسيون، هذا ما يقوله فلاسفة وعلماء ماديون وغير ماديين، بشكل خاص هذا ما يقوله هيغل قبل الماركسيين، لكن هذا لا يعطينا من قريب ولا من بعيد، تاريخاً.

فكرة التاريخ لا شأن لها بـ«حركة المادة» و«المادة المتحركة». حركة المادة (الأجسام) في المكان تبعاً للزمان الخ، هذا ميدان اسمه علم الميكانيك. علم التاريخ له قوام آخر، له «سواميك» من نوع آخر.

إن أعمال ماركس (رأس المال، الخ) بعيدة تماماً وبالبداهة عن ذلك الهاجس المادي الفيزيقي ـ الفلسفي، الملتبس، الذي هيمن الى حد لا بأس به على ماركسية القرن العشرين. مع أن أطروحة الدكتوراه لكارل ماركس كانت عن فلسفتي ديموقريط و إبيقور. لكن بالضبط ثمة هوّة بين الذرات والواقع، وهوّة أكبر بين الذرات والتاريخ.

إن الفرق واقع / مادة ينقلنا الى مسألة العمل الثوري.

بادىء ذي بدء، ما هو العمل؟ فكرة العمل، أو العمل بوجه عام.

الشروح

(*) هذا المقال هو الثاني في مجموعة مقالات كتبتها بالارتباط مع محاور الأعداد الأولى من مجلة الوحدة وتسلسل على النحو التالي:

1 ـ تحديث لم تأسيس؟ (الوحدة، العدد الأول، أكتوبر 1984).
2 ـ اشكالية العمل الثوري.
3 ـ أيّ عقل؟
4 ـ الجدل.
5 ـ التاريخ والتقدم.
6 ـ المرتكزات اللاعقلية لمفهوم التقدم.

2 ـ عودة الى «ما العمل؟»

هذا السؤال الأول والأوّلي يختلف عن سؤال لينين في سنة 1902 ، إنه «أدنى» منه و«أبدأ».

آنذاك كتب لينين ما العمل؟ أي ماذا يجب أن نعمل نحن الماركسيين الروس. وهو كتاب مهم جداً : 1) إنه «يُلهم» الثورة الروسية ، وينال التكريس من ستالين، فيسوّغ النخبوية ـ الطليعية. 2) إنه «يُلهم» الثورة العالمية ، الى هذا الحدّ أو ذاك. يجب ألا ننسى أن تسعة أعشار الثورة في العالم هي بشكل وآخر على خط «الماركسية ـ اللينينية» وأن هذا «النموذج الأعلى» archetype يؤثر حتى على خصوم الخط المذكور أو على الذين هم بعيدون عنه.. يحبّونه ويكرهونه بدون عناء معرفته، وبالتالي بدون مواجهة التجربة التاريخية العالمية كفكر وعمل بشريين. إنهم يريدون ثورة عربية تقدمية بدون هذه المواجهة مع حقائق العالم والتاريخ..

لنقل : إن كتاب لينين ما العمل؟، 1902 ، مهم في تاريخ الماركسية ـ اللينينية ـ الستالينية ، روسياً وعالمياً ، ومنهم بشكل خاص في سيرة الثوروية العربية الشاطحة في سنوات 1968–1970 وبعدها ، وفي مناظرتي ضدها[1].

كانت حصيلة المناظرة :

الاقتصادوية (الطبقوية) ليست الماركسية بل شبحها المرافق أو الملازم، الثوروية العربية الشاطحة نسخة مخفضة عن «الاقتصادوية اليسارية» لسنة 1916 الروسية والعالمية؛ «العالم» ليس «المجتمع»، الواقع لا ينحل في «علاقات الانتاج»؛ الثورة الحقيقية لا تُبحر في «العمّالية ضد البرجوازية» ولا في «الكدحانية ضد الامبريالية»، المسألة القومية لم تمض بل هي تبدأ وتنبعث ، لا وجود لـ«ثورة اجتماعية خالصة» وليس من «عامل خالص» : «اجتماعية» صفة ، «عامل أو كادح» صفة ، الاسم سمةٌ لا تستنفد المسمّى. في اليسراوية، ان المقولات «الموضوعية» و«المادية» مسخّرة لخدمة الشطح الجامح الى أمام، هذا الشطح الذي هو المثالية...

لنضفْ:

إن اليسراوية ، التي هي موقف ضد المنطق ، هي أيضاً موقف ضد الديمقراطية. فالديمقراطية موقف فلسفي أيضاً ، موقف في نظرية المعرفة، يُعارض تبديد الواقع في مجرّدة أثيريّة محيّية ، أياً كانت. كل حزب ، وكل جماعة أو جُمَيعة ، إنما تستطيع أن تقول إنها حزب الطليعة ، هي وحدها أو هي وأخواتها اللدودة ـ لا فرق في ذلك ـ ، لكن بين القول والكون هوّة. في دين الاله الواحد، وحده الله الخالق يوحّد القول ـ الكون في الكلمة ـ الفعل le verbe : تلك هي عملية الخلق. وهذه العقيدة حَدٌ، وأساسٌ لاهوتي للديمقراطية : الله فوق، الدنيا دنيا ، البشر بشر، التاريخ تاريخ. لا أحد منكم يقول «كن» فيكون!

هذا يبعدنا عن ثورات القرن العشرين؟ - نعم، بمعنى ما، ولسوء الحظ. فلنعد الى كتاب لينين.

الكتاب عنوانه **ما العمل؟** (Que Faire?. What to be done?) وهو يطرح مسألة **الوعي**: conscience, consciousness. السؤال هو عن **العمل** والجواب هو في مسألة **الوعي**.

الكلمة الفرنسية conscience مضاعفة او مزدوجة بالمقارنة مع الانكليزية. العرب عندهم ثلاث كلمات: وجدان، وعي، ضمير. يمكن إعطاء الثالثة المعنى الأخلاقي («العقل العملي» عند كنط)، والثانية المعنى النظري (العقل المحض أو العقل الخالص عند كَنْط)، واعتبار الأولى أساساً لها: الوجدان مقابل الوجود. هذا الوجود الذي ليس وجود الوجوديين ولا وجود «الشرقيين»، بل هو الواقع ومنطقه والعمل والتعامل والناتج التاريخي: الوجدان - الروح ناتِجه ومُنتجه، انعكاسه وصانِعُه، ومقابله.

«الوعي يأتي من الخارج» (المقصود «الوعي الاشتراكي - الديمقراطي»: (النظري - السياسي)، أي - حسب تصريح لينين، الذي يمحوه تراثٌ طويل - من خارج العلاقة عمال / أرباب عمال، إنه **يأتي من مجموع العلاقات الاجتماعية لمختلف الطبقات والفئات في روسيا التي هي عالم والتي هي في العالم**. المقولة السيدة هي الجملة totalité: **الجملة لا «القانون»**.

«لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية»، «وحده حزب يسترشد بنظرية الطليعة يستطيع أن يؤدي دور المكافح الطليعي»، لكن لينين يذكر - بين هذين القولين الأشهرين - «الأهمية العالمية **للأدب** الروسي في القرن التاسع عشر»، ويدافع عن **الحلم** (حلم الشغيل مثلاً، الحلم المجدي) ضد الماركسوي مارتينوف. إن لينين، في تاريخ الفكر الماركسي في القرن العشرين، بعيد عن العلموية، بعيد عن «النظرية» بمعنى ستالين أو بمعنى ألتوسير والماركسية السائدة.

ولا بأس من التذكير بخاتمة الكتاب: اذن ما العمل؟ (ماذا يجب أن نعمل؟)، والجواب اللاذع ليس عجن عجين مادي ولا حمل بندقية مادية بل هو «الانتهاء من حقبة» في تاريخ الحركة الثورية الروسية (الحقبة الثالثة، التناثر التنظيمي، الضياع الفكري الخ). حمل البنادق تابع. «الثورة» ليست «الانتفاضة». الانتفاضة تابع.

هل من داع للتذكير أيضاً بما سبق لي أن بيّنتُ: إن كتاب «ما العمل؟» ليس غاية ونهاية تصوّر لينين للقضية والقضايا التي عالجها الكتاب المذكور. حتى «الاقتصادوية» - وهي شرود الماركسية «الطبيعي» إن صح التعبير! - يعود لينين الى اكتشافها أو «اختراعها» مرة ثانية بعد سنة 1914. هذه المعرفة الجديدة، المعمّقة، تصيب المفهوم نفسه - الاقتصادوية - وتصيب تصوّر لينين للماضي الروسي القريب: خلافات الماركسيين الروس ومصائر الماركسية والثورة. والتجربة العالمية بعد لينين تذهب

بمجموعها ضد «الاقتصادوية»..

3 ـ السؤال الأول: ما هو العمل؟

سؤالنا الآن ليس «ما العمل؟»، بل ما هو العمل، مفهوم العمل. هذا السؤال لم يطرحه لينين، على الأقل منهجياً، على الأقل في سنة 1902. وهو في رأيي سؤال ـ مبدأ، ومضيَّع في الفكر الماركسي وعند العرب.

أقصد بـ«العمل» الكلمة العربية الشعبية، الرحبة، المفتوحة، و.. المنسيَّة في الاستعمال. هذا جيد شرط أن يوعى وأن نصل مع الانفتاح الى إغلاق. الكلمة العربية ـ العمل ـ ليس لها «مرادف» في الفرنسية مثلاً أو لنقل إن «مرادفاتها» كثيرة، منوَّعة: action (عمل، فعل)، travail (عمل، شغل، كدح)، pratique (عمل، نشاط عملي، ممارسة)، الخ، أيضاً oeuvre (عمل، صنع، نتاج العمل، مع التأكيد على الانسان، العمل الانساني، الخصوصية الرفيعة).. عدا عن praxis (براكسيس، عمل..؟).

ثمة فرق وفروق على هذه الفكرة أو على هذا «النحو» الكبير ليس بين العربية و«اللغات الاوروبية» فقط، بل فيما بين اللغات الأوروبية: الفرنسية، الالمانية، الانكليزية، الخ.

مثلاً، إن travail تُستخدم لعمل أو شغل الطبيعة ولشغل الانسان على حد سواء: هكذا الفرنسية (لا الألمانية: werk, arbeit، لا الانكليزية: work, labor ـ مبدئياً!)؛ فـ travail هي أولاً مفهوم علمي فيزيائي (علم الميكانيك) وثانياً ـ معنى أضيق ـ هي شغل أو عمل الانسان ومفهومٌ لعلم الاقتصاد السياسي. هذا المعنى الأضيق يتضمن المعنى الأوسع. ويتخطاه أي يضيف اليه «كيفاً» آخر.. وثمة فرق بين «لغة» المغرب العربي و«لغة» المشرق العربي. حيث يقول المشرقيون «عمل»، قد يقول المغربيون «شغل» («الاتحاد العام للشغل»).

هذه الفروق اللغوية، على أهميتها، يجب ان لا تجعلنا نضيّع الشيء الأهم. بالعكس: إن «الركوب» على عدة لغات مختلفة يمكن ويجب أن يساعد على بلوغ **الفكرة** (بالمفرد) عبر اختلاف الكلمات، وتبيُّن اتجاهات وعلاقات الفكرة: جدليّتها، جدلية الواقع. يجب بلوغ الفكرة و«بسْطها الى الأمام» (Durchführung، كما يقول رومان رولان عن موسيقى بيتهوفن)، إقامة «تنويعاتها»!

والكلمة «العمل» جيّدة ومناسبة تماماً من أجل الفكرة. مفردة لغوية، كلّية كائنة.

4 ـ العمل فاعلية هادفة

ما هو العمل؟

العمل فاعلية هادفة. العمل عمل الانسان، والهدف هدف بشري (حتى حين يعتبر

نفسه سماوياً وإلهياً فهو هدف الانسان، مباشرةً).

أي انني ـ في هذا العرض ـ أستعمل كلمة «فعل» للأعم الطبيعة كلها (بما فيها الانسان) فِعْل، الفعل فعل الانسان وفعل الطبيعة: فعل الشمس في البحر، فعل الحتّ الريحي والمائي، فعل الحشرات في الأرض وعلى الزرع، الخ. كان يمكن أن أقول: عمل الشمس، الخ، المهمّ ان الشمس لها فعل (أو عمل) لكن ليس لها هدف. العمل الانساني فعل هادف.

أترك هنا مسألة الغاية والغائية. الوضعوية والعلموية تشنّان حملة عليها بوصفها لاهوتاً وميتافيزيقا وايديولوجيا. أوغست كونت وخلفاؤه رفضوا أيضاً السببية مكتفين بـ«القانون».. ولوي التوسير يضع «تعريفاً» للعمل (العمل الانساني) بدون الهدف[2]. أي أنه يطارد الغائية والغاية والهدف، الى النهاية، الى العمل الانساني نفسه الهدف مصطلح غير «علمي»، مفهوم غير عملّياتي أو غير اجرائي. لكن ألتوسير لا يصرّح بهذا الموقف، إنه يحذف «الهدف» بالبداهة!!

أترك اذن فكرة ومسألة الغائية، مكتفياً بالاشارة الى أن هيغل يؤيد فكرة «الغاية الداخلية»، وأترك مسألة موقف أعلام الماركسية من هذه الفكرة، مشيراً فقط الى ان إنجلز يؤيدها ويساويها بفكرة الترابط الكلي أو التواصل الكوني، التي تتخطى ـ بالمبدأ ـ فكرة السببية بالمعنى العادي: فالسببية (سبب ← نتيجة) هي قَطْع وقطعة، قَطع يفرضه العمل والنظر، باعتبار ان كل عمل وكل نظر محدَّد ومحدود. العمل يفترض السبب (سبب ← نتيجة) والعمل أو الصناعة هو محك السببية: هذا ما يقوله إنجلز في مناظرته مع هيوم...

5 ـ الهدف ليس النتيجة

بعد إثارتي هذه الأسئلة وتركها، أبقى اذن مع العمل الانساني.

العمل فاعلية هادفة.

هكذا عمل النجار، عمل فلاح يزرع قمحاً، عمل عالم كيمياء في مخبره، الحرب، العمل السياسي، العمل التجاري، الرجعي، الثوري، الخ، **لا فرق في ذلك**: نحن إزاء هوية، مفهوم، كلية. **الهوية هوية المختلفات** والمختلفات كثيرة. والكثرة ليست خمسة ولا ثلاثين. هكذا الهوية الكلية المجردة: مثلاً **القيمة** (في علم الاقتصاد السياسي الكلاسيكي والماركسي) تتظاهر فعلياً أو تتحقق واقعياً في آلاف أو ملايين التبادلات اليومية المرئية (ولو من وراء الحجاب: المال المحسوس). وكل تصنيف واع إنما يأتي بعد هذا الموقع النظري الأول المتمثل في الكلية أو المفهوم.. وكما القيمة كذلك العمل، المقولة الشعبية ـ الفلسفية.

في كل الأعمال المذكورة آنفاً يوجد هدف but. الانسان يتخذ هدفاً ويسعى الى توقيعه réalisation أي تحقيقه. وهو يُوَقِّعه، الى هذه الدرجة أو تلك، أو لا يوقّعه، أو يوقّع عكسه. مفهوم الهدف غير مفهوم النتيجة. الأول يحيل على الذاتي، الثاني يحيل على الموضوعي، المادي، الواقعي: النتيجة، الأثر، العاقبة، الواقعة... (يمكن أن نرادف أو أن نراصف الكلمات). أما الهدف فهو في الرأس.

عادة يُقال: النتيجة (تحقق وعدم تحقق الهدف) تتوقف على «الوسيلة». ثمة ارتباط واجب بين الهدف والوسيلة (بين الغاية والواسطة). الوسيلة يجب أن تكون «من نوع» الهدف. فمن يزرع شعيراً لا يحصد قمحاً و«من يزرع الريح يحصد العاصفة»: هكذا حِكْمة الشعوب. هكذا اللغة البشرية ومعارَضاتها: الوقع والواقع (الذي وقع)، حساب البيدر وحساب الحقل..

لنقل: إن الهدف (= الذاتي) يدخل في جملة الأسباب التي هي تُنتج النتيجة. قد أتخذ هدفاً لي بناء قصر في جبال هيمالايا. لن يتحقق هدفي. لماذا؟ لعدم توفر «الوسائل»؟ تأكيداً على الموضوعية والموضوعوية، أفضّل أن أقول: لعدم توفر «الأسباب» وبجميع المعاني: هدفي المذكور خارج السببية، خارج الكون والمنطق.. أنا «أريد»، لكن لا شيء خارج هذه «الأنا» المفرَغة يريد.

6 ـ المنطق والعمل

حين أقول: «هدف»، فإن هذه الكلمة كمفهوم تستحضر، في النظر، سلسلة من الكلمات ـ المفاهيم:

نيّة، قصد، وعي، فكر، تطلّع، توجّه، خيار، حرية، مسؤولية، ذاتية subjectivité.

هذا وارد في قراءة لينين لـ منطق هيغل، أي لكتاب عنوانه وموضوعه المنطق وتُسَلْطِن فيه مقولة العمل! «المنطق» ليس مربوطاً بالطبقية، ليس تابعاً لايديولوجية، المنطق مرتبط بالعمل.

قلنا: «حرية». الحرية وعي الضرورة والضرورات. في أحد وجوهها، الحرية هي خضوع واعٍ وطوعي. في وجهها الآخر، الحرية تتضمن الخيار: أستطيع أن أتمرد على نظام السير، لكن في هذه الحال لن أصل الى هدفي وقد أهلك على الطريق. الحرية انضباط، المعرفة العلمية انضباط discipline (حيث يقول العرب «ميدان علمي» يقول الاوروبيون «انضباط علمي»)، شغل النجار أو الحذاء انضباط.

7 ـ المفهوم = كلّي

الكلية «العمل» نعاينها مباشرة في ملايين الأعمال المختلفة، والمختلفة الاختلاف. فكل

«الأشياء» مختلفة ومختلفة الاختلاف (هيغل). لو كانت مختلفة على نحو واحد لعدنا الى التساوي والعدم. زرع القمح يختلف عن زرع الخضار. ويختلف على نحو آخر عن صنع السيارات أو عن «الزرع» الثوري.. والهوية هوية المختلفات. دائماً. لا يوجد «شيئان» متماثلان (أو متساويان) في الأرض والكوسموس (لايبنتس، هيغل،... وهكذا بصمات أصابع البشر الخ).

بعد تثبيت الكلي ـ العمل ـ، يمكن أن أنتقل الى «الأنواع»، أن أضع لائحة بخمسة أصناف أو عشرين صنفاً، وأن أقول إن هذه الأنواع تتفرّع و.. إن الأعمال تتكاثر الى ما لانهاية. علماً بأن هذه الاضافة الأخيرة تؤكد الموقع السابق، الأول كلّي universel = صفة كل الأعمال، والكل يفترض اللانهاية، الكل يفترض كثرة ليست «عدداً» تاريخياً، إن كثرة الأشغال، تنوّعهنّ ولامبالاتهنّ (إمكانية الانتقال من شغل الى آخر، في المجتمع البرجوازي الحديث) تجاه الشغل ووجوب الشغل، إن هذه الكثرة اللامبالية هي التي «حكمت» بروز الشغل ككلية، أي الشغل مجرَّداً، «كمحض فاعلية ذاتية للانسان»، على يد آدم سميث، حسب كارل ماركس، في الفصل الثالث من المدخل («طريقة علم الاقتصاد السياسي»، 1857).

غير أنني، من أجل مسألة العمل الثوري، لن أدخل في تصنيف بل سأميز ثلاثة أمثلة ـ نماذج، أو لنقل: ثلاثة أمثلة exemples هي أيضاً مُثُل idées وأمثولات.

عمل الحذّاء؛ عمل عالم كيمياء في مختبر؛ العمل الاجتماعي التاريخي، الثوري.

8 ـ الحرفة والدعوة

كل منهم عمل، فاعلية هادفة. كل منهم فيه وعي، فكر، نظر (صورة، تصوّر.. أو نظرية كبيرة جداً: لا فرق في ذلك)، كل منهم فيه اذن ذاتية، حرية، مسؤولية الخ. وكل منهم يجري على موضوع، يستخدم موادّ، أدوات، وسائل (مواد مادية وفكرية)، وكل منهم ينتهي الى نتيجة واقعة، الى منتوج أو ناتج أو حاصل.

قبل المتابعة والانتقال الى الفرق بين هذه الأعمال الثلاثة، أرى من واجبي، إزاء العلموية والثوروية والدينوية السائدة، الدفاع عن الحرفة ولا سيما حرفة صانع الأحذية: هذه الحرفة مفيدة وحيوية للبشرية..؛ لوثر وحّد «الحرفة والدعوة» (vocation، نداء) في مفهوم الـBeruf اللوثري..؛ جان جاك روسو، في صفحة مدرسية من كتاب «إميل أو في التربية» يشرح مزايا تعلم ابن الأكابر حرفة يدوية وينتهي الى القول: «أخيراً، يا سيدتي، إنه سيكون أكثر من نبيل، سيكون إنساناً رجلاً»؛ سيّد التصوّف والجدل (نعم وليس، هو وليس) ومدشّن كل الفلسفة الألمانية كان سيّداً في حرفة صنع الأحذية: إنه ياكوب بوهم Boehme. هذا الرجل الذي عاش حوالي سنة 1600 كان تعليمه يذهب ضد ثالوث الوثنية والشيئية والمركانتيلية.

وإرنست بلوخ، في كتابه **فلسفة عصر النهضة**، ينقل لنا ـ بمناسبة بوهم ـ صفحة فلسفية في مَدْح الحرفة المعنّية..

إذن ليس في المقابلة التي سأجريها امتهان لحرفة رجلِ المعرفة العلمية وحرفة رجلِ العمل الثوري. كل منهم، بلا فرق، يمكن أن يكون ملبّياً دعوة ربّه أو أن يكون ملبياً دعوة الشيطان. الحذّاء قد يلبّي نداء ربّه و«رجل الدين» قد يلبّي نداء الشيطان: هذا ما «قاله» لوثر.

9 ـ الكيميائي، الحذاء، الثوري

هدف عالم **الكيمياء** (وكل فاعلية علمية) هو المعرفة. المعرفة هي هدف مجموع عمله (الفكري والمادي)، أي هي الهدف الأخير بالنسبة له كعالِم. التجربة (المادية) التي يجريها على هذه المادة أو تلك وبهذه الأدوات المخبرية وتلك الخ هي جزء من مجموع عمله **النظري**. واذا أثبتت التجربة خطأ فرضيّته، فهو يصحّح الفرضية أو يتخلى عنها، يضع فرضية مغايرة، ويتابع عمله. الفشل هو مباشرة نجاح: العالم يتقدّم في مساره نحو الهدف الذي هو المعرفة النظرية.

ليس الأمر كذلك في **عمل الحذّاء**. هدفه ليس المعرفة، ليس النظر. هدفه صنع الحذاء وكسب الرزق. هنا الفشل فشل وله عاقبة سلبية. عمله ليس «تجربة». الحِرفيّ لا «يذهب» الى العمل (صنع حذاء) ولسان حاله: تجربة، أنا أجرّب.. بعد انتهاء عملية العمل، تصبح هذه العملية تجربة يستفيد منها. الفشل فشل، وصانع الأحذية أنه لا يستطيع أن «يكابر». «المكابرة مقتل له ولعياله». انه ألصق بالواقع والمادة والدنيا. في عمله، النتيجة تظهر مباشرة وبتمامها. الهدف محدَّد وواضح. كذلك المسؤولية.

في **العمل الثوري**، ليس الأمر هكذا. الهدف كبير جداً، إنه الوحدة العربية أو الوحدة والحرية والاشتراكية أو المجتمع الديمقراطي الحديث أو هذا كله معاً، أو هو «تغيير العالم»، «تحويل العالم» (ماركس، **الاطروحة الأخيرة عن فويرباخ**، 1845).

العامل (الفاعل، الصانع) ملايين من البشر، مدة العمل طويلة، العملية معقدة، لها منطق كبير. قد نقول: المسار طويل، لكن من المفيد أن ندرك ان هذه الفكرة ـ المسار ـ لا تكفي، إيحاؤها ملتبس، وهي تصير عند جهات متنوعة «مشواراً» ويطول..

لذلك قلت: عمل وعملية ومنطق. هنا أيضاً يوجد امتياز للعملين السابقين: عالم الكيمياء وصانع الأحذية مدركان بسهولة وبلا مكابرة ان عملية كل منهما لها منطق قائم خارج رأسهما وملزم، ضرورة قاهرة يعونها ويتبنّونها. إغواء الشطط عندهما محدود، إنهما «لا يدخلان في تجربة»[1]، في إغواء.

ولنقل، بمفردات وحدود العمل ـ النموذج العام، إن **الموضوع** يختلف.

في عمل **الحذّاء**، الموضوع **مادة**، مادة ومواد، جلد، مسامير وخيطان وغراء الخ،

الوسيلة أداة وأدوات، المجموع: مادة وأداة ورأس ويد. الصانع يحرّك الأدوات والمواد، يشكّل المادة، يصنع منتوجاً، يخلق شيئاً ـ غرضاً له معقولية مع الدنيا القائمة. والصانع في معظم الحالات لا يفشل. إنه يحقق هدفه، يجعل الصورة كائناً.

كذلك عالم **الكيمياء** أو التشريح والفيزيولوجيا، إنه يحرّك مواد وأدوات. يلاعب manipule المادة الكائنة خارج رأسه، المعزولة في مخبر (والتي يستطيع أن يعزلها اكثر بواسطة مفاعلات كيميائية أو مِبْضع الخ)، ويحوّل المواد الذهنية في رأسه، يُنضج الادراكات (الحدْسات، الرؤى) والتمثلات (الصور) الى مفاهيم، في اتجاه هدفه **النظري**. ـ بالمقابل، في علم الاقتصاد أو المجتمع، أو التاريخ، لا يوجد مبضع ولا مفاعل كيميائي، العالِم (مثلاً ماركس) يستخدم رأسه المجرد (التجريد بدلاً من التجريب)، والواقع ـ موضوع المعرفة ـ يبقى على حاله، بلا تغيير، «بعد كما قبل عملية معرفته» (حسب ماركس). الهدف في هذه الأمثلة هو المعرفة العلمية. المسار «العملي» كمجموع هو مسار النظر.

10 ـ الفلاح، الطبيعة

لا بأس هنا، «كانتقال» من وقفة عند نموذج آخر: **الفلاح زارع القمح**. عمله يختلف عن عمل صانع الحذاء. أمامه **طبيعة**، مناخ، تربة، طقس، حشرات، الخ. هذه الطبيعة من العبث ان نسميها «مادة أوّلية»: هذا المصطلح الأخير آتٍ من الصناعة[*]. الطبيعة ازاء الفلاح ليست جلداً في حانوت الحذاء، أو خشباً في معمل نجارة، أو حديداً ومعادن في سلسلة مصانع رينو للسيارات. إنها «شيء أعلى» في مراتب الضرورة، في مراتب المنطق والحياة والذاتية. ليست مادة لتحريك وملاعبة.

من الفلاح والطبيعة الى الفلسفة والطبيعة!

الطبيعة مفهوم فلسفي قديم وحديث، راية كبيرة ضد الذاتوية، ضد الغائيات البشرية المنفلتة من عقالها، ضد الوساوس والتطيّرات.

ثمة «طبيعة للأشياء». هذا العنوان ـ عنوان كتاب **لوكريس**: في طبيعة الأشياء. وأيضاً: في الطبيعة ـ ذهب مثلاً، وصار شعاراً.. مفهوم الطبيعة يختفي في «العصور الوسطى الدينية» أو الوسواسية، يبرز عند **ابن خلدون** (**السبب الطبيعي** بدلاً من العفاريت، **طبائع** العمران).. ويُسَلطِن في العصر الحديث.

مشروع **ديكارت** هو «جعلنا أسياداً ومالكين للطبيعة»، و**بيكون** يقول: «لكي تطيعنا الطبيعة يجب أن نطيعها»، هذا القول يؤسس فكرة **التقنية** (ضد السحر) معلناً ان التقنية هي «السحر الحقيقي» أي السحر المجدي. ريموند سابونده و**مونتيني** Montaigne يدعوان الى «قراءة كتاب الطبيعة» (أليست الطبيعة خلق الله، أليست هي أيضاً وأولاً كتابه؟). مونتيني ـ «ابو العلاء» الفرنسي ـ يدشّن كل الفكر الفرنسي الحديث،

بالريبية، بالتسامح، بالاستفهام (ماذا أعلم؟ ?Que sais-je)، بالعقلانية والاتصال بين الناس. سبينوزا يقول: الله أي (c'est-à-dire, sive) الطبيعة (أي؟ ترادف أم انتقال؟ ـ سبينوزا حامل مبدأ النني)، والطبيعة لها محمولان كبيران معلومان هما المادة ـ الامتداد والفكر ـ الروح، أي ان سبينوزا يضع الطبيعة «فوق» المادة. **الفيزيوقراطية هي** «حكم الطبيعة» (ضد الحكومات والمونوبولات والذاتويات..). **جان جاك روسو يدشّن التربية الحديثة** بفكرة الطبيعة: طبيعة الدنيا، طبيعة الطفولة، خصائصها ومراحل النمو التلقائي، والطبيعة بالمعنى الأكثر شهرة ورومانطيقية، الطبيعة خارج الجدران.. **ماركس** يستخدم مفهوم الطبيعة كواحد يثنّى: الطبيعة بما فيها المجتمع، والطبيعي مقابل الاجتماعي والتاريخي والصناعي أو الحضاري (أليس هذا الواحد المثنّى موجوداً عند ابن خلدون، بصرف النظر عن المصطلحات التي استخدمها؟).

ماركسية القرن العشرين ضحّت بهذا المفهوم، الذي ارتبط، في تاريخ الفلسفة، بالعقل والمنطق والقانون الخ. ضحّت به لصالح «المادة»، أو «المادة» و«الثورة». آخرون عندنا يضحون به لصالح «الفِطرة». ليست المسافة كبيرة بين الضلالَين المذكورين. الفطرة مفهوم ملتبس «متشابه» (وقد يُعطى معنى ايجابياً وقد يُعطى معنى أحمق، بل معنى وثنياً لصالح «النفس»).

في كل تاريخ الفكر الحقيقي، إنّ هذا اللحن ـ الطبيعة ـ كان بَسْطاً متنوعاً ضد ما يحلو لي ولك أو لنا ولهم. ولم يكن هذا المفهوم طارداً للتاريخ والصناعة والعمران والتقدم، بل كان بالأحرى أساساً لمفهوم التاريخ وعلم التاريخ: هكذا جرت أمور الفكر في العصور الحديثة: بعد «الطبيعة» يأتي «التاريخ»، ويتلازمان.

11 ـ العمل الثوري: الموضوع ذات

في **العمل الثوري**، ليس «الموضوع» مادة. الموضوع مجتمع وعالَم. الموضوع واقع لا يؤخذ بكلمة «مادة» ولا بكلمة «موضوع». بلغة أهل بعض المدن العربية (حلب) وغيرهم، لنقل ان الموضوع هو «الخلق»، أي البشرية، بنو آدم، «الأميّون»، الناس (Gentils, gens)، «الغوييم» (ضد «شعب الله المختار»، قديمه وحديثه). وهؤلاء ليسوا ذرّات، بل هم كينونة اجتماعية، ليسوا مادة بلا شكل..

هذا الموضوع ذات وهو الذات sujet.. بمفردات النحو العربي، لنقل إنه الفاعل والمبتدأ والمسند اليه. ولنقل، بصدد العمل التاريخي وبمصطلحات قواعد اللغة العربية: «المتعدي» يرتكز على «اللازم»: هكذا يجب أن يكون. التحويل يستند على التحوّل، التغيير على التغيّر. (في الفرنسية أو الانكليزية، توجد صيغة واحدة لتحوّل وتحويل: transformation). بالأحرى، لنقل إن التحويل جزء من عملية التحوّل التي تتخطاه في جميع الاتجاهات. الذات الثورية الواعية «جزء» مميَّز في ومن ذات أكبر منها.

ثمة سياسة لأنه ثمة تاريخ. هذا هو الموقع الأوّل في النظر الواعي. أو بالأصح: **يوجد تاريخ لأنه يوجد منطق لواقع، وتوجد سياسة لأنه يوجد تاريخ.** الوعي العربي السائد يسير بالعكس. إنه يعطي لفعل الذات الهادفة دوراً كبيراً جداً، في الرأس، ويقتله في الواقع.

إن الموضوعية الحقيقية هي الاعتراف بذات الموضوع. أي بالموضوع كذات. بالمقابل، **إن الذاتوية** subjectivisme **تخفّض الواقع الى محض «موضوع»، الى مادة و«مادة أوّلية».**

12 ـ ثلاثة تصورات ممكنة للواقع

ثمة، من وجهة نظر **العمل** والعمل الثوري، ثلاثة تصورات ممكنة **للواقع**. تصورات مبدئية، ضمنية أو صريحة.

التصور الأول: الواقع **مادة**. مادة تُحركها الذات الفاعلة، تُلاعبها، تُشكّلها. كأنّ العمل الاجتماعي الثوري هو عمل الحذّاء أو النجّار أو عمل الصناعة: الحديد يتحوّل الى سيارات، والمواشي الى نقانق في معامل شيكاغو.. مع العلم، من جهة أخرى ومرة ثانية، أن عمل الحذّاء والنجّار والصناعة كلها يتضمن خضوعاً وانضباطاً و«قانوناً» صارماً.

التصور الثاني: الواقع آلة، ساعة، آلة دقيقة، بل جدلية و«ديالكتيكية». ونحن (الذات) نملك قوانين عملها. هذا التصور في شطره الأول مُلْك للعصر الكلاسيكي الحديث (ق17–18) وهو يرتبط بالعقلانية في شكلها الأكثر شهرة، وقد مثّل في حينه التقدم: الطبيعة، الكون الخ آلة كبيرة، ويجب أن نُعرِّف. ولم يكن هنالك «حزب» بمعنى «حزب» و«أحزاب» القرن العشرين. فكرة الآلة فكرة تناسق وانسجام ومعقولية.. الماركسية السائدة «تصحيح» لهذا التصور بالجدلية والثورية: الآلة جدلية، الطبيعة والتاريخ يتقدّمان ويقفزان.

التصور الثالث: الواقع (العالم، الكون) **حيوان كبير**. يمكن القول: هذا أقدم مذهب فلسفي. فهو يضرب جذوراً عميقة في تاريخ البشرية قبل اليونان، في «ما قبل الفلسفة»، في مختلف الحضارات. إنه، في الفلسفة اليونانية البادئة، المذهب الهيلوزوئي hylozoïsme (الكون كائن حيّ)، المادي الاحيائي مع أرواح وآلهة الخ. ويصل، عبر تاريخ طويل ومتنوع (أهم ما فيه فكرة المنطق)، الى هيغل.

لنقل: إنه **مؤلف**. وأضعه في المعارضة مع الموقفين السابقين (مادة، آلة)، وهو

يستوعبها و«يحتويها» (اي يوقفها عند حدّها). يكون الخيار الواجب: مذهب «العالم كائن حي كبير» ضد مذهب «العالم آلة» و«العالم مادة». هذا أولاً. بعده، ثانياً: بالطبع إنه مادة الخ، وآلة وآليات وغير ذلك.

«التاريخ الطويل والمتنوع» الذي عيّنته يشمل: دين الاله الواحد، سقوط الاحيائية والأرواحية animisme، سقوط «الجوهرية»، الفلسفة، فكرة الشكل والمفهوم، فكرة التقدم والتاريخ.. إنه مسيرة صراعية ومتناقضة.

13 ـ التوتر بين الهدف والواقع

في قضية العمل، ولا سيما العمل الثوري التاريخي، ليس التقابل أو التعارض قائماً بين «المادة» و«الوعي» بل هو بين **الهدف والواقع**[5].

اذا كان «الموضوع» في بعض الأعمال قريباً من «المادة» كقطب نظري، فليس الأمر هكذا بتاتاً في جميع الأعمال (الحرب، السياسة، التربية، الزراعة الخ). مبدئياً: ليس الموضوع «مادة» بل هو واقع ذو منطق.

العمل، كل عمل، هو مسعى توقيع هدف. هذا يعني: **يوجد تعارض وتوتر بين الواقع والهدف**.

الهدف ليس الواقع، الواقع ليس الهدف. **ثمة هوّة بينهما**.

و إنّ الهدف، لأنه الهدف، ولأنه وبقدر ما أنه ينسّي صاحبه أنّ الهدف ليس الواقع وأنّ الواقع ليس الهدف وأنّ الهدف بمعنى ما «لاشيء» و«عدم»، فهو يسدّ على توقّعنه أو يُرتج على تحقّقه. هذا ما يصل اليه لينين في قراءته لكتاب هيغل: **المنطق**...

إن وحدة العمل والمعرفة، وحدة الحقيقة والعمل، ليست بديهية معطاة بل هي مطلب واشتراط. إن «عمل» الماركسية ليس براغما البراغماتية ولا «أكشن» «action» أفلام الغرب الاميركية، ولا جمعاً «طبيعياً» بينهما.

14 ـ ثلاثة مستويات للمعرفة

حسب **منطق** هيغل، المعرفة ثلاثة مستويات.

الأول هو الشيء، الأشياء «موجودة»، «كائن»: **مذهب الكائن** (أو نظرية الوجود) هو الجزء الأول في كتاب **المنطق**.

الثاني هو العلاقة: تناقضات المستوى الأول تدفع المعرفة الى تجاوز الكائن والشيء الى العلاقة. هذا **مذهب الجوهر** أو نظرية الماهية (ما هو هذا الكائن؟)، الجزء الثاني في كتاب هيغل.

المستويان الآنفان يؤلفان «المنطق الموضوعي».

ثالثاً، من فكرة الجوهر وتناقضاتها، ننتقل الى المستوى الأعلى، الأخير: العالم

كذات وكحياة. إنه ـ بمفردات هيغل ـ «مذهب المفهوم»، أو «المنطق الذاتي»، ذروة كتاب هيغل.

فكرة الجوهر أو الماهيّة تابعة لفكرة العلاقة. فكرة العلاقة تفترض قطعاً و«المفهوم» يتجاوزها الى معقولية أكبر وأحقّ، إلى الكلّ العضوي، الجملة الحية. المسار إنشاء يبدأ من الصفر (الكائن، الكائن العدم: الصيرورة الخ، الهوية، الهوية والفرق،...)، من تجريد كبير جداً وفارغ جداً وينتهي الى اللوحة: هذه، لا «القانون»، هي الغاية. لبنين يؤيد هذا المسار، ماركس «يطبّقه» في رأس المال. لأن له بداية ومبدأ لذلك له غاية ونهاية. وتلك البداية تقود الى هذه النهاية، هذه النهاية تفرض تلك البداية. بتعبير آخر: إنه فعلاً مسار وطريق وتقدّم؛ إنه انشاء للصورة الحقيقية، اي الصورة العميقة، المترابطة، الحيّة والتفصيلية، المطابقة.

اذن ثلاث مستويات. يمكن أن تبقى المعرفة في المستوى الأول، في المستوى الثاني، بينهما.. أما الجدل أو المنطق فهو اشتراط الذهاب الى المستوى الثالث: العالم ذات وحياة. وليس مادّة للملاعبة، ليس آلة وآلات امتلكنا قوانينها ولم يبقَ علينا الا «تطبيق» هذه القوانين. العمل الانساني، مأخوذاً كجملة «أكثر» من فكرة «التطبيق» هذه.

15 ـ الخيار الثوري واجب وراهن

ما هو الخطر الذي يتهدد عقل الذات الثورية؟

لقد اخترت هدفاً كبيراً: الثورة العربية، الوحدة، الاشتراكية، الخ. اخترت ذلك بوعيي وضميري. والخيار مبرّر. الأوضاع العربية يجب أن تُقلب من أساساتها، الوحدة العربية ضرورة؛ ملايين البشر على حافة الجوع، التنمية القطرية الاقليمية مختنقة وشاردة، الامبريالية، الصهيونية، النفط...، الأمة العربية مهدّدة بالهلاك في عالم قوى عظمى مأزوم... إن خياري التزام نهائي، لن أتراجع عنه وسأتفانى من أجله الخ.

لكن يجب أيضاً أن أتساءل بعد هذا الخيار ومعه: ما الخطر الذي يتهدد وعيي؟ ما هو الخطأ او الضلال الذي يتربص بفكري ونظري وروحي؟

ليس روح التضحية والتفاني هو ما افتقده ألوف الشباب العرب من الخليج الى المحيط!

لقد اخترت، في سنة 1840 أو في سنة 1895 أو في سنة 1920، الخ، «تغيير العالم». الخيار مبرَّر: العالم يجب أن يُغيَّر، هذا استحقاقه... وهو مبرّر اليوم أكثر منه في زمن ماركس.

فالتقدمية البرجوازية المتفائلة، الاقتصاد البرجوازي المبتذَل، الوضعوية والعلموية، التطورية والبراغماتية الخ، هذا كله ينكشف بطلانه اليوم أكثر بكثير من الأمس. التقدم التقني والتكنولوجي المذهل، التقدم المتسارع الذي رفع الانتاجية (مردود الشغل

الانساني) الى أضعاف ـ أضعاف ما كانت عليه بالأمس، هذا كله لا يُطعِم البشر الجياع (والماركسيون محقّون ـ ضد هذه الايديولوجيا البرجوازية وأتباعها المتنوعين ـ في التأشير والتأكيد على مستوى علاقات الانتاج، نظام الملكية، توزيع الدخل، الطبقات وصراع الطبقات)، البطالة تستفحل، البيئة تتدهور، ثروات باطن الأرض تسير قدماً في طريق النفاد، الانسان الصانع والعاقل يتنكس الى انسان الأخذ والتخريب، الكرة الأرضية تتصحّر وتتصلّم، تنمو انخلاعات وأفيونات واستبدادات جديدة وقديمة.. نمو القدرة الانتاجية هو أيضاً نمو القدرة التدميرية، البشرية تعيش تحت خطر حرب عالمية ثالثة، نووية.. إن المشروع الماركسي الكبير، كما عرّفه إنجلز وماركس في عدد من النصوص الكلاسيكية والذي ليست «الاشتراكية» كما يفهمها «الرأي العام» الماركسي سوى جزء منه، إن هذا المشروع راهن اليوم وملحّ.

الخيار الثوري مبرّر. لكن، وقد اخترت الهدف الثوري، يجب أن أتساءل: ما هو الخطر. أو الخطأ الذي يجب أن أدرأه من العتبة، مبدئياً؟

من الواضح ان السؤال ليس شخصياً.

16 ـ الذاتوية، الارادوية، المثالية

هذا الخطر هو هذيان الهدف على حساب الواقع.

هذا الخطر هو الذاتوية، الارادوية، المثالية. «ثلاث كلمات لشيء واحد».

بالمثالية أقصد هنا الضلال وحسْب. ضلال العمل الانساني وضلال الوعي الانساني. لا أقصد «المثالية الفلسفية»، مذهب أو مذاهب المثالية الموضوعية (أفلاطون، شيلنغ) والمثالية الذاتية (بركلي، فيشته) والمثالية المطلقة (هيغل) الخ.

إنها لخسارة نهائية أن لا «أقرأ» هذه المذاهب الفلسفية قراءة إيجابية. الذي أخسره في المبدأ هو المفهوم وهو العقل. والذي أخسره كذلك، في المبدأ، هو حقيقة المثالية ـ الضلال، الحقيقة البسيطة. هذا الضلال البسيط كان ويمكن أن يكون في كل حين ملكاً (لا للفلاسفة بل) لمئات الملايين من البشر.

المثالية، الذاتوية، الارادوية. هذيان الهدف على حساب الواقع. هذيان الارادة على حساب صلابة الواقع، التي ليست صلابة جبل هيمالايا، بل هي منطق الواقع وذاتيته وحياته.

أشكال هذا الضلال متنوعة: نتكلم عن المستقبل بصيغة الحاضر، نتكلم في السياسة بلغة الحرب (استراتيجية وتاكتيك، قوى الثورة واحتياطي الثورة) بدون أخذ وعي الفرق. بدلاً من أن يكون عندنا تصور للواقع وخط عمل، يصبح عندنا استراتيجية وتاكتيك، «نظرية» أو كلاماً على الأقل.

«العالم إرادة وتمثيل»، الارادة إرادتي، وتمثيلي (صورتي الذهنية) في خدمة إرادتي.

بدلا من البدء بالسؤال: كيف الواقع وكيف يسير، ما الواقع واحتمالاته ومفارقاته؟ نطرح فوراً السؤال كيف نحقق الهدف؟ وفي أحسن حال، نحلّ الواقع في صراع إرادات.

حتى التاريخ! كأنه عندنا مكتوب بضميري المتكلّم والمخاطب: نحن، أنتم. مع أن جميع الحقائق العلمية مكتوبة بضمير الغائب. لكن، اذا تدهورت أحوالنا الذهنية والروحية، فقد يأتي يوم نحاكي فيه كتبُ الفيزياء كتب التاريخ والسياسة. وقد يتعلم طلابنا عندئذٍ: أنا الأرض أدور حول أنتِ الشمس، أو ربما العكس: أنتم الأرض تدورون حول نحن الشمس، لا فرق في ذلك.

بحجة ان التاريخ عمل البشر، يكفّ التاريخ عن كونه عملية أو سيرورة processus، موضوعية وضرورية، تتضخّم الذات والذوات، يتجوهر الشعب وتتأقنم الجماهير. ينحلّ التاريخ في «الثورة»، الانتفاضة الأبدية، العاجزة في معظم الحالات. العملية (السيرورة) تنحل في العمل، السياسي والارادي.

يقول الشاعر: «صحّ مني العزم والدهر أبى». وهو قول جميل في قصيدة جميلة حقاً، ما دامت علّمتنا بـ«غادة اليابان» «أن نرى الأوطان أمّاً وأباً». غير أن هذا الشعر شعر وليس نظرية معرفة. واذا ما خفّفنا وقلّصنا، في روحنا ونظرنا، فكرة العمل الى عزم عظيم فإن الواقع يتحول الى دهر أعظم في شره.. العمل «أكثر» من عزم، الواقع «أكثر» من دهر. «العزم» ليس الا واحدا من اشتراطات العمل الثوري.

هذا الضلال ـ المثالية، الذاتوية، الارادوية ـ أدنى وأبسط وأكثر أساسية من ضلال الفلاسفة. علماً بأن الفلسفة المثالية ترتبط بالفاعلية الانسانية، بالذات أو الذاتية: وهذا الارتباط هو مزيّتها ومأثرتها التاريخية التي نالت تثمين واعتراف ماركس في أطروحته الأولى عن فويرباخ، وذلك بالمعارضة مع «المادية السابقة كلها بما فيها مادية فويرباخ»: المثالية لم تنظر الى الموضوع كمحض موضوع Gegenstand, objet، منتصب إزاء الحدس والرؤية والتأمّل..

الضلال ضلال انساني، بشري. الانسان الصانع والعاقل له «مصلحة» في المعرفة وفي ضلال المعرفة. والمعرفة تضل عن مصلحة وبلا مصلحة! يوجد خطأ لأنه يوجد صواب. يوجد صواب وخطأ لأنه توجد معرفة ومسألة معرفة. لا معرفة بدون تجريد، بدون كليات ـ عموميات، سواء وعينا ذلك أو لم نعه.

17 ـ مصدران للخطأ

حسب لينين، للخطأ نوعان من المصادر: 1) مصادر اجتماعية. 2) مصادر غنوزيولوجية (معرفية).

التراث الماركسي، بوجه عام وفيما عدا استثناءات مهمة (جورج لوكاكش، مثلاً)،

غيّب المصدر الغنوزيولوجي، رغم تأكيدات لينين ورغم ماركس. والوعي الماركسي الغالب قلّص المصدر كله الى الرجعية. في مذهبة الضمني ـ الذي يغدو صريحاً ومعلناً، في أية محادثة موجّهة تعقد مع «ماركسي» عادي من بلادنا ـ، إن الكينونة الاجتماعية هي علاقات الانتاج (الطبقات، نظام الملكية)، والوعي هو الايديولوجيا، الفكر هو الايديولوجيا، بلا فرق، المنطق ملحق بالايديولوجيا، المعرفة جزء من الايديولوجيا، علم الاجتماع أو الاقتصاد ايديولوجيا برجوازية أو اشتراكية، وكذلك قبل ثلاثين سنة علم الفيزياء وعلم البيولوجيا والوراثة. الايديولوجيا صنف كبير يحوي الفلسفة والفن والدين والعلوم، باعتبارهم «نظريات» متصارعة. باختصار، «الطبقوية ـ الايديولوجية» ألغت فكرتي العمل والعقل وحلّت العالم في «ثانونها» (أو واحدها الاثنيني): تجريدة علاقات الانتاج وتجريدة الايديولوجيا.

غير أن الوعي الماركسي السائد والفاعل حوله لا يبني فقط المصدر المعرفي للضلال، بل هو أيضاً يحصر المصدر الآخر ـ الاجتماعي ـ في الطبقات الرجعية والبرجوازية والمستغِلة الموحّدة في نظرة «إجمالية» لا تاريخية للتاريخ.

هذا الشطط تحمله اليوم، بأشكال مختلفة، شتى الأحزاب أو الحركات الثورية، وقوامه إلغاء التقدم التاريخي وفكرة التقدم من أساسها. الحقيقة تُحوَّل الى حق أخلاقي، كاذب، «موضوعياً» على الأقل. المعرفة تلغى «لصالح» العمل، عمل مستحيل.

18 ـ الحقيقة التاريخية

اذا نظرنا الى التاريخ على امتداد ثلاثة آلاف سنة، يتبين لنا ان هناك مسافة كبيرة بين ايديولوجية الكادحين المظلومين والحقيقة التاريخية. وأفضّل على صيغة «المصدر الاجتماعي» للخطأ صيغة «المصدر الايديولوجي»، مع التأكيد، في المبدأ، على أن هذا المصدر ليس حكراً على الرجعيين والمحافظين والمستغِلين.

البشرية تتقدم من مجتمع لا طبقي الى مجتمع طبقي ثم من مجتمع طبقي الى مجتمع طبقي آخر، أو هي لا تتقدّم، تراوح في مكانها، تدور على نفسها. هذا التقدم التاريخي هو تقدم قوى الانتاج والانتاج (الأدوات: العصر الحجري، عصر البرونز ثم الحديد، الخ؛ أشكال الانتاج: صيد وقطف، ثم زرع ورعي، الخ) ونمو تعداد البشر (من حوالي 15 مليون الى 100 مليون الى 300 مليون الى 500 مليون في أوائل العصر الحديث...). إنّ الانتقال من ما قبل الرقّ الى الرقّ هو تقدّم، وبالنسبة للعبيد أنفسهم: قبل ذلك، لا عبيد، أي لا أسر في حروب القبائل بل الموت للمهزوم. وصعود «اوروبا الغربية» من البربرية الى الاقطاعية (بين ق5–8 وق11–12) ثورة كبيرة، بداية لكائن تاريخي جديد. «الشيوعية البدائية» بربرية وهمجية: هذا ما علّمته الماركسية بوصفها مذهب المادية التاريخية (ضد المثالية الأخلاقية مثلاً)، وما لم يجهله أو يتجاهله بتاتاً عمالقة الفكر

الذي ندعوه بحق «الاشتراكية الطوباوية» والذي هو أكثر عقلانية وواقعية وصدقاً من بعض الفكر العربي الثوري المعاصر. إن فورييه Fourier مثلاً تصوّر التاريخ، بآن معاً، كانتقال من الهمجية الى البربرية الى المدنية، ومن المساواة الى اللامساواة، من اللاطبقات الى الطبقات. هكذا التقدم عند جان جاك روسو أيضاً: من المساواة الى التفاوت بين البشر، بل الملكية الخاصة. التناقض لحن مهم في فكر الاشتراكية الطوباوية بوجه عام. هذا الفكر جدلي!

إن قسماً كبيراً من الوعي العربي الثوروي، الذي يحمل الآن ألوية الثورة والحرية والعدالة، يقع دون مستوى روسو والأب موريلي وفورييه وتوماس مور وغيرهم. بالأصحّ، إنه يقع خارج الفكر وخارج الوعي (إنه في الرؤية المناميّة) وهو لا يرى عند هؤلاء مآثرهم الأساسية: التجرد والتجريد، الكليات المفهومية التي لعبت دور الأساس والركيزة للبناء الفكري (الطبيعة، الحق الطبيعي، الانسان؛ مطلب مقاضاة الواقع والتاريخ والتقدم أمام محكمة الوجدان والوعي، كاشتراط دائم، روحي ونظري..). إن الوعي العربي الثوروي يلغي الطبيعة والتاريخ، معاً وبالتلازم، لصالح هواجس الذات التي تتخذ أسماء متنوعة ومتضاربة. المقاضاة مرفوضة، بديلها «الرفض»! فكرة التناقض مرفوضة. واذا البشرية لم تحقق العدالة قبل ألف أو ألفي عام فالسبب هو سوء النية، المتآمرون، الجواسيس...

في التاريخ، ليس الثائرون و«المعرفة العلمية» في صف واحد. الكادحون، في معظم الحالات، لم يثوروا تحت لواء العقل أو تحت لواء التقدم أو «النظرية المادية العلمية»، بل وراء ألوية أخرى: الخلاص، العدالة، الجنّة على الأرض، و(في تاريخنا) الحنبلية أو الامامية. وفي تاريخ جميع الشعوب، من الصين الى اوروبا الغربية، ثمة فرق كبير بين «طبقة تقدمية» و«طبقة كادحة»، وفرق كبير بين «تقدم» و«ثورة».. العبيد ثاروا، أكثر من مرّة، في تاريخ روما والامبراطورية. هل هم طبقة «ثورية»؟ بأي معنى؟ وهل هم طبقة «تقدمية»؟ في اوروبا الغربية، كانت البرجوازية طبقة تقدمية وثورية مع أنها طبقة مستثمِرة منذ ما قبل الثورة البرجوازية الظافرة، بل منذ القرن الثالث عشر..

هكذا «الماضي». والبروليتاريا الحديثة حالة جديدة نوعياً في الحيثية المعنيّة. لكن من الشطط أن نقول: الماضي مضى، الحاضر ماهية أخرى، البروليتاريا أو البروليتاريا وحلفاؤها معصومون عن.. **الذاتوية الثورية**. من العبث أن نقول إن حزب البروليتاريا (إن ليس البروليتاريا نفسها) معصوم عن الخطأ، أو معصوم عن الخطأ الكبير. من الأحق أن نقول، في المنطلق، وكتنبيه أوّلي للذات الثورية: حذار! لمشروع كبير خطأ كبير.

إن للثورة الاشتراكية في عصرنا نَسباً خلاصياً أكيداً. والمطلوب أن ينال هذا

النسب الخلاصي العريق الاعتراف (والاعتزاز)، باعتبار ان الاعتراف شرط للسيطرة بالعقل على البعد المذكور. حين لا تنال الاحدائية الخلاصيّة الاعتراف فهي التي تُسيطر وتشوّه وتخرّب، وتنفي العمل خارج الجدوى.

في اعتقادي، تستطيع الجماهير أن تناضل من أجل غدٍ أفضل، وأفضل جذرياً، بدون أن يكون هذا الغد جنّة وبدون أن يقال لها انه الجنّة.

لقد وصلت البشرية الى أكبر مفترق في تاريخها الطويل. الفكر البرجوازي المستنير يتّهم المشروع الاشتراكي بأنه طوباوية. ما لا يراه ولا يواجهه هذا الفكر هو ان المشروع الاشتراكي هو الرهان الوحيد والخيار الوحيد. ليس من أجل «غاية ونهاية»، بل من أجل تاريخ آخر.

وما أكبر ثورة في التاريخ سوى درجة على سلّم التاريخ. وأمام البشرية هذه الدرجة الأكبر. وكذلك العرب كافّة.

19 ــ الوضعوية العلموية في خدمة الذاتوية الثورية

الذاتوية الثورية هي الضلال «الطبيعي» الذي يهدّد الوعي الثوري.

والوعي الثوري «العلمي» و«الماركسي» الخ مهدَّد بهذا الضلال مرّتين.

مرةً لأنه ثوري.

ومرةً لأن «الماركسية» تقدّم له ما يشاء من مبررات تغطّي ضلاله الأساسي: إن مذهب «المادية الجدلية والمادية التاريخية» خادم جيّد للمثالية، الذاتوية، الارادوية. «الماركسي» يستطيع أن يقول لنفسه: انا مادّي، أنا علمي، أنا بعيد عن المثالية، أنا حسمتُ «المسألة الفلسفية العليا»، أعلمُ أن الأشياء موجودة والملائكة والشياطين غير موجودة وأنّ المادة هي الأصل، وأنا أملك «القوانين» العامة للطبيعة والتاريخ، أعرف أن الواقع الحقيقي هو الاقتصاد والسياسة تكثيفه، اذن هو الطبقات والأحزاب، أما الطوائف الدينية، مثلاً، فهي غير واقع، أو هي ماضٍ والتاريخ يتقدم.. العمل الثوري ينحط الى تقنية ملاعبة، السياسة تُعسكَر: المسألة المركزية في الثورة هي مسألة السلطة، والسلطة في فوهات البنادق: «النضال» يلغي العمل والحياة، و«الكفاح المسلّح» يلغي النضال.

العالم مادة وحركة، له قوانين، ليس له عقل أو منطق. العقل عقل «الانسان» والنظرية العلمية المادية والطبقية ذروته.

كل هذا الذي سبق حق وباطل، وفي الحاصل، إنه باطل الأباطيل: الذاتوية.

كمسطرة من خارج الوطن العربي، لا بأس من إيراد مثالٍ شهره مفكر فرنسي غير ماركسي، هو موريس دوفرجيه. المثال ــ الأمثولة اسمه «أشجار برتقال بحيرة بالاتون». «الجمر، 1950.. الرفيق ماتياس راكوشي بالقرب من بحيرة بالاتون.. أمامه سهل

الجر المترامي الأرجاء والفائق الخصوبة. يستدعي كبير المهندسين الزراعيين. ما رأيك؟
ـ منظر خلاّب، إنه السهل المعظم، والتربة ممتازة..
ـ هنا سنزرع بستاناً كبيراً من البرتقال، ليكون شاهداً على الاشتراكية وقدرة الانسان. ـ لكن، أيها الرفيق الأمين العام.. المناخ، البرد.. هنا وسط أوروبا.. ـ لا! دعك من هذا الكلام المثالي، فالحزب قادر، الاشتراكية العلمية والنظام الاشتراكي يفتحان آفاقاً جديدة الخ. و... هُزم المهندس، وزرعت الأشجار. وحين قضى عليها «الطقس» سُجن المهندس...

موقف هيغل عكس هذه الذاتوية: 1) العالم له منطق، منطقه هو. 2) «مكر العقل (مكر الله)» مفتاح فلسفة التاريخ الهيغلية، وهو العاصم المبدئي عن الذاتوية. المطلق لا ينحلّ في نسبيات التاريخ، في «أحزاب» البشر وغاياتهم. ثمة نفي أو سلب négation.

المطلق والنسبي ليسا شيئين. لا النسبي شيء ولا المطلق عفريت. المطلق والنسبي مفهومان وحدان. المطلق حدّ، يحدّ النسبي. ومن ليس عنده المطلق يحوّل نسبيه الى مطلق. ذلكم هو الاستبداد.

20 ـ العمل الثوري

والعمل الثوري؟

1 ـ ثمة هوة بين الواقع والهدف. ليس فقط في روسيا 1917-1922، المتأخرة، الفلاحية، نصف الآسيوية الخ أي في روسيا السوفياتية كما يراها لينين وينقدها بشكل لاذع. وليس فقط في الصين وشتى بلدان العالم الثالث. بل أيضاً في الغرب المتقدم، الصناعي، الحضاري، ذي التراث الديموقراطي: الثورة لم تقع، الاشتراكية لم تتحقق. «الهوّة بين الواقع والهدف» موقف فلسفي مبدئي، يتعلق بمفهوم العمل نفسه. بعد هذا التأكيد، أنتقل الى تمييز البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة (اوروبا، روسيا، الصين، الهند الصينية، افريقيا الخ)، أدرس الشروط الموضوعية وقصورها الجذري في بعض الحالات، منتقلاً من «الشروط الموضوعية» الى «الجملة الواقعية»...

2 ـ العالم كذات، المجتمع كذات، الشعوب كصانعة للتاريخ. هذه المعرفة وظيفة الفكر. لن يؤديها الا بالجدل: فكرة الجملة، فكرة التناقض كمفهوم. الشعب ليس كلمة بديهية، الشعب ليس جوهراً أزلياً. ولا الطبقات. العامل، الفلاح، الخ، أسماء لا تستنفد المسمّيات. «الفلاح»، بخلاف العامل والطبقة العاملة والبروليتاريا، فكرة تحيل على نوع شغل، على نوع إنتاج، على علاقة مع الطبيعة أولاً. هذا ما نسيه ستالين في سنة 1928.

برنشتاين قال: «الهدف لاشيء، الحركة كل شيء». خطيئته ليست في الشطر

الأول مجرّداً. كل ثوري يجب أن يقول ان الهدف، بمعنى ما، لا شيء. (وبالضبط، يجب أن يقول ذلك لأنه هو لا يتخلى عن الهدف بل يسعى اليه). الخطأ في الشطر الثاني: «الحركة»؟ «حركة العمال»، «حركة التاريخ»، التقدم والاصلاحات، نموّ الديموقراطية، الخ. إن حقيقة الواقع أكبر من «الحركة». في 1914، قامت حرب عالمية لأول مرة في تاريخ البشرية. برنشتاين وأقرانه بعيدون جدا عن هيغل. ذوّبوا الواقع في حركة التقدم كما يرونها. هيغل في نظرهم ميتافيزيقا.

في العمل، الواقع يعارض الهدف. والمطلوب تَوَقُّعُن الهدف. بالتالي، المطلوب معرفة الواقع، معرفته كجملة حية، ككل متناقض، كجمع يتضمن فكرة اللانهاية (هذا الذي يعبّر عنه في علم الرياضيات بالحرف اليوناني سيغما sigma). وهذا يفترض الصفر كمنطلق، أي التجرّد، الأمية الروحية، «الصحيفة البيضاء» العقلانية، وذلك ضد المباشرة بالقبض على حد من الحدود ثم الركوع لهذا الحد الذي يتضخم ويَسْتَطلق.

من الواضح أن مثقفينا بوجه عام يرفضون الصفر كمبدأ أو المبدأ الأمّي. في نظرهم لا شأن لانساننا المسكين بسقراط وديكارت. فسقراط وديكارت فلسفة عالية، والشعب شعب، جوهر ومسكين. وهم ـ المثقفون ـ في الوسط، بين الشعب والفلسفة، ملتصقون بالواقع والعلوم. وعلى أي حال، أو في أحسن حال، إن المبدأ ـ الصفر يتنافى مع المعارف التي يملكونها ومع التقدم. إنهم لا يعون أن التقدم هو الذي يفرض دائماً هذا المبدأ. حين هيغل (المنطق) أو ماركس (رأس المال) أو ديكارت الخ يبدؤون بالصفر فهم ليسوا جهلة بل هم قد حصّلوا معرفة ومعارف دونها بكثير معرفة ومعارف المثقف العربي النموذجي، الملتبسة تماماً، والتي قررت البقاء في الالتباس.

وحده الجدل يمكن أن يكون مرشداً للعمل الثوري.

قلت: الجدل. كان يمكن أن أقول: المنطق، العقل.

الشروح

4 ـ انظر بشكل خاص: نظرية الحزب عند لينين والموقف العربي الراهن، الماركسية ـ اللينينية والتطور العالمي والعربي، نقد الفكر المقاوم (دار الحقيقة 1970) وأيضاً للماركسية والمسألة القومية (دار الطليعة 1970).

مولفي لم «يُرَدّ» واعتقد أن لن يُرَدّ. كثيرون من هاجموني تراجعوا. أسماء مستعارة («قيس الشامي») اختفت من التداول. في سنة 1970، ألفت المعارضة ماركسية / الناصرية. هذا الموقع كافٍ، بعد سنة 1970، الى موقع آخر أختزله في المعارضة جدلية / وضعوية. أعتبر هذه المعارضة الأخيرة بمثابة الركيزة الفلسفية للمعارضة السابقة.

وفي اعتقادي، ليس الماركسيون وحدهم معنيين بهاتين المعارضتين.

إن فهمي لمصطلح «الاقتصادوية» يختلف عن الفهم الشائع في الغرب، يتفق مع فهم لينين في 1902 و1915-1916، ويرتبط بالتجربة العربية المعاصرة.

الاقتصادوية مذهب «ماركسي» ينتقل من التأكيد على علاقات الانتاج (اذن الطبقات، الخ) الى حل الكينونة الاجتماعية في هذا المستوى والى حل الواقع والفكر في علاقات الانتاج والايديولوجيا مضحياً بالانتاج والمنطق والمعرفة والعالم كعالم أم...

2 ـ في كتابه من أجل ماركس، بالأصح، انه يستغني عن فكرة العمل، ويعطي «تعريفاً» لـ«pratique» (النشاط العملي) بدون الهدف، وتصوراً يلغي التقابل أو المعارضة نظر / عمل. عمل / نظر (العمل تحت النظر، النظر يرشد العمل)، وهو... أخيراً (في كتاب قراءة رأس المال) يُلغي العمل ككلمة بإعلانه: لا يوجد عمل (ممارسة) بوجه عام، بل فقط عَمَلات (ممارسات) خصوصية ـ نوعية، هي (في عَرْضه) تارة أربعة وتارة خمسة أو ستة: ليس لهذه النقطة الأخيرة أية أهمية. المهم أن ألتوسير ألغى الكلي والمجرد بالتلازم وأقام عدداً من الماهيات أو الجواهر (أربعة أو خمسة أو ستة).

ألتوسير امتدح صراحة أوغست كونت مدّعياً أنه مظلوم في التعليم في فرنسا (إذ الرجوع الى كتاب الفلسفة لصف الباكالوريا، مثلاً كتاب كوفيليه، يدلّل على العكس تماماً!)، عرّف الفلسفة بأنها «نظرية الممارسات النظرية» (أي بلغة أبسط: نظرية العلوم والفاعليات العلمية)، قاطعاً إياها عن العمل الانساني نفسه الذي ليست العلوم سوى جزء منه. ثم، في التنبيه القصير الذي يتصدر الطبعة الثانية لقراءة رأس المال (السلسلة الصغيرة، ماسبيرو)، قام بنقد ذاتي سريع، تراجع عن التعريف الوضعوي والعلموي. ألتوسير مُغْرَم بـ«التعريف»، أولاً ككلمة فرنسية تعني définition، وثانياً كفكرة مغايرة ومعارضة لفكرة التعيين أو التحديد détermination الألمانية أو... الفلسفية.

3 ـ نسبة الى الصلاة المسيحية: «أبانا الذي في السموات... ولا تُدخلنا في تجربة، لكن نجّنا من الشرير. آمين».

4 ـ لدى ألتوسير يعتمد «! ممارساته الأربع ـ الممارسة الاقتصادية، السياسية، الايديولوجية، النظرية ـ تعمل على «مادة أولية» وتحوّلها الى منتوج. المجتمع مادة أولية! (انظر من أجل ماركس، تعريف الممارسة والممارسات). ألتوسير ألغى فكرة الشغل. عند ماركس، الشغل يتضمن الفكر.

5 ـ المادية الفلسفية الماركسية تبدأ بمقابلات أو تعارضات مفهومية: كينونة / فكر، طبيعة / روح، مادة / وعي.

في الوعي الماركسي السائد، هذه الازواج ليست تعارضات. من أين لها أن تكون تعارضات؟ فالوعي نتاج المادة. الأونطولوجيا أكلت الفنوزيولوجيا، نظرية الوجود ألغت نظرية المعرفة. حتى أطروحة لينين القائلة بنسبية التعارض الآنف (خارج حدود «المسألة الفلسفية العليا»، بقول لينين) مغفولة في الوعي المذكور. المادة تتحول الى إله... هذا أولاً

ثانياً، المقابلة مادة / وعي، ألغت التعارض واقع / هدف. مقولة العمل خُفِّضت وقُلِّصت. علاقة العمل والنظر صارت مباشرة علاقة بين مقولتين متخارجتين، أي نتيجة بلا أصل وأساس. فالأساس هو فكرة العمل ذاتها. مثلاً فكرة الشغل، مفهوم علم الاقتصاد السياسي، مقارنة ماركس بين النحلة والمعماري: الفكر متضمّن في الشغل الانساني، إنه تجريد وإنشاء واستباق، لذلك يستطيع أن يرشد العمل.

ألتوسير ـ الذي هو ردّ باطل على حالة باطلة ـ ألغى فكرة الشغل وفكرة العمل الانساني. واكتفى بهذا الالغاء نفسه مقولات المنطق المادي الجدلي، مستعيضاً عنها بمقولات علمية علموية.

الفهرس

الجمع التصويري وفصل الألوان والإخراج الفني والطباعة
شركة إنترجراف ـ إحدى مؤسسات الشركة العربية الليبية للاستثمارات الخارجية
INTERGRAF S.p.A. • ROMA • Tel. 91.04.010